بيل والاس من الصّين



هذه قصة حياة رجل عادي ، الا انه بعناية الله وهدايته قد عاش عيشة تجاوزت حدود الحياة العادية . لقد خدم بيل والاس في الصين كطبيب خلال سبع عشرة سنة كانت الاضطربات فيها تفوق كل الاضطرابات التي عرفها تاريخ تلك الدولة القديمة . والطبيب اصبح من رجال الاساطير بين الجماهير التي طببها . وبينما كان في ذروة ايام خدمته دعي ليختم شهادته ورسالة حياته بدمه . ففي شباط ١٩٥١ مات شهيداً في زنزانة مظلمة في داخل الصين .

الثمن ١٥٠ ق.ل.

مطبعة الخال اخوان وشركاهم
للطباعة والنشر

بيل والاس من الصين

لجسي فلاتشر

تعريب

الاستاذ اديب الغرزوزي



١٩٦٦

المنشورات المعمدانية

ص.ب ٢٠٢٦ – بيروت

ترجم بإذن اصحاب الحقوق باللغة الانكليزية

Bill Wallace of China
by Jesse Fletcher
Copyright 1963

مُقدّمة

ستخلد الاجيال المقبلة اسم وليم ل. والاس لان خدماته الطبيــة ، وهو مرسل في الصين ، خففت اوجاع كثيرين وشفت امراض عدد لا يحصى من النـــاس . وكان لاخلاقه المسيحية تأثير عظيم على ابناء المدينة التي عاش فيها . والمستشفى ستوت ميموريال الذي خدم فيــه كان يعتبر المؤسسة الطبية العظمى في جنوبي الصين .

ولما اوشك الشيوعيون ان يستولوا على مراكز الحكم في الصين طلب من المرسلين ان يختاروا اما ترك مراكزهم ومغادرة البلاد ، او البقاء مدة اطول على مسؤوليتهم الشخصية . وقد كان جواب الدكتور والاس : « اني سأبقى هنا ما دمت أشعر بفائدة بقائي . »

وهكذا ختم رسالته المسيحية بسفك دمه الغالي في سبيلها . وظل ، حتى بعد استيلاء الشيوعيين على زمام الحكم ، يخدم الجميع دون تفرقة . وهذا الكتاب يروي حكاية سجنه وموته بعد ذلك بثلاثة وخمسين يوماً متحملاً ما قاساه من آلام العذاب الوحشي بصبر عجيب .

والمؤلف سبر غور حيــاة ذلك المرسل وعرف حقيقة مقاصده ومعتقداته . وهو ، بادراك قل نظيره ، يروي في مؤلفه قصة حياة نبيلة كرست لخدمة الله ومنفعة الناس .

والذين يقرأون هــذا الكتاب سيطلعون على اسرار الروح التي

جعلت المؤلف اهلاً لتقديم النصائح والارشادات لأعداد متزايدة من المرشحين للخدمة الارسالية وهم يهيئون انفسهم للعمل في الخارج .

ورجائي ان يكون هذا الكتاب النفيس نوراً يهدي كل من يقرأه الى معرفة اوضح لارادة المسيح والى تكريس نفس أعمق جذوراً في حقل رسالته .

بايكر ج. كوثن
السكرتير المنفذ
مجلس الارساليات الخارجية
المجمع المعمداني الجنوبي

تمهيد

هذه قصة حياة رجل عادي ، إلا انه بعناية الله وهدايته قد عاش عيشة تجاوزت حدود الحياة العادية . لقد خدم بيل والاس في الصين كمرسل وطبيب خلال سبع عشرة سنة كانت الاضطرابات فيها تفوق كل الاضطرابات التي عرفها تاريخ تلك الدولة القديمة . والطبيب الذي تربى في نوكسفيل تنسي اصبح من رجال الاساطير بين الجماهير التي طببها ... وبينما كان في ذروة ايام خدمته دعي ليختم شهادته المسيحية بدمه ، ففي شباط ١٩٥١ مات شهيداً مسيحياً في زنزانة حبس شيوعي.

ظلت قصة الدكتور والاس مطوية مدة اثنتي عشرة سنة لم ينشر منها سوى فقرات مختصرة لا تظهر حقـائق اعماله الفائقة التصور . وذلك لاسباب عديدة ، منها ان الدكتور والاس قلما كان يتكلم عن اعماله ، ولانه لم يكتب شيئاً . وهو بطبيعته لم يكن من النـاس الذين يسترعون انتباه الناس اليهم . ثم لانه مـات في مكان منعزل ، حيث الكثير من الذين يعرفون حقيقة قصته لا يجرؤون على البوح بما يعرفونه عنه. لهذه الاسباب لا يسهل التوصل الى معرفة اعماله البطولية الخارقة.

ان اثنتي عشرة سنة كهذه مرت بسرعة تكفي عادة لابتلاع ذكرى رجل مات بعيداً في بلاد غير مألوفة . ولكن ذكرى الدكتور والاس تحدّت الموت وتغلبت عليه . فالوعّاظ في تفتيشهم عن المعلومـات الضئيلة عنه توصلوا مرة بعد مرة الى حقائق اكيدة عن حياة الدكتور الشهيد ، فلم يبق من المعمدانيين غير عدد قليل لم يسمعوا عنه .

والمعلومات التي عرفت عنه رغم قلتها أثرت على المرسلين وعلى ممثلي مجلس الارساليات . وكانت تمتد من بلاد الى بلاد فتثير الحماسة في القلوب . وصار المرشحون لخدمة رسالة السيد في البلدان البعيدة يتكلمون عن العزم الراسخ الذي زرعته ومكنت جذوره في عقولهم وقلوبهم حياة الدكتور بيل والاس وموته .

قال المرحوم الدكتور م. ثيرون رانكن السكرتير الاداري لمجلس الارساليات الخارجية للمعمدانيين الجنوبيين : « ظن الشيوعيون انهم يتخلصون منه بقتله ، ولكنهم بدل ان يتخلصوا منه خلّدوه . » لقد خلّدوه في حياة الذين عرفوه ، وفي حياة الذين استفادوا من شفقة قلبه الكبير ومن مهارة يديه ، وفي حياة الذين سمعوا قصة شهادته عند موته . وهذا الكتاب لا يمكن ان يزيد شيئاً على قدسية حياة مجربة كهذه ، إلا ان تأثيرها على هؤلاء الناس يفتح باب الأمل بان رواية القصة كاملة قد تمكّن اناساً آخرين من اكتساب روح التلمذة الجسورة التي لا تخاف المهالك والتسليم المبني على اساس ضبط النفس ، وهاتان صفتان ميزتا حياة الدكتور والاس .

هذه الغاية هي التي جعلت اسلوب هذا الكتاب روائياً اكثر منه تحليلياً ، لكي يظهر الدكتور والاس كأنه يعمل الآن فلا نشعر بحاجة الى الرجوع الى اعماله السابقة فضلاً عن انه فسح للمؤلف مجال الحدس والتخمين دون الابتعاد عن الحقائق والانطباعات المعروفة والتقارير الموثوقة .

هذه هي قصة الدكتور بيل والاس بحسب معرفتي لها .

المؤلف

١

المجرى الواحد

المكان هادىء تكاد لا تتحرك فيه نسمة ، والوقت طويل ثابت كأن عقارب الساعة فيه لا تتحرك او على الأقل هو يظهر كذلك للشاب بيل والاس . وفي داخل الكراج حيث جلس هذا الشاب افسحت الظلال لقدر من اشعة الشمس المتسللة من الابواب المفتوحة لتتراقص فوق سيارة فورد نصف مكشوفة ، وطاولة كالحة اللون عليها انواع مختلفة من الآلات المكسوة بالشحم والزيت وانجيل صغير مفتوح على الطاولة .

كان ابن الطبيب ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، معروفاً ببراعته الميكانيكية . وكان يشتغل بجد وكد متواصل في هذا الكراج حينما دقت ساعة تعيين المصير المحتوم . فابطأ في عمله لدى الدقة الاولى ، واخطأ فيه لدى الدقة الثانية ، وتوقف عنه لدى الدقة الثالثة .

ثم طرح اداة العمل التي كانت في يده ، وأخذ انجيله عن الطاولة معتمداً على أن يجد فيه جواب السؤال الذي طرق بدون انذار سابق باب تفكيره ، وسيطر على كيانه . ماذا يفعل بحياته ؟ لا . ليست هذه الصيغة الصحيحة للسؤال ، لانه ليس هو الذي يجب ان يقرر بل الله .

اذن السؤال يجب ان يكون بالصيغة التاليـــة : ماذا يريد الله ان يفعل بحياته ؟

ولم يكن باستطاعة أحد من الناس مهما كان فضولياً ان يشعر بأن قوة خفية كانت تتصرف بمقدرات مستقبل ذلك الفتى بعد ظهر ذلك اليوم الحار الساكن الهواء والمثبط للهمم . ولم يكن المكان او الظروف او شكل ذلك الفتى النحيل مما يساعد على كشف سر تلك القوة العاملة. ولكن هذا ما كان يحدث .

أيمكن ان تتدخل الرؤيا السماوية بالامور الدنيوية الى هذا الحد ؟ أيمكن ان يستحوذ الروح القدس ـ روح الله العلي ـ على اشخاص ويفرزهم لاعمال خاصة بمثل هذه الاساليب والظروف ؟ نعم هذا مـا حدث . وهـــذا ما عمله الروح وقد كانت بداءة هذه المسألة في ذلك الكراج نفسه .

فالشاب الذي كان يعـــد نفسه ليكون ميكانيكياً فذّاً تحوّل عن فكرته فجأة دون أي مؤثر خارجي معروف ودون أي اشارة سابقـة فقرّر في تلك اللحظة وفي الكراج نفسه ان الله يدعوه ليكون طبيبـــاً مرسلاً في مكان ما سيعلنه له في وقت لاحق .

ان عمل بيل والاس الايجابي المباشر ـ وهو تسجيل ما مر في باله في ذلك الانجيل الملطخ بالشحم والزيت وتسليمه لاخته ـ لم يُظهر بأية صورة عمق الدعوة وقوتها الديناميكية . ولكن هذه هي طريقته . فانه دائماً كان يعبر عن الأمور بأقل من حقيقتها .

كان اليوم الخامس من تموز ١٩٢٥ بدء تاريخ حياة بيل والاس الجديدة واساساً لمستقبله ومصيره . واهميـــة دعوته اصبحت أكثر وضوحاً عندما اندمج في حادثة أخرى حدثت في بلاد بعيدة هي بلاد الصين ، وذلك بعد تسع سنوات من حادثة والاس في الكراج .

في مدينة ووتشو الصينية القديمة (انظر الخريطة في آخر الكتاب) ، في خريف ١٩٣٤ سمع صراخ شعب متألم فاستجيب له من مستشفى ستوت ميموريال المؤلف من خمس طبقـــات حجرية البناء تظهر فيه الرأفة المسيحية الفعالة في قلوب افراد مكرسين . ففي ذلك المستشفى العظيم المرتفع في مدينة ووتشو كان المراقب الاداري الدقيق الدكتور روبرت بادو يبذل جهده للتعبير عن هذا الصراخ .

كان الطقس حاراً ، والمكتب الذي جلس فيه الدكتور بادو ضاق بما فيه من أكداس اوراق المراسلات وصفوف الكتب وملفـــات المستندات وطاولة كبيرة قديمة . على هذه الطاولة وضعت آلة كاتبـة قديمـــة . ثم أخذ الطبيب منديله من جيبه ومسح العرق المتصبب على وجهه وعلى رقبته تحت طوق قميصه المنشى . هذا الطبيب الذي صرف أفضل سني حياته في انماء « مركز الرحمة » التابع للمعمدانيين الجنوبيين وقف برهة يرتاح فيها من الضرب على الآلة الكاتبة ، وأخذ ينظر الى الخارج من شباك مكتبه الصغير . فرأى الطيور المائية تحوم فوق النهر الغربي تراقب ، دون غـــاية ، نشاط الحركة تحتها . ولاحظ الدكتور بادو ايضاً ان الحركة النقلية في ذلك الوقت كانت أشد من العادة ، وعزا ذلك الى تحرك جنود القائد الاعلى نحو غربي الصين للقضاء على

جماعات شيوعية متفرقة كانت تعرقل جهوده في سبيل جمع المقاطعات المتعددة تحت زعامة الحزب الوطني .

من الباب المفتوح كانت تسمع حركة العاملين في المستشفى وتشم الروائح المألوفة . وقد سمع المدبر الحكيم لهاث العمال ، وشم رائحة المطهرات والادوية والاثير ، حتى رائحة المادة التي تستعمل لتطهير ثياب الممرضات والممرضين البيضاء الرسمية . وكل هذه الروائح كانت ممتزجة برائحة الصين التي تثبت وجودها في كل آن وفي كل مكان . وفكر في كل ما رأى وسمع وشم ، ثم فرك عينيه المريضتين اللتين كانتا مصدر تعب وألم وعاد الى اكمال طبع ما كان قد بدأ به :

« نحن في مستشفى ستوت ميموريال لنا تاريخ طويل مجيد . ويحق للعمدانيين الجنوبيين ان يفتخروا بما عملوه باسم السيد يسوع المسيح . ولكننا الآن في خطر خسارة المركز الذي وصلنا اليه بالكد والتعب ، وفي خطر التخلي عن مسؤولياتنا في خضم الآلام وصحراء الوثنية . فالمستشفى ، بدون طبيب جراح ، تبقى اعماله محدودة ؛ وتأثيره كمركز تعليمي نافع ، وكمنارة تبث شعاع الرحمة في كل الصين ، لا يتحقق .

« يجب ان يكون عندنا في المستشفى طبيب مرسل ، طبيب جراح يستطيع ان يعمل ما كنت أعمله أنا قبل ان تضعف عيناي وأصاب بنظري . انني اكرر انه يجب ان يكون لدينا طبيب جراح .

« اني ارفع الامر اليك بالنيابة عن آلاف المتألمين هنا – وانت تعرف حالتهم وبؤسهم – وألتمس منك ان تجد طبيباً جراحاً وترسله الينا . »

وبعد ان ختم رسالته بالعبارات المنمقة المعتادة سحبها من الآلة الكاتبة وطواها بسرعة قائلاً : « لو كانت اللجاجة تجدي شيئاً لجاءنا مئة جراح . » قال هذا وهو يعلم ان حاجة الملايين في جنوبي الصين تحتاج الى اكثر منهم وانها ستبتلع جهودهم فلا تظهر ، خصوصاً انه كان ينظر الى الصفوف الطويلة المتعرجة امام عيادة المستشفى . ثم تأوه وقال : « يا إلهي امنحنا طبيباً جراحاً . »

هكذا كانت خطوط مستقبل بيل ولاس تتضح اذ كانت حاجة بلاد قديمة تنتظر تكريس ذلك الجراح الحاذق فانه كان قد درس الطب اطاعة لدعوة الله له فاندمج ما جرى في حياته مع ما يجري في مستشفى ستوت ميموريال في مجرى واحد بموجب القصد الإلهي .

في مستشفى نوكسفيل العام كان رئيس الاطباء المناظرين يكتب رسالة . وكانت الاسئلة والطلبات الكثيرة في المستشفى قد قطعته عن الكتابة قبل ان ينهي الرسالة . ثم أحضر ظرفاً كتب عليه عنوان مجلس الارساليات الخارجية للمجمع العمداني الجنوبي، رتشموند ، فرجينيا ، وهمّ بوضع الرسالة فيه ولكنه قرر ان يقرأها مرة ثانية .

« اسمي وليم ل. والاس . اشتغل الآن في قسم الجراحة في مستشفى نوكسفيل .

« منذ سنتي الدراسية الاخيرة في المدرسة الثانوية شعرت بان الله يريد ان اكون مرسلاً طبيباً . ولهذه الغاية قد اعددت نفسي . درست في جامعة تنسي كل ما يؤهل الطالب للدخول في كلية طبية . ثم انهيت

دروسي في جامعة ممفيس الطبية وقضيت سنوات التدرّب في مستشفى نوكسفيل ولا ازال أعمل فيه في الفرع الجراحي .

« لست ادري ما الذي تطلبونه من الاستعلامات عني ولكني على كل حال اقدم لكم المعلومات التاليـــة : انا شاب عزب ، عمري ست وعشرون سنة ، عضو في كنيسة برودواي المعمدانية . ماتت امي وأنا في الحادية عشرة ، وابي مات منذ سنتين وقد كان طبيباً . ولي اخت على وشك الزواج .

« ويجب ان اعترف انني لا اجيد الخطابة والوعظ ، وانني لست اهلاً لان اكون معلماً . انما أشعر بان الله يستطيع ان يستخدم كفاءتي الطبية . وبكل تواضع اتطوع لهذه الخدمة فأكون طبيباً مرسلاً .

« كنت دائماً افكر بالعمل في افريقيا ، ولكني مستعد للذهاب الى أي مكان أكون فيه مفيداً . »

قرأ بيل والاس الرسالة التي كانت ستقرر الخطوة الاخيرة نحو تحقيق غايته وهو يعلم انه في هذه المرة أيضاً كان يعبر عن الاشياء باقل مما تستحق . ولكن هذه هي طريقته .

وضع الرسالة في الظرف وختمه ببطء ، ونهض من جانب طاولة ممرضة الليل ووضع سماعته في جيب سترته البيضاء ومشى نحو صندوق البريد وادخل الرسالة فيه . وكان الفجر قد لاحت تباشيره .

كان مجلس الارساليات الخارجية للمعمدانيين الجنوبيين في حالة ضيق في ذلك الوقت ، وقد عهد الى الدكتور تشارلز مادري ادارة اموره لاجل تحسين الحالة . والدكتور مادري هو نفسه الذي استلم في

خريف ١٩٣٤ رسالة الدكتور بادو ورسالة الدكتور والاس . فاستبشر خيراً زاعماً ان في ورودهما معاً دليلاً يقوي امله بتحسين الحالة . هنـــا رسالة من الصين تعرب عن الحاجة الى طبيب جراح . وهنا رسالة من نوكسفيل ـ مرسلها طبيب جراح يبتغي العمل . فالرسالتان تتممان مقصداً . إذن يد الله في التدبير . هـــذا ما استنتجه الدكتور مادري متأكداً ان الله سيواصل عمله ، وسيساعده على تحقيق احلامه فيزداد الدخل المالي وتنتظم الامور وتزدهر اعمال الكنائس .

لقد كانت مقاصد الله أقوى من كل الموانع التي تعترض سبيل التقدم ، او تحاول تثبيط همة الدكتور مادري . ومع ذلك كان يرحب بما يؤكد له ذلك بين وقت وآخر . وهاتان الرسالتان وامثالهما مما يحقق له هذه الامنية .

فكر الدكتور مادري في الرسالتين وقال في نفسه : « يا دكتور والاس قابل الدكتور بادو فانت جواب صلاته ، وكلاكما لا تعلمان ذلك . » ثم عاد الى نفسه وقال علينا ان نستعلم عن اهليـــة الدكتور والاس للمهمة . وليس من الحكمة ارسال رجل لهذا العمل الخطير قبل الاستعلام عن مقدرته واختباراته واخلاقه المسيحية . ورغم شعوره ، بداهة ، بان الدكتور والاس له كل المؤهلات والصفات المطلوبة أقدم على الاستعلام عنه .

اكدت الاسابيع التالية ان شعوره كان في محله ، فالجوابات على رسائله الاستعلامية كانت كلها مشجعة ملأى بالثناء .

كتب احد اصدقاء عائلة والاس : « هذا الشاب قد خلق للمهمة

المطلوب لها . ابوه الدكتور وليم ل. والاس كان أحب الاطباء الى قلوب الناس في نوكسفيل . وقد بنى هو وزوجته اليصابات آن جورج بيتا على زاوية برود واي وسلفر بلايس ، وهناك كان يطبب ويربي عائلته .

وعندما بلغ « بيل » الحادية عشرة كان نشيطاً كثير الحركة ويصح ان نقول شكساً . وحصل ، وهو في ذلك العمر ، ان اجتاحت البلاد وافدة من الانفلونزا اصيب بها كثيرون وماتوا ومنهم امه ايضاً . فاهتم ابوه وأم امه بتربيته وتربية اخوته .

« بعد هذه الحادثة اصبح — كما اظن — اميل الى الخجل ، ولست اعلم اذا كان للحادثة أثر في ذلك . انما اعلم جيداً انه صار فتى جيداً يلازم اباه . وكان ابوه ينقله في سيارته الى حيث يدعى لمعاينة المرضى . والفتى بيل والاس كان منذ طفولته مغرماً بالسيارات ، وله موهبة وميل للاعمال الميكانيكية . وبينما كان الفتيان رفاقه يصرفون اوقاتهم في الالعاب الرياضية والاعمال الاجتماعية كان هو يجد اللذة بل المتعة في اشباع ميوله الميكانيكية حتى اكتسب شهرة في اوساط الميكانيكيين . ويجب ان اعترف باننا كلنا كنا على يقين بانه سيدرس الهندسة الميكانيكية أو ما هو من بابها .

« وهكذا ترى ان عزمه على ان يكون طبيباً مرسلاً قد ادهش كل من يعرفون تلك العائلة . اذ انه كان هادئاً . وقد كان متعبداً ومنذ تجدده وانضمامه الى الكنيسة كان صادق الايمان نشيطاً في الخدمة خصوصاً في منظمات الاحداث .

« احب ان يظل منزوياً متوارياً ، حسب ميله الخلقي الذي قد يرافقه دائماً . ولكنني اعتقد انه لن يستطيع ان يظل كذلك ، لان مجرى حياته يدل على ان قوة عظيمة تسيره . وانا أشعر بانه مقدر له ان يخدم الله خدمات جلى .

« بعد ان قرر ان يصير مرسلاً دخل جامعة تنسي . ورغم تفوقه السابق في المدارس لم نظن انه سيكون تلميذاً ناجحاً متفوقاً ، ولكنه كان من الممتازين . وامتيازه كان اول برهان على عزمه على اعداد نفسه للمهمة التي دعاه اليها الله . ثم دخل الفرع الطبي في مدينة ممفيس .

« وما يؤسفني هو افتكاري بان اباه مات حالما انهى هو دروسه الطبية وقبل ان يفرح بالشهرة التي نالها ولده وقد اخبرني عنها رفاقه الاطباء المشتغلون معه في مستشفى نوكسفيل العام . خسر بيل اباه ، ولكنه اعطى كل ما في امكانه للمهنة التي شرفها ابوه بخدماته الممتازة مدة طويلة . وهو الآن يقدم كل فوائد مهنته لخدمة المسيح . »

هذه المعلومات مع المعلومات الاخرى التي ايدتها حملت الدكتور مادري على مقابلة الدكتور والاس بنفسه . وفي تشرين الثاني تمت المقابلة في نوكسفيل فكان مسروراً بما شاهده واطلع عليه . فالدكتور بيل والاس كان حسن المظهر ، غيوراً رزيناً . وكل ما يمكنه ان يقوله عنه هو انه شديد الاندفاع للخدمة الارسالية .

بعد هذه المقابلة كتب الدكتور مادري الى الدكتور بادو واطلعه على أول بادرة أمل كان في استطاعته ان يقدمها لذلك المرسل في الصين :

« انا الآن آمل بان الدكتور وليم ل. والاس الطبيب الجراح في مستشفى نوكسفيل ، تنسي ، سيكون الشخص الذي يسد حاجتك . وهو شاب وسيم رزين حائز كل المؤهلات التي تسد الفراغ الذي اشرت اليه في رسالتك . »

كان هناك مانع آخر يجب ان يزال للسماح لمجرى الغاية الالهية الواحد ان يسير في طريقه . نعم كان يجب ان يمتحن الدكتور بيل والاس امتحاناً يؤكد تمسكه بما نذر له نفسه .

هذا الامتحان جرى بعد مقابلة الدكتور مادري للدكتور والاس بوقت قصير . فالدكتور ديوي بيترز – صديق والد بيل والاس منذ زمن طويل والذي كان سيصبح عضواً في كلية الجراحين الاميركية – دعا الدكتور بيل وسأله اذا كان في امكانه ان يزوره في مكتبه .

فرح بيل بهذه المقابلة وعدها فرصة سعيدة يتكلم فيها مع معلمه السابق في مدرسة الاحد فيخبره بانه من الممكن ان يصير مرسلاً معمدانياً في الخارج .

بعد ان ترك ورقة لممرضة الليل يخبرها فيها عن مكان وجوده لتخابره اذا طرأ ما يدعو الى ذلك خرج ومشى في هواء الشتاء البارد الى مكتب الدكتور بيترز .

« اهلاً يا وليم ، ادخل . » فمد بيل يده بشوق وصافح يد الدكتور بيترز الممدودة نحوه ثم جلس على مقعد مريح في ذلك المكتب الحسن التنظيم والترتيب .

كان اصدقاء العائلة يدعونه « وليم » اما رفاقه الذين من جيله فكانوا يفضلون ان يدعوه « بيل . »

« انك كرئيس الاطباء المقيمين في المستشفى تقوم بخدمتك على اكمل وجه ، وانا فخور بذلك لانني اوصيت بك وقدمتك لهذه الوظيفة . »

فاحمر وجه بيل خجلاً لان الاطراء كان دائماً يربكه وقال : « اني اشكر لك حثك لي على قبول المركز والبقاء فيه يا دكتور بيترز. ولست ادري كم كانت معرفتي محدودة لو لم اصرف هذه المدة في هذا المركز الذي زاد تعطشي الى العلم حتى صرت تلميذاً محترفاً لا اضجر ولا اتعب من الدرس . » فقال الدكتور بيترز مسروراً : « هذه طريقة جيدة نافعة يجب ان تستمر فيها يا دكتور ، لان صاحب هذه المهنة لا يستغني عن الاستمرار في الدرس والمطالعة . فمهما كثرت اشغالك وثقلت احمالك فلا تتوقف عن الدرس لئلا تخسر شهرتك وتشقي مرضاك . فقرر الآن ان تمارس وتتبع أفضل طرق المعالجات الطبية مدى حياتك . »

فحنى بيل رأسه مشيراً بذلك الى القبول والانصياع ، والى انه لن ينسى ابداً ما سمعه .

وتابع الدكتور بيترز حديثه فقال : « ولكن انا ما دعوتك لتسمع محاضرة يا دكتور » وضحك الاثنان طويلاً « بل لتفكر في اقتراح اعرضه عليك بعد ان فكرت انا به ملياً واستحسنته . » ثم توقف

الدكتور بيترز هنيهة وحدق بالدكتور الشاب النحيف الجالس امامه وقال : « أنا اريد لك ان تكون معي وتستفيد من خبرتي . والمدة التي تقضيها معي يمكن ان تحسب لك استعداداً لامتحان مجلس الجراحة الاعلى . ومع الزمن تصبح شريكاً لي . »

هذا ما اكتفى الدكتور بيترز بقوله ، ولم يذكر ان ما عرضه عليه كان فيه فائدة مادية لا يستهان بها فضلاً عن الشهرة الطبية التي تتيحها له هذه الفرصة الغير المحدودة . وقد سكت الدكتور بيترز تأدباً عن اعلان الحقيقة كلها فلم يقل ان مكتبه يمارس ما ذكره سابقاً في ما عده محاضرة « افضل طرق المعالجات الطبية » . وقد كان بيل يعرف ذلك. هذا الاقتراح للرجل المشبع بروح المهنة الطبية ، والملتهب حماسة لمقاومة الامراض التي تهدد البشرية وتسبب الموت قبل اوانه ، كان تجربة كبرى وامتحاناً عسيراً ، لان الطبيب الشاب كان يحلم بمثل هذه الفرصة النادرة التي تفسح امام جهوده مجال التقدم في مهنته ، وفي الوقت نفسه كان امتحاناً لفهمه التوجيهات الالهية ، واختباراً لمدى تقيده بها واستعداده لتنفيذها .

صلى الدكتور بيل عدة ايام وقلب المسألة على كل وجوهها . فشعر بانه مدين للدكتور بيترز بافتكاره فيه وتقديره لاهليته . والمال ؟ هذا الجزء من المسألة لا يغريه ولا يخدعه، وهو الذي قال فيه احد اصدقائه: « الدكتور والاس يعيش غريباً بين المتكالبين على الدنيا والطالبين الغنى كيفما تسنى لهم بالحرام او بالحلال . وهؤلاء ـ وهم الكثرة من الناس ـ يحسبونه غبياً ، غير واقعي ، لانه عندما يسأل عن بدل عيادته

الطبية يجيب في الغالب « لا تفكروا بهذا » . انه الرحمة مجسمة ، انه من نوع الذين يسيرون فوق الغيوم ونظرهم الى النجوم والى ما هو أعلى . والبشر العالميون الماديون الذين يصرفون معظم سني حياتهم في عد الفلوس وقراءة الصكوك العقارية يمشون تحته على الارض بعيدين جداً عن المكان الذي يحلق فيه . »

الشهرة والذكر الحسن ؟ هما ، كالاطراء ، من الامور التي تلبكه وتخجله . الصيت ؟ انه يصبو الى ما يؤهله لان يكون طبيباً من اطباء كلية الجراحة الدولية ذلك لانه يعني اولاً انه من الذين يمكن الاعتماد عليهم في بذل الجهود نحو مهنته .

اذن اين التجربة ؟ التجربة هي في الفرصة التي اتيحت له ليتعلم ، ويتقن علمه ، ويستقصي نواحي جديدة من حقله ، وهذه الامور لا تتيسر له ـ على فرض وجودها ـ اذا كان شغله في عمل ارسالي .

ولكنه عاش مدة طويلة واعد نفسه للخدمة في حقل الارسالية فلا يستطيع ان يتخلى عن فكرته هذه . والله قد دعاه ودربه على الحياة حسب نمط يختلف عن نمط الحياة العادية . لذلك ، بعد بضعة ايام ، رجع الى مكتب الدكتور الكبير بيترز وشكر له حسن ثقته به واوضح له ميله لخدمة الرسالة المسيحية . ثم ذكر له مقابلته للدكتور مادري وبخجل قال : « واذا رفض مجلس الارساليات ، لسبب ما ، قبولي ، فاني اكون سعيداً جداً بقبول اقتراحك . » قال هذا ، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بان مصيره مرتبط بمستشفى ستوت ميموريال في الصين .

حالما ترك بيل مكتب الدكتور بيترز وانطلق الى عمله في المستشفى شعر بالراحة النفسية والاطمئنان ، وكان شاكراً وراضياً عمـا حدث فبـدد آخر غيمة من غيوم التردد . وتذكر فقرة من رسالة كان قد تسلمها من الدكتور بادو في ووتشو جاء فيها :

« أنا ألححت على الدكتور مادري كي يرسل لنا طبيباً جراحاً شاباً . ويظهر أنك انت الطبيب الذي سيتولى هـذه المهمة . فانا أرجو واصلي كي يتم هذا الامر ويتحقق . راعي كنيستك يكتب بحماسة عنك . فاذا كنت أنت الانسان المعين من الله فاني أرجو ان يكون قدومك سريعاً ، حتى نتمكن من العمل ما دام نهار .

« باستطاعتي أن أكتب ساعات عن الحالة . واعتقد انني أقدر ان أهز أريحيتك بتعداد امكانياتها، ولكن الوقت قصير محدود ، فضلاً عن اني لا أحب أن اثقل عليك . انها فرصة غير عادية لمن يلتهب بالرغبة في تمجيد الله في حياته . واني آمل ان تكون أنت ذلك الرجل .»

صلى بيل بصمت وسأل الله ان يجعله ذلك الرجل .

مرّ ربيع ١٩٣٥ بسرعة وقد ورد اليه فيه أوراق تتلو أوراقاً من مجلس الارساليات الخارجية ، وكان على بيل ان يجيب عليها في وقت فراغه . ثم ورد طلب في ايار يدعوه ليكون في رتشموند في تمـوز ليفحصه المجلس فاذا نجح وقبل يسافر بحراً الى الشرق في وقت لا يتجاوز شهر ايلول .

كان الدكتور بادو في هذه الاثناء يواصل الكتابة الى بيل والاس .

وفي احدى رسائله استعلم عما اذا كان بيل يفكر في الزواج وفي احضار زوجته معه . ضحك بيل لان كثيرين غير الدكتور بادو كانوا قـد استعلموا عن هذا الامر . وكانوا يقولون انه اذا اراد ان يرمي نفسه في بلاد وثنيّة بعيدة فيجب على الاقل ان يصطحب معه زوجة . وقد اثار هذا القول في نفسه تفكيراً عميقاً .

انه كان معجبـاً بالنساء الفاتنات وخصوصاً الذكيات منهن . من هؤلاء فتاة كانت تسترعي معظم انتباهه . فهل كان يحبها ؟ هو نفسه لم يكن يعلم . وربما الاهم من ذلك انه لا يدري كيف يبرىء نفسه من مسؤولية أخذها معه الى الصين .

في حزيران حضر مؤتمراً معمدانيـاً اجتمع في ريدجكراست في غربي كارولينا الشمالية واصطحبها معه . فظن كثيرون من الذين رأوهما معاً ان الدكتور الشاب يفكر بالزواج . ولكن الفتاة نفسها أعلنت بعد ذلك قائلة : « ما تفكرون فيه غير وارد الآن، لانه ان صح فانما يكون ذلك من نوع المضارّة (التزوج بامرأتين) فالدكتور بيل والاس قـد تزوج عمله .»

في ٢٤ تموز ١٩٣٥ حضر أمام مجلس الارساليات الخارجيـة للمعمدانيين الجنوبيين فامتحن المجلس استعداده ، واحساسه بالدعوة ، واذعانه لما يتطلبه منه المسعى الارسالي. ووافق جميع الاعضاء على اهليته وقبوله قائلين : هذا الشاب مكرس بكليته ومستعد كل الاستعداد لتنفيذ المهمة التي آمن بأن الله قد دعاه لاجلها .

وفي ٢٥ تموز ١٩٣٥ ، أي بعد عشر سنوات من الشهر الذي شعر فيه ، وهو في ذلك الكراج ، بـأن الله يدعوه لخدمة مقاصده ، تعين طبيباً مرسلا للخدمة الطبية في ووتشو جنوبي الصين .

وسار مجرى القصد الالهي الواحد متدفقاً بثبات نحو الشرق .

٢

يده على المحراث

في السادس من ايلول ١٩٣٥ سافر بيل من مرفأ سان فرنسيسكو . وفيما كانت السفينة تمر في خليج سان فرنسيسكو كانت رؤيا جسر الباب الذهبي تترجح بين الحلم والحقيقة .

وفيما المياه الزرقاء تترجرج في خط الماء الابيض الذي تركته السفينة وراءها كان بيل يراقب هضبات كاليفورنيا المبتعدة عنه شيئاً فشيئاً . عندئذ تملكته موجة من الحنين الى الوطن وعاد بتفكيره الى نوكسفيل ، فغص وهو يتذكر يوم الاحد الاخير هنـاك ـ ذلك اليوم الذي دعي « يوم بيل والاس » في كنيسة برود واي المعمدانية .

في ذلك اليوم تجمع ابناء الكنيسة الذين عرفهم بيل واحبهم كثيراً وحضروا الاجتماع باقبـال غريب . وفي صباح اليوم الذي سافر فيه جمعوا هدية ماليـة تكفي لدفع مرتب الدكتور بيل السنوي واكلاف تعلمه اللغة الصينية مدة سنة ، ومصاريف سفره وشحن امتعته .

وبما ان مجلس الارساليات هو الذي يدفع هـذه القيمة عادة اراد ابناء برود واي هذه المرة ان يحتفظوا بهذا الامتياز لانفسهم فارسلوا المبلغ الى المجلس لتغطية النفقات المذكورة . وقالوا للدكتور بيل والاس

ان جهاد الارسالية في سبيل الخدمة المسيحية لم يكن في نظرهم في أي وقت كما هو الآن ، لان ابناً من ابنائهم يذهب الآن الى مكان قصي ليتمم مشيئة الله . وبعد عظة قصيرة القاها القسيس طلبوا من بيل ان يتكلم .

لم يكن بيل من الذين يسهل عليهم التكلم او القاء المواعظ والخطب. وفي ذلك الصباح كانت الصعوبة مضاعفة . ولكنه لم يعتذر بل وقف وقال :

« تعلمون انني ذاهب لاشتغل في مستشفى ستوت ميموريال في ووتشو ، في جنوبي الصين. اني احتاج حاجة شديدة الى صلواتكم واني اقدرها واشكركم لاجلها . » ثم اجال نظره وتابع « انا حقيقة لا اعرف ماذا اقول ... وأظن ان من حسن حظي انني طبيب لاني لست ممن يحسنون الكلام ولا انا موهوب لذلك . » ثم ابتسم وابتسم جميع الحاضرين ايضاً .

« قد يكون من واجبي ان اقول : ان كثيرين سألوني لماذا لا ابقى وأعمل هنا ، ومجال العمل هنا واسع . هؤلاء لا ادري بماذا اجيبهم . انما الجواب الذي أعرفه جيداً هو انني ذاهب الى الصين لان الله يقودني الى هناك . »

كانت الكنيسة تغص بمن فيها . وبعد انتهاء الخدمة الدينية رافق بيل الى المحطة حوالي مئتي شخص. وكانت هذه البرهة أصعب الاوقات التي مرت عليه ، ليس لانه كان يودع ويفارق احباءه العزيزين عليه ، خصوصاً اخته التي كانت قد تزوجت منذ اسبوعين ، بل لانه كان

يشعر في قرارة نفسه بانه لا يستحق كل الثناء الذي سمعه والاكرام الذي لا يزال يلقاه .

في الاحد التالي كان بيل والاس على الباخرة « برازيدنت كولدج » المتجهة نحو ووتشو في الصين الجنوبية فاستعاد في باله ذكرى ذلك الاجتماع الحلو في برود واي . وخفق قلبه لتلك الذكرى اللذيذة الا انه لم يكن باستطاعته ان يصرف وقته في التطلع الى الوراء والاستمرار في تذكر ما مر ، لان الوقت كان وقت الالتفات الى ما سيكون لا الى ما كان ، فادار وجهه نحو مقدم الباخرة ومد نظره نحو الشرق. لقد وضع يده على المحراث ولا سبيل الى التراجع .

لم يكد ايلول يخلي مكانه لتشرين الاول حتى كانت الباخرة برازيدنت كولدج تمخر في ميناء هونغ كونغ العظيم . كانت الوقفات التي وقفتها الباخرة وسهلت لبيل أن يشاهد طوكيو وشنغهاي قد عرفته نوعاً ما على مشاهد الشرق ولكنه لم يجد شيئاً مما شاهده يوازي ما كان يشاهده في تلك المستعمرة البريطانية الشديدة الحركة والضوضاء ، تلك المستعمرة التي هي المدخل السحري الجميل للدولة الصينية القديمة .

مناظر معربدة واصوات صاخبة وروائح غريبة كلها كانت تستقبله مرحبة . مشاهد فخمة ، قوارب ملونة ، بيوت فخمة ، اوساخ وأقذار ، وشقاء ومحن ، كلها كانت تتفاعل فتؤلف فصلاً كاملاً من الرواية . والناس جماعات جماعات في كل مكان . هذا ما شاهده بيل ولم يكن اول مرسل لم يقل شيئاً مع انه كان لديه اشياء كثيرة يريد ان يتكلم عنها .

انحنى المرسل الشاب المدهوش فوق الدرابزين ، في حين كانت الباخرة تلقي مراسيها ، وحاول ان يتحقق انه لدى مدخل البلاد التي نذر نفسه لخدمتها . هذه البلاد ، بدون منشوريا التي اخذتها منها اليابان في ١٩٣٢ ، تساوي مساحتها مساحة الولايات المتحدة الاميركية وعدد سكانها ربع سكان العالم كله . هنا موطن شعب رأى الحضارات التاريخية العظيمة ترتفع وتهبط . وهنا مشهد من مشاهد بطولة المرسلين في خدماتهم النافعة خلال انتشار المسيحية في احقاب التاريخ .

افكار كثيرة كانت تجول في خاطر بيل عندما فاجأه أحد المرسلين التابع لملة اخرى بقوله : « انت الآن تشترك في تراث قديم . أتعرف ذلك ؟ » حنى بيل رأسه متسائلاً في نفسه عما اذا كان ذلك المرسل يحس بالافكار التي تتزاحم متسابقة في رأسه . وتابع المرسل القديم حديثه : « جاء المبشرون الى هذه البلاد منذ القرن الثامن ولكن البلاد طوتهم جميعاً ودفنتهم بين آثارها القديمة التي لا قرار لها . جاهد مرسلو الكاثوليك خلال القرنين الرابع والخامس عشر ولكن المنشو منعوا المسيحية في ١٧٢٤ فنكب المسيحيون واندرس ما كانوا قد اوجدوه . »

كانت عينا الدكتور الشاب بدون انتباه تمزج ما تراه من الصور بالصور التي كان يرسمها في الفكر صوت ذلك المرسل الذي يروي احاديث الماضي بقربه .

« لا شك انك سمعت ما يحكى عن روبرت موريسون الذي نعتبره نحن ابا المرسلين البروتستانت في الصين . هذا كان رجلاً انكليزياً تأثر بتعاليم وليم كاري المعمداني ، وتخطى كل الموانع التي اعترضت سبيله ليمهد لنا الطريق ويهيئها لنشر الانجيل بين ابناء هذه المدنية القديمة .

« يقولون ان موريسون هو الذي اجاب على سؤال تهكمي وجه اليه — اذن انت تنتظر ان تؤثر على وثنية الامبراطورية الصينية الواسعة ؟ — فقال : لا يا سيدي اني انتظر ان الله سيفعل ذلك . »

بالقرب من الباخرة في الميناء ، كان قارب صيني صغير يزدحم فيه الاولاد الذين يغوصون في الماء ليلتقطوا قطع النقود التي يلقيها لهم في الماء بعض ركاب الباخرة . فحدجهم المرسل بنظرة ثم عاد لاتمام حديثه :

« بعد موريسون جاء كثيرون الى الشرق وهم مثله باعتقادهم واقتناعهم . وقد دفعوا الثمن غالياً . لانه يقال ان معدل عمر المرسل لم يتجاوز السبع سنوات بعد يوم وصوله الى هنا . وفي الخمسين سنة الاولى من عملهم واحد فقط من المرسلين اكمل الاربعين . اما انت فكطبيب ستدخل بنوع خاص ميراثاً نبيلاً . فمنذ حوالي مئة سنة جاء الدكتور بيتر باركر ليؤسس العمل الطبي الارسالي في الصين . فقال عدد من المؤرخين انه برأس مبضعه افتتح الصين . »

وعي بيل كل هذا الحديث عالماً ان هذه البلاد هي بلاد ثورة البوكسر في السنة ١٩٠٠ التي اعدم فيها مئات من المرسلين البروتستانت وألوف من المسيحيين الصينيين بمقتضى نظام صيني رجعي . كثيرون من هؤلاء رفضوا العفو عنهم بدل انكارهم المخلص يسوع ، مفضلين ان يختموا شهادة ايمانهم بدمائهم . اما في الوقت الحاضر فالناس يقولون : تلك ايام وقد مضت وليس على أحد ان يضحي بحياته من أجل ايمانه ومعتقده . انه القرن العشرون المتمدن .

مرسلون من جميع انحاء الصين كانوا في المرفأ عندما وصل بيل ورفاقه ، فرحب المعمدانيون باول نجدة يستقبلونها منذ أكثر من عشر سنوات . وكان فرحهم شديداً واملهم بالتقدم متجسداً في هذه الجماعة الجديدة المندهشة من المبشرين المرسلين . وقد كان بين جماعة المرسلين المرحبين شخص له اهتمام خاص بوصول الدكتور وليم ل. والاس . ذلك الشخص هو الدكتور بادو مدير مستشفى ستوت ميموريال في ووتشو . فهذا اليوم قد تميز عنده بان فيه استجيبت صلواته لاجل المساعدة . دكتور آخر قد جاء ليستقبل صفوفاً من المرضى المتوجعين ليس لها آخر – بيدين مدربتين ، وعينين يقظتين ، وقلب نذر للمسيح . وكم هو مشتاق لهذه اللحظة !

بعد ظهر اليوم التالي سافر بيل والاس والدكتور بادو على ظهر سفينة من سفن النهر الغربي متجهة نحو ووتشو ، لان الدكتور بادو أراد ان يري المرسل الجديد المستشفى الذي سيشتغل فيه قبل ان يذهب الى كانتون ليتعلم اللغة الصينية في مدة سنة كاملة .

كانت السفينة مثقلة بأربع طبقات من الركاب وببضائع مختلفة الانواع . وفي ظروف عادية تستغرق سفرتها من الخليج الى النهر الغربي ثم صُعُداً فيه الى ووتشو أربعاً وعشرين ساعة . والمسافة التي هي حوالي ٢٢٠ ميلاً كثيراً ما يؤخر السير فيها حدوث الطوفانات ، وهجمات القرصان ، وتعديات سالبي البضائع .

كان الدكتور بيل مدهوشاً بالمناظر الجديدة التي كان يشير اليها الدكتور بادو ويعلق عليها الحواشي والشروح . وكانت جوانب

الارض ترتفع رويداً رويداً حتى تبدو كالتلال المتصلة كلما تقدمت السفينة في داخلية البلاد . وكانت المشاهد المتنوعة خلابة والقرى منتشرة على حدود الماء لا تبعد الواحدة عن الاخرى سوى بضعة أميال . فشاهد بيل العمال – وعلى رؤوسهم قبعات كالمظلات – يشتغلون في الحقول ، او يتتبعون مجرى ماء تضخه الطلمبات لسقاية الارض او يجرون قارباً على البر . وقرب القرى كان أولاد عراة يلعبون على جانب النهر ، ونساء يغسلن الثياب ويضربنها بالمخابيط لتنظف .

وأشار الدكتور بادو الى قرية هي صورة نموذجية للقرى الاخرى وقال : « حيطان بيوتها من الطين المجفف ، والسقوف من القش ، والارض فيها من الطين المدلوك ، والشبابيك مصنوعة بشكل شعريات من الخشب تغطى بالورق لان الزجاج نادر وغالي الثمن . وكما ترى ، المباني الثانوية مصنوعة من قصب الخيزران المحبوك معاً لان الخشب بضاعة غالية هنا والفلاحون لا يستعملونه إلا جوائز لسقوف البيوت او للادوات الزراعية والاثاث او لتوابيت الموتى . »

واستطاع بيل ان يرى في الفسحات الخارجية حول البيوت نساء يغزلن او يخطن الثياب او يصلحنها او يطبخن الطعام . ورأى أيضاً الشيوخ المسنين جالسين في الشمس ، والاولاد يلعبون ، والخنازير والدجاج تنقب الارض مفتشة عن طعامها . ورأى الفقر والاوساخ والامراض ، ومع كل ذلك رأى بشراً فأحبهم قلبه وصار منذ الآن فصاعداً يدعوهم شعبه ويدعو الصين وطنه .

في اليوم الثاني ، بعد الغداء بقليل ، مرت السفينة في مضيق فقال

الدكتور بادو : « هذا المضيق يظهر جميلا جداً عنـــد الغروب اذ ترى عند ذاك ألواناً جميلة تتلألأ معاً . ولكن لا يخدعنك جماله فهذا المضيق يسبب محناً وبلايا لووتشو . فانه عندما تتساقط الامطار بغزارة وتتدفق الى النهر الغربي ونهر فو اللذين يلتقيان في ووتشو يقذفان بفائض مياههما الذي ينحصر في هذا المضيق وأمثاله ، الى داخل المدينة ويرتفع المـــاء حتى يصل الى الفسحة الامامية عند مستشفانا وسترى ما اعنيه قبل ان تمر بضعة شهور . »

وبعد لحظات أشار الدكتور بادو الى هضبة يرتفع فوقها معبد صيني ظاهر بين الغيوم البيضاء المحيطة به وكأنها الصوف الابيض المنفوش . ثم بعد لحظات اخرى ظهرت مباني ووتشو وقدر الدكتور بيل ان يعرف مسكنه الجديد هناك .

تقع مدينة ووتشو على حافة النهر وتمتد صعداً حتى جوانب التلال المحيطة بها . وابتداء من جانب « النهر الغربي » الشمالي امتدت المدينة حتى ملتقاه بنهر « فو » الصغير ، ومن ثم امتدت صعداً على جانب نهر فو الشمالي الشرقي . وعند مصب نهر فو ازدحمت القوارب الصغيرة والسفن والمواعين . وكثير من هذه لم يكن سوى بيوت عائمة وثياب مغسولة منشورة على حبال ممتدة بين بيت وآخر منها .

وبينما كانت السفينة النهرية تمر الى مركزها في المرفأ أمسك الدكتور بادو بذراع الدكتور بيل ووجه انتباهه الى بناء مرتفع مؤلف من خمس طبقات منتصب في منتصف سفح تلة عالية . هذا البناء كان بيل قـــد رآه مرات كثيرة بعيني فكره . انه مستشفى ستوت ميموريال .

من حوض المرفأ سمع بيل أصواتاً تحييه بالانكليزية . هناك وقف المرسلون العاملون في ووتشو تحيط بهم ممرضات صينيـــات يتمازحن وكلهن بالثياب البيضاء الرسمية .

كان يعرف اسماء المرسلين فجرب ان يعرف وجوههم مستنداً الى صورهم التي رآها قبلا في « مجموعة رسوم المرسلين » . وقد عرف منهم حقاً ألتكسان الطويل ، ركس راي ، ومسز راي . ورأى مولي مكمن التي كانت في الدور الاخير من خدمة طويلة أحسنت القيام بها . وبما انه لاحظ الدكتور بادو يلوح بيده بحرارة نحو جهة معينـة لم يصرف وقتاً يذكر لمعرفة مدام بادو . بعد قليل كانوا جميعاً في حوض المرفـــأ حيث احاط المرسلون المحبون الدكتور الشاب الجذاب بشعورهم القلبي .

وبعد الترحيب والانتهاء من المعاملات الجمركية ساروا في الشوارع نحو المستشفى . فجرب الدكتور بيل ان يعي في قلبـــه كل ما يقوله المرسلون وفي الوقت نفسه ان لا يفوته شيء من المناظر التي يمر بها .

مرّوا مجازفين بين عربات اليد المحملة التي تضرب الارض بعجلاتها القاسية ، وكان العمال والحمالون يزحمونهم بين حين وآخر وهم يحملون على اكتافهم سلالاً مملوءة بالطيور .

وسمع بيل قباع الخنازير ، وشم رائحة السمك واللحوم المعروضة في السوق للبيع . ومر بجانب عربات صغيرة تجر بالايدي، وبجانب سائقي دراجات مسرعين ، ورأى متعجباً مشدوهاً القناديل الحمراء المصنوعة من الورق مركزة امام كل دكان وفي الشوارع . ورأى غير هذه مناظر كثيرة ، ثم وصل الى مدخل « ستوت ميموريال . »

البناء ذو الطبقات الخمس والسور المحيط به مع العيادة المؤلفة من طبقتين كان شيئاً مهيباً لا ينتظر ان يراه المرء في داخلية الصين . مرّ بيل في رواق العيادة المسقوف فرأى ساحة المستشفى المغروسة بحشيش دائم الخضار يمتد الى درج المستشفى حتى ان من يمشي يشعر انه ماشٍ على سجادة ناعمة . هناك على قمة الدرج وقف جميع الموظفين مستعدين ليحيوا الدكتور الذي صلّوا كثيراً طالبين مجيئه اليهم .

صار المساء قبل ان يحظى بفرصة يخلو فيها لنفسه . فلما حصلت له مشى في البساتين التي تحيط بالبيوت الصغيرة . ثم صعد ونظر من على السطح الاعلى فرأى مدينة ووتشو ، والنهر الغربي الهادىء اللامع في الشفق الذي كانت بقايا نوره تذبل فوق التلال الواقعة على جانبيه . ولما داعب نسيم المساء البارد وجهه شكر الله ، لان هذه الفرصة السعيدة كانت من نصيبه .

تعريف بيل بووتشو اقتضى اسبوعين . في أول هـذه المدة كان يشعر ان لا فائدة من وجوده هنــاك . ولكن في اليوم الرابع اجرى عملية جراحية طارئة فتبدل شعوره وأحسّ بان المستشفى له .

المرضات اللواتي حضرن اجراء العملية اطلقن السنتهن مادحات ذكاء الدكتور الجديد ومهارته في فنه . والعمال المرتبطون باتفاقات في المستشفى والاطباء الذين يسهرون على المرضى ويقيمون في المستشفى شرعوا يتبــارون فيما بينهم وكلٌ منهم يتمنى ويرجو ان يكون من نصيبه المساعدة في العملية التالية المعين اجراؤها بعد يومين او حضور اجرائهــا على الاقل . ونظر رفاقه المرسلون في وجوه بعضهم بعضاً وقال كل منهم للآخر « سيقوم بالوظيفة على أكمل وجه . »

ثم حان الوقت للذهاب الى كانتون ليدرس اللغة الصينية فأكد له الدكتور بادو انه يستطيع ان يكمل درس اللغة في السنة التالية في ووتشو . فودع بيل زملاءه ، ووعدهم بالعودة اليهم في فرصة الميلاد ، ثم سافر الى كانتون .

لم يعرف بيل انه بعد مغادرته ووتشو جلس الدكتور بادو ليسجل مــا انطبع في نفسه عنه بعد ذلك اللقاء . كان الدكتور بادو حازماً ، مخلصاً لعمله ، موهبته العظمى تتجلى في بابي الادارة وحسن التنظيم . وقد حــاول ، وهو يدور مع الدكتور بيل في المستشفى وحوله ، ان يشدد على هذه الناحية . فلاحظ ، مستغرباً قانطاً ، ان الدكتور الجديد يهتم بالناحية الطبية أكثر مما يهتم بالناحية الادارية وبتفاصيل الناحيــة التنظيمية . فكتب في تقريره الى الدكتور مادري :

« كان الدكتور والاس هنا . وقد استطلعت ميوله واهليته بدقة . انه شاب ظريف ، واعتقد انه مع الوقت سيصير رجلاً جيداً ناجحاً في مهمته الطبيـة ، ولكنني اشك في امكانية نجاحه في الناحية الادارية والتنظيمية التنفيذية . وهذه ضرورية لحسن تدبير هــذا المستشفى وتسييره . ومع ذلك اعتقد ان هذا النقص قد يكون بركة ما دام بيل سيحصر اهتمامه في عمله الطبي .

« واعتقد انه سيجد صعوبة في درس اللغة الصينية . اقول هذا لان ليس له الاذن الموسيقية ليميز ويفرق بين الالفــاظ ويدرك المعنى الصحيح لما يسمعه .

« وعلى كل حـــال ، فان والاس قد طبع على نفوس الصينيين انطباعات حسنة ، وهذا أهم شيء يقدر ان يفعله المرسل الجديد . ان جميع العمال عندنا قد استظرفوه واحبوه فقد استمالهم اليه سريعاً بابتسامته العذبة وباهتمامه الكلي بهم . »

لقد تعارف وليم والاس والشرق وقد احب كل منهما الآخر .

٣

تخطي صعوبات اللغة

اجال بيل نظره في جوانب الغرفة التي كان سيدرس فيها مثائله فلم يرَ سوى كرسيين وطاولة . هذا كل ما فيها من الاثاث .

في اليوم الاول بكر بالمجيء وأخذ يقلب بسرعة صفحات الكتب التي كان قـــد اشتراها ليتعلم فيها . فرأى من اشكال رسوم الكلمات الصينية مـــا ادهشه وحمله على ان يقول في نفسه : « ان كتابة كلمات اللغة الصينية من وضع دجاجة برية في مطبعة . »

في تلك اللحظـة فتح الباب ، ودخل معلمه مستر وونغ ، وهو من اقدر معلمي اللغة الصينية . وقف المعلم قدام بيل منتصباً وابتسم . فقابل بيل الابتسامـــة بمثلها ووقف فظهر كالعملاق بجانب معلمه القصير . نظر اليه مستر وونغ وقـال بلغة انكليزية مضبوطة : « اتيت من بلاد اهلها طوال القامة . »

ابتدأ وقت الدرس الخاص فقـــال المستر وونغ باللغة الصينية : « اجلس » ووضع يده بلطف على كتف بيل ليرجعه الى الكرسي الذي كان فيه . ثم تبسم وقـال بالصينية ايضاً : « قف » ومد يده وانهض بيل على قدميه . وبعد اشارات وحركات على هـــذا النمط ، بدأ بيل

يفهم الفكرة بالتدريج . لم ينطق في كل هذه الدروس بكلمة انكليزية واحدة بل كانت الحركات والاشارات تقرن بالالفاظ والعبارات التي تدل عليها فيتعلمها بيل بالاستنتاج . ورغم شعوره بأنه بليد وغبي وغير كفوء لم يستطع انكار انه تعلم شيئاً .

وحينما اخرج المعلم ساعته من جيبه فهم بيل ان وقت الدرس قد انتهى ، فعاد الى غرفته ليدرس ساعة لنفسه . هناك أخذ يتمشى ذهاباً واياباً ويردد العبارات التي سمعها من معلمه مستر وونغ ويقرنها بالحركات التي تعنيها . ثم بعد هـذا بساعتين ذهب الى غرفة صف آخر تقع في الشارع الذي فيه مكان سكنه .

تلامذة هذا الصف هم مرسلون جدد ، منهم مستر ومسز يوجين هيل من اوكلاهوما اللذان اصبحا فيما بعد اقرب اصدقاء بيل . ومنهم مس اوريس باندر التابعة لارسالية المعمدانيين الجنوبيين ، ومرسلان اميركيان من اصل سويدي ومرسل من زيلندا الجديـدة تابع للكنيسة المشيخية .

كان الدرس الاول عن طريقة ضبط الالفاظ الصينية بما يدل عليها من الاحرف اللاتينية . فكان المعلم يكتب العبـارة الصينية ثم يضبط اصواتها بما يدل عليها من الاحرف اللاتينية ثم يكرر قراءتها والتلاميذ يرددون بعده الاصوات التي سمعوها .

وقد لوحظ حالاً ان الدكتور بادو الفطن كان على حق عندما تنبأ بان زميله الجديد سيجد صعوبة كلية في تعلم اللغة الصينية الكانتونية . فالطبيب الجراح الذي ليس له الاذن الموسيقية لم يقدر ان يميز الاصوات

بلهجاتها فلم يقدر ان يلفظها صحيحة . لذلك كان يضحك ابناء الصف في أكثر الاحيان من شواذ الفاظه .

بعد انتهـاء وقت دروس الصباح كان يذهب المرسلون لتناول طعام الغداء وللدرس الانفرادي قبل ابتداء دروس ما بعد الظهر التي تعطى لكل شخص بمفرده ثم يتبعهـا تسميع جماعي . ثم في الساعة الرابعة والنصف بعد انتهاء وقت الدرس كانوا يرتاحون قليلاً . وفي المساء يجتمعون لتناول طعام العشاء وبعده يعودون للدرس والتمعن في ما تعلموه في ذلك اليوم ، ولكتابة الاحرف والكلمات الصينية المتعبة ، وترديد التلفظ بها الممل . وكانوا يتوقفون بين حين وآخر ليتساءلوا — وهم في حيرة قريبة من اليأس — ايمكنهم يوماً ما ان يتكلموا اللغـة الصينية بصورة صحيحة ؟

كان بيل يسكن مع مستر ومسز هرولد سنكز في بيتهما الرحب ، وهما من مرسلي المعمدانيين الجنوبيين في جنوبي الصين . في ذلك الوقت كان مستر سنكز امين صندوق الارسالية هنـاك . كان بيل مسروراً باقامته معهما وبمصادقة يوجين هيل وزوجته لويز . وكذلك سره ان يكون واحداً من جماعة المرسلين لانه بينهم كفرد من أفراد عائلة كبيرة يتعاونون فرحين . مستر سنكز وزوجته لاقياه حيث يقف القـارب الذي جاء فيه من ووتشو الى كانتون وفي الحال أخذاه الى بيتهما واحباه وكانت مسز سنكز تسهر على راحته وسلامته بعطف الام الرؤوم .

ان هرولد سنكز ذكّر بيل باستاذ يعرفه في احدى الكليات فصار يناديه يا استاذ. وبعد عدة سنوات صار أكثر المرسلين في جنوبي الصين

يدعونه بذلك اللقب حتى عرف واشتهر به . وكان بيل يحب مستر ومسز سنكز وابنهما الصغير حباً قلبياً صادقاً ، وكان يشعر ان اقامته معهم سهلت عليه اسلوب حياته الجديدة بصورة لم يكن حصولها ممكناً بأي طريقة اخرى .

في هذه الاثناء كل الآنسات من المرسلين ، في كل الصين ، عرفوا خبر وصول بيل ، واتضح ان كثيرات منهن كن يكثرن التردد الى كانتون . وكن يتزاحمن على الجلوس بجانبه في الحفلات والولائم وهو لم يكن يخيب آملاً . وقد صار رفيقاً فاتناً بارعاً دون ان تغيب عن باله اساليب الاغواء التي تلجأ اليها الانثى لتصديع صرح عزوبة من تريده زوجاً لها . هذا الحذر كان سلاحه الدفاعي ولكن على كل حال لا يعني ان بيل نذر نفسه للعزوبة بل يعني انه كان ينتظر الفتاة المناسبة .

كان جين هيل وبيل رائدين جريئين يصرفان اكثر وقتهما بالتجول معاً في كانتون . وقد لاحظ اصحاب الدكاكين ابتسامتهما وقصدهما وقبلوا مسرورين مساعدتهما في جهادهما للتمرن معهم على التكلم باللغة الصينية .

كان بيل ـ وهو شاب عزب ـ اوسع وقتاً من جين. فكان يذهب احياناً وحده يستأجر قارباً يتنقل فيه من مكان الى مكان في النهر الذي يكاد يطوق كانتون . وكان يلقي اسئلة كثيرة على سائق القارب ويقف حيناً بعد حين امام الدكاكين المقامة فوق الماء ليخاطب اصحابها المحتشمين . وكان يجلس على مقدم القارب ومعه كتبه ودفاتر ملاحظاته ويدرس دروسه ويعد فروضه . بهذه الطريقة كان يصطاد عصفورين

بحجر واحد ، يتمرن على التكلم بالصينية ويتخلص من حر طقس كانتون .

حمل اليه عيد الميلاد رسائل وطروداً بريدية ، وأوقعه في مرض الحنين الى البيت والوطن . وفي طرد من اخته وجد رسمي ابيه وامه . ورغم انه لم يبق في ذاكرته سوى رسم شاحب لامه الجميلة المتوفاة منذ زمن طويل ، ورغم ان اباه الحبيب قد مات منذ ثلاث سنوات، تصور بيل نفسه في البيت الذي ربي فيه ، الواقع على زاوية شارع برود واي وسلفر ، وكأنه يسمع اصوات العائلة السعيدة وضحكة امه العذبة . وبمثل تباهي الاولاد تخيل خدمات ابيه الطبية العديدة النافعة . ولم يتمالك ان تساءل عما اذا كانا يشعران بالعاطفة التي تحركه الآن وبالعمل الذي نذر نفسه له .

وأحب المعمدانيون الذين يعيشون حول بيت اخته ان يرسلوا له شيئاً ، وسألوا عن شيء يمكنه ان يستفيد منه. وبعد تفكير قليل اجابهم: « يمكنكم أن تشتركوا لي بمجلة « طايم » او بالمجلة الشهرية « سرجيكال كلينكس اوف نورث اميركا » (العيادات الجراحية في اميركا الشمالية).

ومنحه عيد الميلاد أيضاً فرصة للرجوع الى ووتشو . وقد اشتغل هناك مدة اسبوعين ليلاً ونهاراً حسب برنامج المواعيد الطبية الكثيرة . وفي رسالة لاخته وصف الزيارة بثلاث جمل مقتضبة : « ذهبت الى ووتشو وعدت البارحة . سررت هناك . وأجريت عمليات كثيرة . »

صادق بيل اصدقاء كثيرين في اثناء سنة دراسته في كانتون ، منهم عدد غير قليل من الصينيين . وله طريقة خاصة فطرية تربطه بالشعب

الذي اختـاره . وهو بحشمته واتضاعه الغريزي له قابليـة الامتزاج بالشرقيين والعيش معهم على مستوى الشعور لا الكلام فقط .

ومن اصدقائه في ذاك الوقت معلمة مسيحية ابوهـا طبيب ، هي الآنسة روبرتا ما . كانت تعلم في جامعة صن يات سن فعرّفت الطبيب الشاب بتلك الجامعة المحترمـة وبالـ « ميموريال بارك » المتصل بها . وكانا يتمشيان معاً ويبحثـان في الفلسفة الصينية مشتركين في ايمانهما المسيحي وكانا أيضاً يفكران بمستقبل البلاد التي احباها كلاهما .

ذهب بيل ورفيقته الى « هيكل السبع مئة جني » في كوان ين شان وهو هيكل لإلاهة الرحمة . ذهبا لينظرا كيف تكون الهياكل البوذية . وقد شرحت له المعلمة تعقيدات مرامي الرموز الصينية وألغاز آلهتهم القديمة .

وذهبا معاً الى الدكاكين ليتمرن بيـل على التكلم باللغة الصينية مع اصحاب الحوانيت . وكانت لهجته المزعجة تضحكها كما كان يبكيها تأثرها من رغبته الشديدة في تعلم تلك اللغة وعزمه على ذلك .

هكذا قضى سنته : ساعات درس وتسميع ، وامسيات بهجة مع عائلة سنكز وسائر المرسلين ، والعاب تنيس متعبة ، وتنقلات طويلة واستكشافات جريئة مع جين هيل ، واوقات تذكر فتشكر مع اصدقائه الصينيين ، وساعات صلاة وعبادة لازمة للتجدد الروحي في الكنائس الصينية في كانتون .

وختم بيل سنته الاولى في الصين بسفرة الى هونغ كونغ لحضور

اجتماع المرسلين المعمدانيين في جنوبي الصين ، وقد عقد في آب ١٩٣٦ . وبعد انتهاء الاجتماع ذهب الى ووتشو .

كانت الحرب على أهبة الانفجار بين اصحاب المقاطعات في ولاية كوانغسي ، التي تقع ووتشو فيها ، والحكومة الوطنية التي يرأسها شانغ كاي شك . وكان القائد الاعلى قد انذر ولاية كوانغسي بالتقيد بالوضع الراهن والا هاجمها . فكان الجواب ان حصن اصحـاب المقاطعات مدينة ووتشو وارسلوا جيوشهم ومدافعهم الى الحدود الواقعة تحت ووتشو قليلاً . هذا التصرف اضطر شانغ كاي شك الى جلب احسن فصائل جيشه الذي كان يحارب الشيوعيين في الغرب وارسالها الى نقطة مرتفعة قرب كانتون . وقد كان على سفينة النهر الغربي التي تحمل بيل ان تمر بين مواقع الجيشين لتصل الى ووتشو .

ومن حسن الحظ ان السفينة لم تمر دون حراسة بين اوكار الدبابير بل رافقها ثلاثة زوارق حربية اثنان منهما بريطانيان والثالث اميركي . وكانت هذه الزوارق الحربية في طريقها الى كوانغسي لحماية مصالح البريطانيين والاميركيين في تلك المنطقة . وهكذا مرت السفينة ووصلت الى ووتشو ، ولولا طلقات قليلة طائشة لصح ان يقال ان السفرة مرت دون حادث .

٤

وا اي سانغ

وصل بيل الى ووتشو فرأى انه المرسل الوحيد فيها ، لان المرسلين الآخرين قرروا ان يقضوا مدة الازمة في هونغ كونغ . والظاهر انه لم ينزعج بل ذهب توّاً الى المستشفى ووضع امتعته . وفي اليوم التالي كان في دائرة الجراحة .

بعد ظهر ذلك اليوم حضر ضابط بحري اميركي جاء من الزورق الحربي الاميركي « مندناو » الراسي في النهر الغربي قريباً من ووتشو ، وحيّا هـذا الضابط الدكتور بيل ، وعرض عليه ان ينقله على ظهر الزورق الى هونغ كونغ محافظة على سلامته .

« ارجع الى هونغ كونغ ! لماذا أرجع وقد وصلت الى هنا الآن ! اني باق ، ولا اريد ان اذهب . لا فرق عندي بين سلم وحرب . »

فقال الضابط : « عفواً يا سيدي . ان القائد يشعر بانه لا يستطيع ان يتحمل مسؤولية المحافظـة على سلامتك ليلة واحدة اذا بقيت في هذه المدينة . »

فضحك بيل وقال : « قل لقائدك أن لا يشغل باله . انه لم يكن مسؤولاً عن مجيئي الى هنا ، ولا حاجة ان يكون مسؤولاً عن بقائي . »

ثم قـال بجد أكثر ولهجة أرق : « بلغه اني اشكر له اهتمامه بي ، واني اعرف انه يبغي مساعدتي ولكنني لست بحاجة اليها . »

عند المساء عـاد الضابط البحري فرآه بيل وهو نازل من دائرة الجراحة . فتكلم الضابط هذه المرة بلهجة يمازجها الخجل ، وقال : « اعذرني لازعاجي اياك مرة ثانية يا دكتور والاس ! ان القائد يحب ان يعرف ما اذا كنت تقبل دعوته الى وليمة عشاء على ظهر الزورق هذا المساء . »

فقال بيل : « الا يحاول قائدك ان يخدعني لأجل سلامتي ؟ »

« كلا يا سيدي . ان هذا اليوم هو ذكرى مولد القائد. وهو يرغب في ان يشاركه في فرحه اميركي آخر . »

« اذا كان الأمر كذلك فاني أقبل دعوته شاكراً . وعلى كل حال اني لا اجيد الأكل بالسنارة . »

كانت الحفلة جميلة جداً وقد اقيمت على ظهر الزورق « مندناو » في وسط النهر الغربي في مساء أحد ايام ايلول . وقد حضرها ، ما عدا بيل ، اثنان من احدى شركات البترول كانا قد قررا البقاء بضعة أيام على ظهر الزورق . وكانا سعيدين بالاقامة هناك . سألها القـائد عن المكان الذي جاءا منه وعن كيفية اجتماعها وتصادقهما ، ثم سأل بيل سؤالاً كان لا بد منه . قال : « اني لأعجب من ان شاباً جرّاحـاً مقتدراً مثلك يصرف حياته في مكان قصي قد نبذه الله كهذا المكان . »

فتبسم بيل لانه قد سمع هـذا السؤال من قبل وكان يعرف انه سيسمعه ايضاً . ثم قـال : « ليس من السهل ايضاح السبب . فانني

لست هارباً من شيء ، ولم افشل في مسألة حب ، ولست متهماً بتدبير مؤامرة . »

فضحك الجميع واعجبوا بجوابه الفكه ، غير ان القائد أصر على متابعة الاستفهام ، فقال : « اذن مـــا الذي يجعل الانسان مصراً على التمسك بعمل كهذا ؟ »

فقال بيل : « كان ابي طبيباً ولكن الطب كان آخر مهنـــة افكر فيها . كنت احب العمل الميكانيكي والمحركات الميكانيكية ـ بجميع انواعها ـ كانت ولا تزال أحب الاشياء اليّ . ولكن لما صرت فتى تملكني شعور قوي اقلق راحتي وصرت أفكر بسؤال لم استطع التهرب منه وهو : مـــاذا أفعل بحياتي ؟ وفي ذات يوم اقتنعت بانه يجب ان اكون طبيباً مرسلاً . »

فسأله أحد الحاضرين قائلاً : «هل فكرت قبل ذلك بشيء من هذا ؟»

« لا ، اني متأكد ان هـذه الفكرة لم تخطر لي قبلا ، ولا أشار عليّ بها أحد . كان ابي يساعدني ويسهل لي طريق الاشتغال بالسيارات . ولكنني ، بعد اليوم الذي ذكرته ، صرت مقتنعاً بان ما اعمله الآن هو الشيء الذي يجب ان أعمله . »

واطرق قليلاً وتذكر اشياء مرت في باله ثم تابع حديثه : « لقد مرت احدى عشرة سنة على هذه الحادثة ، وكل سنة تمر تزيدني اقتناعاً بتدخل الله في مسألتي . »

ثم نهض ومشى نحو كوة في جانب الزورق ، وقال : « انا مقتنع

بان السعادة ، وانجاز قصد الله ، والغاية من حياتي ، كلها مجتمعة في المستشفى القائم على تلك التلة . »

وخيّم السكوت، وظهرت على وجه بيل لمحة من الارتباك ، وقال: « لا اريد ان يفهم من هذا انني رجل تقي او صوفي او بطل . بل انا ، في الواقع ، أقل الوعاظ شأناً ، جبان لا شك في ذلك، وجراح متوسط المعرفة والخبرة . »

عند هذا ابتسم الحاضرون وتحول الحديث الى جهـــات اخرى . ولكن كلماته كانت قد تركت اثرها الذي لا ينسى والمشتركون في بهجة ذلك العيد الميلادي فوق مياه النهر الغربي لن ينسوا ذلك الشاب الوسيم المبتسم ابداً .

كانت الحرب عبارة عن طلقات نارية قليلة وكلام كثير . وبعـــد اسبوعين هدأت الحـالة ، ورجع كل المرسلين الى اعمالهم ، وعادت الحالة الى وضعها الطبيعي حول مستشفى ستوت ميموريال .

وبعد انتهاء مخاوف الحرب باسبوع واحد بدأ فيضان النهر الغربي آتيا باضرار تفوق الاضرار التي كان يمكن ان تحدثها الحرب . كان قادة جيش ولاية كوانغسي قـــد القوا احمالاً كثيرة في مضايق النهر لاجل سدها وعرقلة اعمال جيش الحكومة الوطنية . فلما انتهت الحرب لم يكن بامكانهم اخراج الردم قبل فيضان نهر فو والنهر الغربي عندما تتدفق اليهما مياه امطار ايلول المخزونة في التلال والجبال . ففي خلال ساعات ارتفعت المياه حتى غمرت حوالي ثلث المدينة وجرى السيل في الشارع الرئيسي . وبمثـــل دعوة ساحر ظهرت الوف من القوارب

الصغيرة في الشوارع وشرعت تنقل النـــاس من مكان الى آخر ذهاباً واياباً بانتظام دل على انها تعودت ممارسة هذا العمل من قبل ولكن بيل كان يقول لنفسه بدهشة : « هل تعود الامور الى مجراها الطبيعي في الصين ؟ »

حافظ الدكتور بادو على وعده فدبر استاذاً ليعلم بيل الصينية في ووتشو مدة السنة الثانية . فكان يصرف بعد ظهر كل يوم في الدرس . ولم يكن يقطعه عن درسه اي سبب مهما كان . اما قبل الظهر فكان يجري عمليات جراحية وفي الليل كان يتفقد المرضى محاولاً تخفيف ما يستطيع تخفيفه من آلامهم .

وقبل الفجر كان يقرأ التقارير ليعرف حالة المرضى وحالة ما يجري في المستشفى، ويراقب كيفية تدبير الامور فيه ، ويعطي التعليمات اللازمة لمساعديه. وكان، عادة، يجري عملية جراحية كل يوم قبل طعام الفطور، واذا كانت عمليات بسيطة كان يجري عدداً منها .

بالحقيقة ان برنامج عمله اليومي كان مما لا يصدق العقل امكانيـــة تنفيذه . اما هو فقد كان ينفذه .

كان بيـــل يشكر ما اختبره في السنتين اللتين قضاهما في مستشفى نوكسفيل ويتمنى من كل قلبه لو انه قضى ثلاث سنوات اخرى فيه . في بضعة اسابيع اجرى عمليات لم يكن يتوقع ان يجري مثلها ، وصادف حالات لم يعرف لها سابقة . لقد اجرى عمليات تضخم الغدة الدرقية ، وازال اوراماً كبيرة الى حد لا يصدق ، واجرى عمليات في العيون ، وفي الشفاه العليا المشقوقة كشفة الأرنب والجمل ، وفي سقف الحلق

المشقوق ، واستأصل المصران الزائد ، وبتر اعضاء في بقائها ضرر ، وأنقذ حياة امهات في حالات توليد صعبة . وقائمة اعماله لا نهاية لها . وقد رافقه النجاح فاتسعت شهرته وانتشر صيته .

اجرى عملية لفتاة صغيرة علماء (مشقوقة الشفة العليا) كانت لا تحسن النطق . ففرحت امها لان ابنتها صارت كغيرها من الاولاد وتخلصت من هزء رفيقاتها بها ، ومن رميهم اياها بالعيدان والحصى . وصارت تزور كل مريض تعرفه وتخبره عن مهارة وا اي سانغ في ووتشو .

وسمعت هـذه الام مرة ان امرأة كانت في ضيق شديد لان ابنها مشوه القدمين ، ولان زوجها كان يهدد برمي الولد خارجاً حتى يموت. فأخذت الام الاولى ابنتها وذهبت لترى تلك المرأة الحزينة . وقالت لها : « خذي ابنك الى ووتشو ليراه وا اي سانغ . انظري كيف شفى ابنتي . وهو قادر ان يخلق لابنك قدمين جديدتين . وا اي سانغ يقدر على كل شيء . »

هذه الحادثة افرحت بيل ، ليس لان بعض الناس صاروا يعتقدون بانه يصنع عجائب بل لانه خلص ولداً من السخرية والاضطهاد .

ولكن مقابل هذه النتائج المفرحة وهي كثيرة حدثت حادثة مؤلمة كان لها وقعها السيىء الذي لا ينسى في وقت قصير .

جيء الى المستشفى بولد اصيب بالخـانوق وهو على آخر رمق . فاجرى له بيل كل ما يمكن اجراؤه في مثل تلك الحـالة ، حتى عملية فتح قصبة الرئتين ، ولكن جهوده ذهبت سدى ومات الولد .

تأوه بيل ورفـع الولد الميت بين يديه بلطف ونظر الى عينيه المغمضتين ووجهه الهادىء المصفر ، واخبر أهله عندما دخلوا عما فعل له . ثم اخبرهم عن يسوع ومحبته للاولاد .

نما شغل المستشفى باستمرار وانتشرت شهرته الى حدود لم تصل اليها من قبل . وكان الدكتور بادو فرحاً متهللاً بمجرى الاحداث . فكتب في خريف تلك السنة الى الدكتور مادري يقول :

« لقد اثبت الدكتور والاس انكم لم تخطئوا عندما اخترتموه لهذا المركز . فان له عيناً ثاقبة ، ويداً مطواعاً ، ومعرفة عالية في فن الجراحة . ولي كل الثقة بانه ــ عندما يصير في امكانه ان يصرف كل وقته لعمله في المستشفى ــ سيرفع اسمنا عالياً فيأتي المرضى الينا حتى من كانتون نفسها . »

وبعد ذلك بقليل ارسل الدكتور بادو تقريراً جاء فيه ان عدد المرضى الذين عولجوا في المستشفى زاد بمعدل خمسين بالمئة في الاشهر التي اشتغل فيها بيل . وقال ايضاً « والنجاح الاكبر يأتي في النتائج الروحية ، فاننا ننتقل من فرح الى فرح بينما الناس من جميع الطبقات يخلصون . وقد انضم الى الكنيسة عائلتان بكامل اعضائهما . وانضم مؤخراً الى كنيستنا الدكتور لنغ ، وستقبل الآنسة الدكتورة وانغ المعمودية يوم الاحد القادم . حقيقة ان الله قد شملنا ببركته الوافرة هذه السنة . »

هذا الطبيب وهذه الطبيبة ، اللذان قدما نفسيهما للمسيح رغم تقاليد بلادهما ورغم كل التضييقات التي فرضتها رواسب ميراث الاجيال

عليهما ، يظهران قوة شهادة الشخص الجديد الذي حل في وسط الصينيين الذين كانوا قد سمعوا عظات كثيرة قبلا انما رأوها الآن في بيل وهنا يكمن الفرق .

لقد كان فرح بيل اعظم من ان يوصف . كانت حالة الناس تحتاجه ، وكان يرى الناس يبرأون . اذن كان في الموضع الذي اراده الله ان يكون فيه ، فحق له ان يقول : « كأسي ريا . »

مر عيد ميلاد بيل الثاني في الصين فكان حنينه الى وطنه الاول أقل مما كان في عيد ميلاده السابق . ومن تنسي وصلته هدايا ــ صندوق من الكعك المصنوع في البيت من راعوث لن وزوجها سدني . ثم الهدايا التي يتبادلها عادة المرسلون هناك ، وسفرة قصيرة الى هونغ كونغ . كل هذه مجتمعة ساعدت على خلق شعور بانه اصبح من الصين وللصين .

هدأت الحالة في الصين وظهرت أكثر استقراراً من ذي قبل إلا ان حادثاً سياسياً منفرداً شوه المظهر الذي عقب اتفاق الحرب الكوانغسية .

ذهب شانغ كاي شك الى الولايات الشمالية ليبحث بعض القضايا مع أحد امراء تلك المقاطعات . وفيما هو هناك قام الشيوعيون بهجوم جريء في وضح النهار وتغلبوا على من معه واختطفوه . ثم طالبوه بان يشركهم في الحكم مع الحكومة المركزية . فرد عليهم غاضباً طالباً ان يقتلوه مفضلاً الموت على تحقيق مطلبهم .

كان كثيرون من الشيوعيين يحبذون تنفيذ مطلبه ، ولكنهم اخيراً

اطلقوه على ان يؤلفوا معاً جبهة مشتركة ضد اليابانيين . لم يكن لشانغ الحرية الكاملة للاختيار ، فرضي وتم الاتفاق الذي جلب للصين سلاماً موقتاً ومظهراً من مظاهر الاتحاد .

سار كلا الفريقين في طريق الاستعداد لمواجهة تهديدات العدو اللدود ـ اليابان . وكان اليابانيون منذ خمس سنوات يفكرون باحتلال الصين ويرسمون الخطط لذلك . وبعد اغتصاب منشوريا بدأوا يضعون ايديهم على الاراضي الصينية الواقعة شمالي السور الصيني الكبير في فترات متتابعة . كانوا يفعلون هذا عندما كانت الصين منهمكة في حروب وخصومات داخلية . ولكن بعد اتفاق شانغ كاي شك والشيوعيين رأت اليابان نفسها أمام الصين الموحدة وشعرت ان الوضع قد تغير . فعليها الآن ـ اذا كانت تريد ابتلاع الصين ـ ان تبدأ بالعمل لذلك .

وهكذا في ليل السابع من تموز ١٩٣٧ بينما كانت فرق الحرس الياباني تقوم بمناوراتها عبر النهر تجاه بكين اطلق عليها مجهول طلقاً نارياً قرب جسر « ماركو بولو » فاسرعت اليابان الى اعلان الحرب مدعية انها قد هوجمت وبدأت بهجوم انتقامي .

فاهتز العالم في الايام والاسابيع التي تلت ، ووجهت الانذارات والنصائح من اوربا وآسيا . ولكن أكثر المراقبين الاذكياء كانوا يعلمون ان المعارك ستأخذ مجراها . وكان اليابانيون يضربون الصينيين حيثما صادفوهم ويسحقونهم . ونهب نانكنغ ، وذبح الملايين ، والتدمير الشامل ، احتلت امكنتها في باب الفظائع التاريخية .

كان بيل والاس والمرسلون الآخرون في مستشفى « ستوت

ميموريال » يتتبعون مجرى الحوادث باهتمام . وأول ما شغل بالهم ان المرسلين في شمالي الصين كانوا حيث تجري المعارك ، ولم تكن الاخبار الواردة عنهم مطمئنة . اختار هؤلاء المرسلون البقاء رغم التهديد الياباني ليواصلوا اعمالهم باحسن ما يمكن وراء خطوط النار . ثانياً كل من له معرفة بالفنون الحربية ، مهما قلت ، كان يعلم ان حوض النهر الغربي من كانتون الى نانكنغ سيكون هدفاً لخطة الهجوم الياباني . ووتشو تقع في منتصف هذه البقعة .

وأرسل ألوف من جنود ولاية كوانغسي الى كانتون ومنها شمالاً . ولم يطل الوقت حتى عادت التقارير تحمل الاخبار المحزنة عنهم . وعلت اصوات العويل والبكاء في ووتشو . وبعدئذ ضربت كانتون وطرق المواصلات بالقنابل ثم حوصرت ايضاً وسائل النقل في النهر .

واجه الدكاترة نقص المواد الغذائية ونقص المواد الطبية . ولكن من حسن حظ مستشفى ستوت ميموريال ان الدكتور بادو كان بعيد النظر وادارياً حكيماً فاحتاط للامر وكانت يده تصل الى المواد اللازمة . وكان قد اختزن كثيراً من المواد التي يقل وجودها في الاسواق ابان الحرب . فظلوا يستعملون من هذه المواد المخزونة مدة طويلة لم يكن باستطاعتهم في اثنائها ان يشتروا من الخارج بدل ما يصرفونه .

وكان للمعمدانيين مستشفى آخر في كوايلن وهي مركز للارسالية في ولاية كوانغسي . لم يكن لهذا المستشفى مدير حازم يحتاط للامر فكاد يضطر للتوقف عن العمل لعدم وجود ما يلزم لخدمة المرضى .

لذلك كانت مصلحة هذا المستشفى تتطلب تسليم ادارته للدكتور بادو لانقاذه من الاقفال . ولكن الدكتور بادو قرر ان لا يذهب اليه وهذا القرار وضح شعوره بخصوص زميله الجديد . وبهذا الصدد كتب الدكتور الى مجلس الارساليات :

« ان قطع كل علاقة لي بمستشفى ستوت ميموريال في هذا الوقت يعرض تقدمه للخطر . لست ابني قولي هذا على اعتقادي باهميتي او مقدرتي الشخصية بل على معرفتي ان والاس ليس له الآن الاستعداد الكافي لتحمل مسؤولية هذا المستشفى النامي بسرعة مدهشة . لقد راقبته بدقة ويجب عليّ ان أقول ان استعداده لتسلم زمام امور المستشفى لم يكتمل بعد . وهو ، عدا انه يكره الاعمال الادارية ، لم يفهم بعد طبيعة الصينيين ونفسيتهم وهاتان أهم للادارة من فهم اللغة . »

عوامل كثيرة اشتركت معاً وادت الى مثل هذا الاستنتاج . فقد كان بيل والاس يظهر اهتمامه بالناحية الطبية فقط ، ويرفض التدخل في المسؤوليات الادارية وتفاصيل الاعمال . وقد كان يحيل ما يعرض له من امثال هذه الامور الى الدكتور بادو ولا يبدي رأياً فيها حتى ولو سئل او استشير . وكان ايضاً رقيق الجانب مع الصينيين مشهوراً بانه لا يؤنب احداً ولا يطلب دراهم من أحد . وكان يترك للممرضات والاطباء المعاونين ان يختاروا لانفسهم الاسلوب الذي ينفذون به واجباتهم . وقد حسب الدكتور بادو مثل هذا التصرف نقصاً في الناحية الادارية وعدم فهم للعقلية الصينية وعدم اهتمام بمسؤولية المستشفى المالية .

ولكن لهذه الصورة وجهاً آخر . فقد اراد بيل ان يبتعد عن كل ما يثير الشك في نواياه ويظهره بمظهر الطامح لتولي الادارة ولتوسيع دائرة صلاحياته . واغتنم ايضاً الفرصة ليحصر كل اهتمامه في الناحية الطبية تاركاً تفاصيل الامور وجزئياتها للدكتور بادو . ومن جهة تركه الاطباء المعاونين والموظفين يعملون اعمالهم على مهل حتى ان المظهر الخارجي لسير العمل لم يكن ديناميكياً فان وجه الحقيقة كان وراء ذلك ، فان العاملين في المستشفى مع الدكتور والاس كانوا يعملون بهدوء ولكن باخلاص واندفاع وتضحية مثل قائدهم الدكتور بيل . قد يكون فهمه لعقلية الصينيين ونفسيتهم فهماً بسيطاً ساذجاً ولكنه ، حتى في السنوات الاولى من عمله بينهم ، استطاع بشعوره معهم ان يحافظ على التوازن في تصرفاته معهم .

في تشرين الاول لم يبق للدكتور بادو ان يهتم بحالة مستشفى كوايلن او بضعف ادارة الدكتور والاس لان قنصل اميركا انذر موظفي ذلك المستشفى بالاستعداد لاخلائه . واضطر المرسلون للبحث في ما يجب أن يعملوه اذا جاءهم الامر بالتنفيذ .

حتى ذلك الحين لم تكن الطائرات اليابانية قد ظهرت في سماء ووتشو ولكن الجميع كانوا متأكدين من ظهورها فيها ، يوماً ما ، جالبة معها الدمار والهلاك . فكان على الموظفين ، وخصوصاً المرسلين، أن يفكروا جدياً في الأمور ، وقد شعروا بروابط عاطفية تربطهم بالمستشفى لم يشعروا بمثلها قبلاً .

قام المستشفى بخدمات متواصلة لم تنقطع مرة واحدة منذ ١٩٠٤ ،

وكان المرسلون يودون ان تظل متواصلة حتى مع التهديد بالاحتلال الياباني . فاجتمعوا وكتبوا الى الدكتور مادري عن خلاصة ما قرروه في اجتماعهم الاول : « نحن في المستشفى قد عزمنا على البقـــاء فيه مهما كانت الظروف . فالوقت الحاضر هو الوقت الذي يجب فيه على كل مستشفى أن يفتح ابوابه ويخدم . »

وفي ١٩ كـــانون الاول استيقظ الدكتور والاس ، وعلى الضوء الخفيف المنبعث من المستشفى انسل من فراشه بهدوء كي لا يزعج الدكتور بادو وزوجته (لانه كان يعيش معهما في بيتهما) ولبس ثيابه ومشى وسط الضباب الذي يسبق الفجر وينتشر صاعداً من النهر الى المدينة . وبعــد لحظات كان في المستشفى يتفقد المرضى ويقرأ تقارير الممرضات الليلية . ثم بعد اعطاء التعليمات بشأن بعض المرضى عاد الى مكتبه ليدرس نتائج الفحوصات الطبية وصور اشعة اكس استعداداً لاجراء العمليات الجراحية حسب برنامج ذلك اليوم . فكتب الملاحظات اللازمة بسرعة . وظهرت عليه علامات الرضى والاكتفاء كمن قام بواجباته شاعراً بلذة استقبال اعمال يومه .

فتح بيل انجيله المعهود ــ الذي سجل فيه عزمه على أن يكون طبيباً لا ميكانيكياً ــ وقرأ منه فصلاً وفكر بمغزى مـــا قرأه ثم حنى رأسه وصلى صلاة قصيرة ، فهو لا يحب الاطالة في الصلوات . وخرج بعد ذلك ومشى في رواق المستشفى ليستقبل الفجر الجميل بتحية .

الفجر في ووتشو له جمال خـــاص ، يشترك في تكوين سحره النهر المتدفق ، والضباب الزاحف من النهر الى البر ، والقوارب ، والشباك ،

وشجرة البانيان الخضراء التي تخيم فوق باحة المستشفى وقصب البامبو الذي يحتل ضفة نهر فو الجنوبية . وهذه كلها ترتبط بالشعور المفرح المنبثق من النشاط والشوق الى البدء بعمل يوم جديد . وكان بيل قـد اعتاد مثل هــذه المناظر والنشاط والشوق . فسار مبتسماً مسرعاً الى بيت الدكتور بادو ليتناول طعام الصباح مع زميله بادو وزوجته ومستر ركس راي .

فور دخول بيل قال له ركس : « اهلاً وسهلاً . لقد كنت اوضح للدكتور بادو كيف يمكننا ان نجتاز الحصار الياباني في الربيــع المقبل لنحصل على ما تحتاجون اليه ــ انتم ايها الجزارون . »

فقاطعه الدكتور بادو قائلاً : « اخشى ان يكون الـ (كوبوي) الجريء مشتاقاً الى مثل ما حدث له سابقاً . » كان معروفاً ان عصابة صينية اسرت ركس قبل الحرب اليابانيـــة بعشر سنوات وهو لا يزال يحب التحدث عما جرى له آنذاك . و« يصعب عليّ جداً ان اعتقد انه مصيب في رأيه . ولكني اوافق على اننـا سنحتاج الى اشياء ضرورية كثيرة في الربيع القادم . »

قال بيل : « ما هي خطتك يا قسيس ؟ » فبدأ ركس راي يشرح خطته . قال : « انت تعلم ان لي صديقاً في كانتون يملك سفينة نهرية . » فقاطعه الدكتور بادو وقـــال : « اذا سألتني أقول لك ان كانتون لا تكون بايدي الصينيين في الربيع . فاليابانيون قد قذفوها بالقنابل هذا الصباح . وتقول التقارير ان ثماني عشرة باخرة يابانية في طريقهـــا اليها ، وستضربها بكل قسوة . »

فاجاب بيل : « هذا ليس خبراً جيداً . » وكان قد أراد ان يرجع ليسمع مع الدكتور بادو اخبار الاذاعة حسب عادتهما في كل صباح ، ولكن حالت اعمال المستشفى دون ذلك .

وفجأة دوت اصوات صفارات الخطر فعكرت صفو ذلك الصباح . وكان الرجال الثلاثة قد اعتادوا سماع صوتها في اوقات التدرب ، ولكن الصوت هذه المرة هو صوت الانذار بالخطر المداهم . فهدير الطائرات المغيرة مسموع ايضاً .

فاسرع الثلاثة من البيت الى المستشفى حيث كان الرعب مخيماً ولكن العمل كان يجري بهدوء . فهدأوا روع الموظفين المضطربين ، وطمأنوا المرضى الخائفين . ثم صعدوا الى الطبقة العليا وانزلوا مرضاها الى الملجأ . في هذا الوقت بدأوا يسمعون اصوات القنابل المتفجرة وطلقات المدافع الرشاشة . فشرع المرضى القادرون يساعدون غير القادرين وينزلون كلهم الى الملجأ لان القنابل لا تصل اليهم هناك الا بعد ان تخترق طبقات السقوف الخمسة المصنوعة من الباطون المسلح .

وبعد ان اطمأن الدكتور بيل ان المرضى اصبحوا في امان صعد هو الى أعلى السلم ونظر الى السماء فرأى احدى عشرة طائرة ورأى على احداها رمز الشمس المشرقة الحمراء . سقطت قنابل الاولى على مطار ووتشو فدمرت مستودع الطائرات الصينية بما فيه . ثم تحولت لغزو مراكز توليد الكهرباء ، ولما لم تصب الهدف في المرة الاولى اعادت الكرة فاخطأته أيضاً ، الا ان قنابلها هذه المرة سقطت قرب المستشفى فهزت البناء هزاً وحطمت الزجاج واضرت بالابواب والشبابيك .

ثم ذهبت واختفت بسرعة كما جاءت . والقى بيل نظرة فوق المدينة فرأى الحرائق تشتعل في اكثر من اثني‌عشر موضعاً ، والدخان المتصاعد ينتشر كالغيوم والمظلات ، والناس يهرعون من مكان الى مكان ، والفوضى تعم في كل ناحية . واكد بعد هذا انه لن يكون لأي غارة مستقبلة وقع مثلما كان لهذه الغارة الاولى . قد تكون الغارات أشد ، وأشد كثيراً ، ولكن لن يكون لها من الهول والرعب ما كان للغارة الاولى .

٥

إمتحان بالنار

في بيت الدكتور بادو عقد مرسلو وونشو اجتماعاً غير رسمي للتشاور . فقال الدكتور بادو بلهجة من درس الحالة وقلب وجوهها : « كل الادلة تشير الى ان اليابانيين سيهاجمون جنوبي الصين ، ولو بدا ذلك بعيد الوقوع الآن . فاذا سقطت كانتون فسينتقلون حالاً الى وونشو بطريق النهر او ــ اذا كان اسهل لجنودهم ــ سيهاجموننا من مدينة واتلم بعد ان يسدوا طريق النهر الغربي بقطع من اسطولهم البحري . »

فقال ركس راي : « يمكنك ان تراهن بآخر دولار في صندوقك على انهم لن يأتوا الى هنا قصد الاحتلال بل سيدمرون المدينة بغاراتهم الجوية اولاً ، وأعتقد انه لن يبقى منا او لنا ما يستحق الاهتمام به متى جاؤوا . »

فاجابه بادو : « أنا لا اوافقك على ذلك ، لان الغارات الجوية المتباعدة ، بل المتواصلة منها لا تقفل هذا المستشفى ولا تفزع موظفيه . ان هذا البناء لا تؤثر فيه قنبلة او قنابل ولو وقعت على سطحه رأساً . أنا أعرف قوته ، لانني أنا بنيته . »

فقال بيل : « صحيح ان الغارات الجوية لا تستطيع ان تهدم هذا البناء ، وأنا اوافقك على ذلك . ولكن يصعب علينا ان نتابع أعمال المستشفى اذا تحطمت الشبابيك والابواب والزجاج وسائر التجهيزات . فيبقى ان نهيىء غرفة للعمليات الطارئة في الطبقة السفلى حيث يكون الارتجاج ضعيفاً واضرار الغارات جزئية . » كان بيل قد فكر قبلا بهذه المسألة وقد سره سنوح هذه الفرصة لابداء رأيه فيها .

فاستحسنت مسز بادو هذا الرأي وقالت : « أعتقد أن بيل على حق ، وليس من الصعب جداً علينا أن نبدأ بالاستعداد الآن . »

قال الدكتور بادو : « اوافق على ذلك، ولكن الامر الذي حاولت ان اوضحه هو ان الاحتلال العسكري هو غير ما تفكرون فيه . وأنا منذ اطلاعي على أخبار سلوك الجنود اليابانيين في نانكنغ أخذت أفكر وأعد الخطط للعمل في حال سقوط وونشو . وحقيقة لا أرغب في أن أطلب من ممرضات المستشفى أن يبقين فيه واتحمل بذلك خطر تعريضهن لسوء آداب الجنود اليابانيين السكارى وسلوكهم الذميم . »

لدى هذا الايضاح سكت الجميع لان اخبار نانكنغ كانت تدعو للاشمئزاز والاسف وينذى لها جبين العدل والشرف .

من الامور المستغربة ان بيل ، الذي لم يكن من عادته ان يعطي نصائح أو يبدي رأياً ، تكلم ثانية قال : « دعونا نرتب امورنا الآن باعتبار الغارات الجوية وتأثيرها ، تاركين الاهتمام بانفسنا وبما يجب ان نفعله في الحالة الاخرى الى ان يأتي وقتها . وأنا على كل حال أشك في قدرتنا على أن نسبق الامور ونستعد لها . »

غمغم الحاضرون مشيرين بالقبول والموافقة لان كلامه لم يتضمن شيئاً من التشاؤم بل كان من قبيل « لنعمل ما دام نهار عالمين ان الليل سيأتي . » وبيل يؤمن بالآية التي تقول « كايامك راحتك » او قوتك .

بعد هذا الاجتماع بشهرين عادت قاذفات القنابل بعدد اكبر والقت قنابلها المدمرة فوق المدينة ثم دارت وعادت على ارتفاع أقل وأخذت تمطر الموت من رشاشاتها بدون رحمة على كل هارب يعرضه سوء حظه لنيرانها .

ورغم ان ادارة المستشفى كانت قد فرغت من اعداد غرفة للعمليات الطارئة حدثت هـذه الغارة بينما كان بيل يجري عملية في الغرفة العادية السابقة . وبالجهد قدر ان يكمل العملية ويضع المريض في مكان امين لا تصل اليه شظايا الزجاج المتحطم . وفي هـذه المرة أيضاً لم تقع أي قذيفة على المستشفى نفسه ، ولكن الارتجاج القوي حطم معظم الزجاج وكان عدد الجرحى الذين دخلوا المستشفى هـذه المرة يوازي ضعف عدد الذين دخلوا في المرة السابقة .

بذلت جهود جبارة لتخفيف المصائب التي سببتها الغارة ، وظل الاطباء يعملون حتى ساعات متأخرة من الليل. وكان بيل يجري عمليات من نوع جديد هذه المرة محاولاً أن يضمد اللحم الممزق ، ويبتر بقايا الأعضاء المقطعة ، ويعيد الملامح المشوهة الى شبه ما كانت عليه . وهو الذي أحب الطب الجراحي كعلم وفن لتجديد الحياة يرى نفسه كرجل فوق منتصف سد مهدم يحاول أن يصد التيار الجارف المندفع بشدة باكياس قليلة من الرمل .

وبعد اسبوعين من التعب المضنك قال لطبيب صيني يعاونه : « انا أشعر في بعض الاحيان كأني أحصد الريح وأفلح البحر . » فاجابه معاونه : « يجب ان ترتاح يا دكتور . »

كان المرسلون يُعطَون شهر راحة كل سنة ، اما بيل فكان نصيبه اسبوعاً واحداً في ثلاث سنوات . وبما ان اليابانيين كانوا يكتسحون الاراضي الصينية اعتقد بيل أن الأفضل له ان يزور الاراضي الداخلية التي لم تغير معالمها الثقافة الغربية الا قليلاً ، فيزيد اطلاعه على الحياة الصينية الاصلية ، فلا يقول الدكتور بادو في ما بعد انه ضعيف المعرفة بالعقلية والنفسية الصينية رغم انه في بعض الاحيـان كان يرى نفسه أعمق فهماً من الدكتور بادو نفسه في هاتين الناحيتين . وعلى كل حال يستفيد من الراحة ويجدد نشاطه .

كان للدكتور بادو تحفظات كثيرة بشأن هـذه المجازفة . فوالاس كان يفكر بالذهاب غرباً الى تشانغكينغ وتشانغتو وهنـاك لا يتكلمون باللهجة الكانتونية التي تعلمها ، فيخسر الفائدة من مخالطة عامة الشعب. وكان بيل يرد عليه بانه يحسن قراءة لغة القوم هنـاك ، ويستطيع ان يحتك بالمرسلين في تلك المنـاطق . واخيراً اذعن الدكتور بادو امام اصرار زميله .

في الاسبوع الاخير من آذار اجرى الدكتور بيل عمليات جراحية كثيرة كي لا يغادر المستشفى وفيه من يحتاج الى عملية . وسافر في اليوم الاول من نيسان في سيارة كبيرة ودلائل التعب ظاهرة على وجهه .

كانت سفرته في اليوم الاول فوق التلال الواقعة شمالي غربي ووتشو

الى واتلم . وكانت السيارة الكبيرة مزدحمة بالركاب وحرارة الهواء يسمع فيها لغط وتفوح منها روائح مختلفة . ولكن رغم هذه المزعجات شعر والاس بالراحة والانبساط وتمتع بمنظر حقول الارز الخضراء . وقرب الظهر أخذ يحادث الذين كانوا بجانبه فادهشهم بلهجته المستغربة ولغته الركيكة .

واتلم مدينة قديمة مسورة . والواقع ان كل المدن الصينية كانت في الاصل قلاعاً صغيرة يدافع عنها امراؤها الحاكمون ، ثم بحكم الاتساع قضي على الاسوار بالهدم في المدن الحديثة . وواتلم كانت مستثناة من نعمة العمران فسلم سورها وصارت قبلة السياح والزوار يأتونها فرحين ويغادرونها غير راضين عن مصيبتها . وكانت ، حتى ذلك الوقت ، سالمة من اذى اليابانيين .

قبل هذه السفرة كان كل ما رآه بيل متأثراً الى حد بعيد بالمدنية الغربية . والآن اكتشف ان الانغماس في الحياة الصينية الذي اراده يفوق انتظاره وتصوره فتذكر ان ذلك اليوم هو الاول في شهر نيسان واعتبر نفسه الشخص المكذوب عليه .

النقص في المواد الغذائية كان في بداءته ولا يكاد يشعر به في المقاطعات الغربية . ولم يكن من الصعب على المسافر الحسن الحال الحصول على أي نوع من انواع المآكل الصينية التي يستلذها ـ السمك الاصفر المحمص بصلصة حارة حلوة ، والبطيخ المطبوخ مع لحم الخنزير ، والملفوف ، والدجاج . وهناك ألوان الدجاج ونباتات الخيزران ، وبيض الحمام ، وبط بكين المغلف بعجين ، والشوربا

المصنوعة من زهر « اللوتس » ، والبرتقال ، وأنواع الفطر المطبوخة بالنبيذ . وقد أكل بيل منها كلها إلا انه كرجل متزهد رجع الى أكل الرز المطبوخ باشكال عديدة .

بعد خروج بيل من ووتشو بيومين وصل الى البلاد التي يتكلمون فيها اللهجة المندرينية وخسر حرية محادثة عامة الشعب التي كان ينعم بها في البلاد التي يتخاطب فيها الناس باللهجة الكانتونية التي درسها مدة سنتين. ولكنه كان يستطيع ان يقرأ كتابات اللهجة الجديدة ويفهمها ، وكان يسر بالسكان والمناظر والاصوات والروائح . وما كان يظهر لكثيرين انه فرصة موحشة انقلب فصار فرصة للتغرب والاختبار وقد احبها واستحسنها الدكتور الشاب .

وعندما أخذ بالاستجمام من التعب الروتيني الذي نتج عن متاعب عمله المرهق في السنة الفائتة صار قادراً على ان يغب من كأس الحياة التقليدية الملونة التي يحياها الصينيون الذين وهبهم حياته .

من اوريتشو تابع سفرته بالقطار الحديدي في قلب البلاد الى منطقة نهر يانغتزي وكانت غايته في مقاطعة زيتشوان الوصول الى تشانغكينغ المدينة القديمة . وحال وصوله اليها أدرك كم كانت معرفته عن الحياة في الصين قليلة في السنوات الثلاث التي مرت عليه . وذلك لان الحاجة الى مهارته الطبية لم تترك له وقتاً كافياً لدرس حياة هذا العالم الذي لا يؤثر عليه الزمن .

تشانغكينغ مدينة مسورة سكانها حوالي ٢٠٠،٠٠٠ وقد كانت في ربيع ١٩٣٨ عندما رآها بيل مظهراً صادقاً من مظاهر التاريخ الصيني

الاصيل ، وسكانها آخر فئة لقبول أي نظـام جديد للحكم ، واقل الصينيين اندفاعـاً في مساعدة من يحكم وتعضيده . وبين هؤلاء بدأ صن يات سن ثورته الموفقـة على المانشو في ١٩١١ وفي خلال أشهر صارت العاصمة الموقتة للصين الوطنية .

في هذا الوقت كانت تشانغكينغ ومقاطعـة زيتشوان داخلتين في شبكة اتفاق نصف اقطاعي تحت سيطرة أحد الامراء . وكانت سوقاً تجارية اقتصادية لفلاحي الصين الغربية . فكانوا يأتون اليها بالحرير واللحم والرز ويستبدلون مـا يأتون به بالثياب والاقمشة والبترول . وسورها يحيط بالارض التي تقوم عليها ، وهي شبه جزيرة ، وله تسعة مداخل تمر فيها قوافل الآتين الى المدينة . ثمانية من هذه المداخل تطل على نفانف الجبال المرتفعة فوق نهر يانغتزي والتاسع يدعى « البوابة التي تؤدي الى المكـان البعيد » وهو يفتح الى طريق بنته الامبراطورية القديمة ، يمر في الاودية الى تشانغتو .

بعد ان حجز بيل غرفة لاقامته (كانت المدينة مكتظة باللاجئين القادمين اليها من شمال شرقي الصين) ذهب الى مستشفى ارسالي هناك واتصل بطبيب مرسل من اطبائه . ورغم انهما لم يلتقيـا قبلاً صارا صديقين حميمين ، وتبادلا وجهات النظر في مشاكل عملهما الخاص . وهكذا صرفا بضعة ايام بسرور وفرح متبادلين .

وعرفه هـذا الدكتور على المدينة كما يعرفها الساكن فيها . فقد شاهد مساوىء الافيون والكوليرا والزحـار والسفلس والتراخوما . واخبره صديقه الطبيب عن مزاحميه في مهنـة شفاء الامراض ، وهم

اطباء مزيفون يشركون السحر مع الدواء في وصفاتهم التي تبدأ من بول الاطفـال الى مسحوق المسك ، الى التعاويذ التي تعلق على صدور الجثث فتبعد عنهم الارواح الشريرة .

وفيما كانا يتنقلان في الاسواق القديمة ويسمعان قباع الخنازير وقوقأة الدجاج ويتجنبان الاصطدام بها او بالحمالين سأل بيل رفيقه سؤالاً طالما شغل باله وأتعبه قال : « كيف ترضى المواظبة على العمل مع علمك بان تأثيرك ضئيل جداً ازاء المصائب والبلايا التي تراها، حتى لو صرفت لها كل حياتك ؟ »

تبسم صديقه الطبيب واجابه : « انك تعالج مشكلة شغلت بالي كثيراً عندما بدأت عملي هنا ، واعتقد ان كل مرسل يواجه هذه المشكلة نفسها في اول الامر . انها ازمة عاطفية تعرض لكل من يحس مع الغير. وعلاجها ان تضيق عينيك وتصلب قلبك ـ وكل واحد منا يفعل هذا الى حد ما ـ والا قادته عاطفته الى هوة الوساوس واضرت بصحته . ان كلامي يبدو كأنه جمع نقيضين معاً ، ولا شك في انه كذلك . ولكن لا بد لنا اخيراً من مواجهة الحقيقة وهي ان الله يعرف حدود قدرتنا وقد اتى بنا الى هنا تنفيذاً لقصد يقصده . فيجب ان نعمل جهد طاقتنا تاركين له تدبير ما لا نقدر عليه ، كما نترك له الاهتمام بمجرى التاريخ.»

فقال بيل بكآبة : « انا اعرف جيداً حدود مقدرتي وأعرفها الآن اكثر من أي وقت مضى . واعتقد ان مشكلتي كانت انني كنت احاول ان افرض حدود مقدرتي على الله . »

« وكل واحد منا يجب ان يكيف نفسه على هـذه الامور ، ولكن

البعض لا يفعلون . وهـــذا هو وقت يمتحن فيه عاطفته الى اقصى حدودها . »

انعم بيل النظر في ما قاله صديقه وتمعن في مغزاه طويلاً .

رأى والاس تشانغكينغ قبل ان تتسع وتصير مدينة جديدة . ثم بعد ستة أشهر اصبحت مركز قوة الصين الحرة . واتسعت اربعة اضعاف ما كانت عليه .

من تشانغكينغ ذهب بيل الى تشانغتو مدينـــة فيها اكثر الجامعات العلميـــة العظمى في الصين . وهناك رأى الشرق والغرب بتناقضاتهما . رأى نساء مرتديات الثياب الغربية على آخر طراز يمشين الى جانب نساء في الزي الصيني التقليدي ، ورأى اقدام الصينيات المشوهة الصغيرة وهي عند الصينيين من لوازم الجمال .

صرف بيل في تشانغتو اسبوعاً زار فيـــه الجامعات والمستشفيات وتحدث مع المرسلين في المنطقة ودرس اساليب تكنيكية جديـــدة في الجراحة دعت اليها الحاجة الطارئة التي لم يعرف مثلها بلد آخر من بلدان العالم .

كان لبيل قدرة غريبة على الاجتماع بالنـــاس والتعلم منهم . ورغم قلة كلامه كان يحمل النـــاس على التكلم كثيراً دون ان يشعروا بذلك ما دام هو معهم، فاذا فارقهم تعجبوا من قلة ما قاله ومن كثرة ما قالوه دون ان يلاحظوا ذلك في وقته .

بعد اسبوع ودع بيل اصدقاءه وركب سفينة من سفن نهر يانغتزي الى هانكاو . وكان اليابانيون في ذاك الحين يقومون بحملتهم الربيعية

فاحتلوا سوتشو وكان هدفهم التالي مدينة هانكاو . ولكن بيل كان قد أتم معاملات سفره اليها وكان فيضان النهر الاصفر قد ابطأ تقدم الحملة اليابانية فعزم على أن يزور تلك المدينة الصناعية ما دامت الفرصة سانحة له ان يراها . وبعد زيارتها عاد الى مقاطعة كوانغسي بطريق هونان ، وقد اقتضت عودته هذه اسبوعين .

وقد حمل بيل انشغاله بسفرته الطويلة على اهمال الاتصال بووتشو فلم يكتب للدكتور بادو الذي قلق جداً لعدم ورود أي نبأ عن بيل في خلال خمسة اسابيع وكان قد كتب الى الدكتور مادري انه لم يكن من الحكمة ان يذهب الدكتور بيل في سفرته ولكن لم يكن شيء يمنعه . ان عناده كان في أغلب الاحيان مصدراً لاغاظة الرجل الاداري .

لم يكن الرجلان يفهمان احدهما الآخر رغم الاحترام المتبادل الذي يكنه كل واحد منهما لرفيقه . فميل بيل الى التكتم الشديد وعدم اختلاطه مع اصحاب السلطة والمراكز الرفيعة عملا على تعقيد المشكلة . ولكن الحقيقة التي تستحق الاعتبار هي ان بادو كان يرى نفسه مخطئاً في كثير من تقديراته . ومع كرّ السنين رأى أن زميله الشاب يبرهن عن قدرته على النمو والتقدم الى درجة ملحوظة ، في النواحي التي ظنه لا ينجح فيها .

في اواسط ايار وصل بيل الى ووتشو متجدد النشاط مطمئناً اكثر من أي وقت آخر قضاه في الصين .

قام اليابانيون بالغـــارة التالية على ووتشو في خلال اسبوعين بعد وصول بيل اليها . وضربوا الطائرة التي كانت تأتي من هونغ كونغ الى

تشانغكينغ وتقف في وونشو . واطلقوا نيران رشاشاتهم على ركابها الهاربين واماتوهم . وموظفو مستشفى ستوت ميموريال كانوا حتى تلك الساعة لا يعتقدون بان اليابانيين يضربون المستشفى قصداً . فرسموا صورة العلم الاميركي مكبرة على سطح المستشفى ورسموا شكل صليب حوله في كل جهة من جهاته .

ولكن السابع عشر من ايلول ١٩٣٨ قضى على اعتقـادهم إذ ارتفعت اصوات صفارات الخطر في الصباح بينما كان بيـل يجري لاحدهم عمليـة شق بطن خطرة فاضطرب مساعدوه ونظروا اليه مستطلعين رأيه في ما يفعلون ؟ فقال بصوت هادىء بلهجـة الآمر الحازم : « مس لوك ، دكتور لانغ ابقيا معي . وأنتم الباقون اذهبوا وساعدوا العمال في نقل المرضى الى الملجأ وابقوا هناك معهم .» فقالوا : « ولكن اليابانيين يا وا اي سانغ ؟! »

« افعلوا كما قلت حالاً . العمليـة ما انتهت بعد ولا يمكن ان نتوقف قبل اكمالها . »

كانت قطرات العرق تتصبب على جبهته على غير عادة فتمسحها مس لوك ، والعملية تسير في طريق الاكمال .

كانوا على وشك الاكمال عندما علا هدير الطائرات المغيرة وسمع ازيز قنابلها فوسع بيل ما بين قدميه استعداداً لاحتمال الارتجاج المنتظر وأطبق جانبي الجرح وأخذ يخيطهما بسرعة ومهارة . وقال لمساعديه : « اذهبا الآن . قد يكون العمال بحاجة اليكما . »

« وأنت والمريض يا دكتور ؟ »

« سأنقله الى آخر الغرفة حيث الشبابيك لم تصلح بعد فلا خطر من شظايا الزجـاج . » وضاعت كلماته الاخيرة في دوي المتفجرات المتساقطة بعيداً والمتفجرات القريبـة التي أصم صوتها الآذان ونشر الرعب .

فقال بلهجة الآمر المشدد : « اذهبا . اسرعا » .

وانتشر الهول في الخارج وكثرت الفظائع . ففي الاسواق وفي كل ممر عشرات من الرجال والنساء والاولاد وقد شوتهم النيران المنصبة . وكانت القنابل تتراقص فوق سيول من الدماء تاركة وراءها اشلاء الجثث وبقايا الحياة. وفي الملاجىء القليلة كان الاحياء يدوسون بعضهم بعضاً من شدة الرعب المستولي عليهم وشدة الازدحام . وفي باحـة المستشفى ازدحم مئات من الصينيين آملين ان رسم العلم الاميركي ورسوم الصلبان الحمراء حوله توفر لهم السلامة .

بعد سقوط القنابل الاولى بقليل كان الدكتور بيل قـد فرغ من العملية الجراحية ووضع المريض في الغرفـة الكبرى كما قال قبلاً . ولم يكن له ان يختـار ما هو أفضل من ذلك . فالمريض لا يمكن نقله الى أسفل. وفي الموضع الذي هو فيه الآن لا خوف عليه من شظايا الزجاج لان الارتجاج كان قد حطم الزجاج قبل ذلك ولم يبق ما يخشى تحطيمه . ولما عاد الى المريض وعيه انحنى بيل فوقه ليثبته على الفراش ، وكان يحاول بلغته الكانتونية ولهجته التنسية الاميركية ان يطمئنه ويشجعه .

في تلك اللحظة تحول قسم من القوة المغيرة الى فوق ارض المستشفى، المعتبرة ارضاً حراماً للرحمة لا يجوز انتهاكها ، والقى المهاجمون تسع

عشرة قنبلة هزت البناء هزاً عنيفاً . وسقطت قنبلة على سطح المستشفى فوق الغرفة التي كان فيها بيل والمريض فتطاير الطين والركام وتركت فتحـــة في السقف وسقط الطبيب والمريض والفراش والكرسي على الارض . ولكن بعنـــاية الله ورحمته لم يصب الطبيب ولا المريض باي اذى . بعد هذا غادرت القاذفات المدينة تاركة فيها المصائب والاحزان .

وحالما غادرت الطائرات المدينـة صعد موظفو المستشفى الى الطبقة العليا فوجدا بيل والمريض يصليان معاً بعبارات قصيرة متقطعة الا انها صلاة خشوعية مرصعة بدرر الشكر والحمد . فطوقوهما بفرح وركعوا جميعاً مقدمين أيضاً صلاة الشكر والتسبيح .

ان عمل بيل مما يستحق له نيشان الشرف لو كان جندياً في معركة . ولكن الله لا يعلق نياشين للابطال الذين يجاهدون في خدمته . ولكن سيأتي وقت ـ كما يقول الكتاب المقدس ـ يكافأ فيـه الابرار . واسطورة حياة بيل والاس كانت في دور التكوين .

تواردت قوافل المصابين من كل حدب وصوب ، بعضهم محمولون على ابواب مخلعة وبعضهم على الواح من الخشب وغيرهم في سلال . وكان لبيل ومعاونيه يوم كأنه كابوس لا آخر له . فقطعوا ورتقوا وضمدوا . وكانوا يئنون ويتوجعون عندما تفلت الحيـاة من بين اصابعهم ، ويفرحون ويتهللون عندما يتغلبون على الموت ويذللون آلام المصابين .

وكانت غرفة الانتظار شبه مسلخ ، فيها المكسّرون والمخلّعون

والممزقو اللحم والمجرّحون من الرجال والنساء والاولاد ، وقد ملأوا كل المكان . وكل سرير في المستشفى كان يحمل ضحية . وفي الممرات وعلى السلالم ينطرح المتألمون من جميع الأعمار والطبقات وهم يتأوهون ويموتون دون مساعد .

طلب بيل من راي ان يهتم بشأن غرفة الانتظار ويساعد الاطباء والممرضات على ادخال من كانت جروحهم خطرة قبل سواهم . فمد ركس يده لينهض فتاة صغيرة كانت شظية قد مزقت وجهها . وبينما هي بين يديه اصفر وجهها وغاصت في بركة من الدماء وكان الموت اسبق اليها من يد الطبيب .

واخيراً وقف بيـل منهوكاً ، نصف مغمض العينين من السهر والاعياء ، وكان ثوبه الابيض الملطخ بالدماء لا يزال عليـه . والقى نظرة على ووتشو التي تهدم اكثر من ثلثها واصبح الوف من سكانها دون مأوى ودون قوت وقوة . وتذكر نصيحة صديقه الطبيب في تشانغكينغ : « اعمل ما تقدر عليه واترك للرب تدبير ما لا نقدر عليه نحن . »

في اليوم التالي أعد المرسلون شورباء بالرز والخضر للجياع وابرقوا للقنصل الاميركي يخبرونه بان اليابانيين ضربوا المستشفى . فارسلت الولايات المتحدة الاميركية احتجاجاً شديد اللهجة الى المسؤولين في طوكيو . وقد نتج عن ذلك بعض النفع .

هكذا امتحن بيل والاس ـ انه امتحان بالنار .

٦

حادثة في كانتون

وقف يوجين هيل في المرفأ يراقب نزول ركاب باخرة النهر الغربي. وبلحظة لمح الرجل الذي كان ينتظره . هو شاب طويل ، لا تفارق الابتسامة ثغره ، يرتدي ثوباً ابيض — انه بيل والاس وقد نزل الى البر ، وحيا صديقه تحية شوق حارة .

لاحظ هيل ان مظهر الفتوة والمرح في صديقه لم يدل على ما قد اختبره خلال بضعة الاشهر الماضية ، اما عيناه ففيهما علامات النضج والحنكة .

« حسناً يا دكتور لقد كنت اعتقد انك ستبقى في كوانغسي حيث الامان والطمأنينة . أما هنا فالحالة حالة حرب كما تعلم . »

« كدت اموت هناك من الضجر ، واني بحاجة الى بعض المغامرات . »

فضحك يوجين وقال : « عندما نزل اليابانيون في خليج باياس اعتقدت متأكداً ان الدكتور بادو سيمنعك عن حضور الجلسة التنفيذية . »

فأجابه بيل مبتسماً : « حقيقة انه لم يكن متحمساً لمجيئي . »

قال هيل : « انه يعرف عناد الطبيب الذي عنده . وربما انه تراجع عن رأيه بفعل النعمة المسيحية . » قال هذا وابتسم وربت على ظهر بيل .

فقال بيل : « ان عمل اللجنة التنفيذية شرف عظيم لا اقبل ان يمنعني عنه اليابانيون . »

« شرف عظيم ! ماذا تقول لقد انتخبونا لهذه اللجنة لانهم يعلمون اننا لحماقتنا سنحضر مثل هذا الاجتماع تحت القذائف ووسط نيران الحرب . »

ضحك الاثنان وركبا في عربة صغيرة تنقلهما الى بيت هيل . وفيما هما في العربة شرح يوجين الحالة قائلاً : « لقد كنت على وشك ان ابرق لك اليوم لاخبرك كي لا تأتي . لقد كنا نظن انه سيكون لنا وقت كاف للاجتماع فنبحث ونقرر وتعود انت الى ووتشو ، ولكني لست متأكداً الآن انه سيكون لنا هذا الوقت . فاليابانيون لم يتبعوا الخطة التي قدرها لهم القائد الصيني الاعلى واستعد لها بل نزلوا في خليج باياس ودباباتهم تتحرك الآن في سهول الرز الصالحة لسيرها بسبب الجفاف . وهم لا يلاقون الا مقاومة رمزية . واذا لم يتمكن الصينيون من استعادة قواهم وارسال بعض فرق جيشهم لمقاومتهم في خلال يومين او ثلاثة فانهم سيكونون هنا في اواخر هذا الاسبوع . »

صفر بيل مدهوشاً وقال : « ما كنت اعتقد انهم سيصلون الى هنا

بمثل هذه السرعة. فقد حسبت ان المقاومة ستؤخر وصولهم حتى عشرة ايام أخرى ولو كانت القوة اليابانيـــة اكبر مما سمعنا . » ثم سأل عن لويز : أما قرب وقت ولادتها .

فقال هيل : « نعم ستأتي . لقد جربت ان آخذها الى هونغ كونغ، ولكنها أشد عناداً من دكتور انا اعرفه جيداً . » فاجابه بيل : « انها تخاف عليك ، لانك لا تعرف كيف تتصرف اذا تركتك وحدك . »

« ان ما قلته اقرب الى الحقيقة مما تعتقد ! وقـــد استأجرت الآن منزلاً في ضاحيـة شاماين والدكتور هايس سيهتم بها فنكون في مأمن هناك . »

فوافقه الدكتور بيل واستحسن رأيه . فشامايـن منطقـة دولية لها امتياز خاص ، يفصلها عن كانتون قناة ضيقة عرضها حوالي خمسين قدمـــاً . وحتى ذلك الوقت لم يعتد اليابانيون على المناطق المحايدة بل احترموا الامتيازات في كل مكـــان . وظن المرسلون ان اليابانيين سيفعلون كذلك في شاماين . ثم سأله عما سيكون شأن مدرسة اللاهوت المعمدانية القائمة على تلة قرب كانتون ، وعن يوجين هيل الذي كان أحد اساتذتها .

فقـال هيل : « سنصرف التلامذة يوم الاربعـــاء . والاساتذة الصينيون سيغادرون المدرسة حالاً . لانه اذا قـــاوم الجيش الصيني ودافع عن المدينة لا تبقى المدرسة مكاناً امينـــاً . والمستشفى سيقفل ايضاً فيصرف المرضى او يرسلون هم وهيئة المستشفى الطبية الى مكان آخر في الصين او الى هونغ كونغ . »

قال بيل : « اني متعجب من رؤية الناس والسيارات في الاسواق . وكنت افتكر ان الغارات الجوية ستشل الحركة تماماً . »

« ستهدأ الحركة قريبـــاً . فقد اغارت طائرات قليلة وضربت البنايات الحكومية . وباستطاعتك ان ترى الدخان المتصاعد منهـــا في الجهة الشمالية من زاوية المدينة . »

« اذن سيكون اجتماع اللجنـــة التنفيذية اقصر اجتماع في تاريخ اجتماعات ارسالية الصين الجنوبية . »

« سيكون كذلك اذا كان لي تأثير فيه . »

وهكذا كان . فبعد ظهر اليوم التالي اتخذت قرارات بشأن جميع القضايا الطارئة وارسلت الرسائل والبرقيات حسب مقتضاها . وقبل ان تنتهي الجلسة اغارت الطائرات اليابانية على كانتون وامطرتهـــا بقنابلها . لم يصب مكتب الدكتور هايس في شامايـن ، حيث عقـــد الاجتماع، ولكن الحرائق كانت تشتعل حوله وازيز رصاص الرشاشات المتقطع كان مفزعاً ، وكانت البلبلة شائعة في كل مكان .

والآن كان عليهم ان يحلّوا مشكلة جديدة ، وهي رجوع اعضاء اللجنة الى اماكنهم . ألك هرنغ أمّن رجوعه في ناقلة بترول الى هونغ كونغ . امـــا بيل فقرر الانتظار حتى صباح الغد ليسافر في زورق الى ووتشو .

في صباح اليوم التـــالي شق بيل طريقه بين الجماهير المزدحمة في الاسواق الى الجسر الرئيسي خارج كانتون ووصل بعد جهد الى المرفأ. ولكنه كان مثل من يبتغي السفر الى القمر . فالقوارب التي كانت تنقل

المسافرين بصورة منتظمة قد توقفت عن عملها ، والسفن الحربية الاجنبية انسحبت من الميناء لأجل سلامتها .

وبينما هو واقف ينظر الى المشهد الصاخب المحيّر ويفكر بوسيلة تعيده الى مستشفاه في ووتشو دوت صفارات الانذار وتبعها هجوم جنوني الى الملاجىء . وأخذ بيل يراقب الطائرات المتجهة نحو منطقة الميناء . وبعد لحظة رآها ترمي قنابلها المحرقة على الزوارق الراسية واحداً بعد آخر فتتركها طعمة للنار . وحين اسرع للهرب لاحظ انه اصبح هدف نيرانهم وبالجهد تمكن من الاختباء بين صناديق كانت هناك معدة للشحن . لذلك قرر ان يؤجل رجوعه الى ووتشو الى وقت آخر وتحايل للرجوع الى منزل صديقه هيل .

ولما عاد يوجين هيل وزوجته من مدرسة اللاهوت ومعهما الوثائق المهمة لأجل حفظها وجدا ضيفهما في فراشه . ولما رآهما نهض واتكأ على مرفقه وقال : « ان الخطر لشديد ، وان بقي احد خارجاً دهمه الموت . »

فقال هيل بايجاز : « تفيد الاخبار الاخيرة ان اليابانيين على بعد عشرة اميال منا . وهذا يعني انهم يصلون الى هنا غداً . وقد تُضطر ان تبقى في هذه المنطقة بقاء دائماً بامر اليابانيين . »

اعدت لويز هيل ، المرحة والفرحة دائماً ، الطعام الشهي الذي انسى الرجلين همومهما رغم عدم اطمئنانهما لما يخبىء الغد . وبعد ظهر ذلك اليوم اقنع هيل زوجته لويز بضرورة الذهاب الى شامابن ، واستعار سيارة المستشفى ونقلها الى المنزل الذي استأجره هناك .

في اليوم الثاني قبل الفجر استيقظ يوجين وبيل على هزيم المدافع وازيز الرصاص وهدير الطائرات . وذهبا الى شامابن ليتفقدا مسز هيل ، وليبحثا عن وسيلة لسفر بيل الى ووتشو . فوجدا الميناء كالصحراء ليس فيه قوارب ولا مواعين . وشعر بيل انه سيبقى حيث هو .

وفي الجهة الشمالية الشرقية كانت اصوات المدافع الثقيلة تشتد . وفي الافق كان يظهر بريق نار المعركة التي كانت تتقدم في طريقها نحو المدينة .

راقب بيل هذا المشهد برهة ثم قال ليوجين مستسلماً : « اظن ان في ما رأيناه كفاية . دعنا الآن نذهب ونساعد الناس الذين يلتجئون الى المستشفى . »

لما وصلوا الى المستشفى تأكدوا انه عندما تبدأ معركة المدينة يكون المستشفى أكثر اماكنها أمناً، لان فيه ملجأ بني قوياً للوقاية من الغارات الجوية ولانه تحت سطح الارض لا تؤثر فيه القنابل الجانبية ايضاً . وهو يتسع لخمسين شخصاً .

بعد اعداد الملجأ كما ينبغي ، تفقد الدكتور بيل والدكتور ف. د. ودوارد — الذي حضر جلسة اللجنة التنفيذية — المسيحيين في تلك المنطقة ، ودعواهم مع عيالهم الى المستشفى ، وحثاهم على ان يحضروا معهم كل ما عندهم من المواد الغذائية والثياب .

في تلك الاثناء انتشر بسرعة خبر تحطيم خط الدفاع الصيني وعرف ان اليابانيين سيدخلون المدينة حالاً . فعمت موجة من الرعب واندفع

ألوف من السكان للهرب . وفي هذه الزحمة الشديدة اضطر بيل ورفيقه للوقوف في مكان في السوق بانتظار انتهاء الجماهير . فشاهدوا كيف يدوس الناس بعضهم بعضاً خوفاً من الرصاص . وفي بعض الاماكن كان المشاهد يرى الدماء والعظام واللحم الممزق والمرضوض . هذه كانت البقايا التي تدل على الذين سقطوا ولاقوا حتفهم .

بعد فترة من التوقف انطلق بيل ويوجين في سيارة المستشفى ولكن الجماعات الهاربة كانت توقفهم هنا وتؤخرهم هناك . وبعد قليل أزت طائرة يابانية فوق الشارع فاختبأ الناس وانفسح المجال امـــام السيارة فانطلق بها بيل مسرعاً حتى اجتاز نقطـــة الازدحام . وشد ما كانت دهشتهما عندما لاحظا ان السيارة المنطلقـــة اصبحت هدفاً لرصاص الطائرة فتركاها وسارا على الاقدام الى منزل هيل لانه لم يبق لهما الوقت الكافي للذهاب الى المستشفى .

ومرا في طريقهما قرب مدرسة اللاهوت فوجدا انها قد تحولت الى حصن تدور فيه رحى معركة داميـــة . هناك قسم من مؤخرة الجيش الصيني توقف بقصد ازعاج تقدم اليابانيين فصب هؤلاء نيرانهم على الصينيين الذين تحصنوا في المدرسة وباحتها . وقد رأى المرسلان بعضاً من الذين اصيبوا في تلك المعركة يسقطون ويموتون .

اسرع بيل ورفيقه في السير متسترين بالحيطان المرتفعة الى بيت هيل حيث الطعام المحفوظ في العلب وغير ذلك من المواد الغذائية فحملا ما استطاعا من تلك الموجودات وعـــادا الى المستشفى متسترين قـدر الامكان . ولما وصلا الى مفترق طرق مكشوف كان عليهما ان يقطعاه

ليأخذا في طريق المستشفى ، رأيا الناس يركضون الى الملاجىء وسمعا هدير الدبابات اليابانية آتية نحوهما من الجهة المقابلة تؤازرها الطائرات من الجو .

وكان صيني راكضاً نحوهما وهو يصيح « انقذوني . ساعدوني » ثم سقط على بعد بضع اقدام منهما . وبعد لحظات سقط اكثر من اثني عشر شخصاً آخرين . فادرك المرسلان ما يجري ، وعرفا ان الوصول الى المستشفى مستحيل فقال بيـــل : « لنرجع والا متنا . » فبادره رفيقه بقوله : « عجباً ! أترفض ان تذهب الى السماء ؟ » فاجابه بيل : « اني اريد ان اذهب الى السماء ولكن ليس اليوم . »

لما وصلا الى منزل هيل القيا حمليهما وانبطحا على الارض في احدى الزوايا . وما كادا يستلقيان حتى انصبت على البيت طلقات من نيران الدبابات الهادرة في الاسواق وتساقط الطين عن الحيطـــان فوق المرسلين .

بعد فترة قصيرة من الهدوء رفع بيل رأسه وقال همساً ليوجين : « أتظن ان بامكاننا ان نصل الى المستشفى سالمين الآن ؟ »

« لا أعلم . وأنا أخاف ان أرفع رأسي . »

« سأذهب انا وأرى . » وزحف بيل على يديه ورجليه نحو الباب المقفل وفتحه بهدوء ومد نظره نحو السوق . فاستقبلته رصاصات من دبابة اخرى نجا منها باعجوبة . ولم يكد يصل الى ملجأه السابق حتى عادت الطلقات تنصب على المنزل . (وبعد ايام وجدا ثمانية وثلاثين ثقباً في جدران البيت .)

بعد ان هدأت الحالة تقدم « جين هيل » بحذر وفتح الباب فرأى الشارع هادئاً خاوياً . فقال لبيل : « اذا كنا نريـــد ان نذهب الى المستشفى فيجب ان نذهب الآن . »

حملا حمليهما من الزاد وانطلقا في الشارع وما ابعدا كثيراً حتى بدت دبابة امامهما . فلم يكن لهما الا ان يطرحا حمليهما ويركضا . فقال بيل: « لننطلق كل واحد منا لنفسه . » وركضا باسرع ما يمكنهما .

قطع جين هيل آخر عطفة قرب المستشفى ووقف يجيل طرفه عله يرى رفيقه فلم يظهر له أثر . ففكر بان يرجع ويفتقده لعل الطلقات التي كانت تسمع حيناً بعد حين اخرته او اصابته . وإذ هو يهم بالرجوع رأى بيل راكضاً باقصى سرعته ويداه تضربان الهواء، والقنابل تتساقط وراءه فتفلح ارض الشارع . ولكنه وصل بأمان .

لما وصلا كلاهما الى المستشفى وجدا فيه ٢٦٨ لاجئاً وتدفق سيل من جرحى الجنود والمـــدنيين ، بعضهم يمشون وبعضهم يحملهم اصدقاؤهم أو رفاقهم . وكانت رائحـــة اللحم الممزق والدم المتجمد تمتزج مع رائحة الهواء الفاسد من جراء هـــذا الجمع المزدحم في مكان ضائق بهم . وكان الجنود قد نزعوا بزاتهم خوفاً من معرفتهم .

بعد ان استراح بيل قليلاً بدأ يعالج الجرحى بما لديه من الوسائل والمواد القليلة . فكان عمله شاقاً مؤلماً للانفس الحساسة .

في الخارج كانت الدبابات اليابانية تذيع الاوامر محذرة الصينيين باللغة الكانتونية كي لا يظهروا في الشوارع لان كل من يظهر في الشارع تطلق عليه النار فوراً .

فقال بيل دون ان يرفع رأسه او يتوقف عن عمله : « لا حاجة به لان يكرر امره لي مرة اخرى . » في هذه اللحظة تقدم جين هيل نحوه واخبره انه صعد الى الطبقة العليـــا وتلفن لمكتب « يونيتدبرس » لان خط الهاتف كان لا يزال سالماً وقد ينقطع بعد قليل .

« ماذا قالوا لك ؟ »

« سألوني عن الحالة هنا . ولما اخبرتهم ان الدبابات اليابانية تتجول في الشوارع قالوا : اذن قد قضي الامر وكانتون قد سقطت . »

كان هذا في الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة من بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ٢١ تشرين الاول سنة ١٩٣٨ .

وفي الخارج كانت الحرائق التي لم تخمد تنير الجلد ، وفي داخـــل المستشفى كان بيل يعالج الجرحى على ضوء المصابيح الكهربائية اليدوية محاولا تخفيف الآلام قدر المستطاع . وقرر ان يجري عملية جراحيـــة لامرأة فتية عندما يسمح له نور الصباح . فقـــال جين انه سيحضر ما يلزم من الادوات الجراحية من غرفة العمليات في الطبقة العليا متستراً بظلام الليل . ولكن قبل الفجر ماتت المرأة فاحنى بيل رأسه وقد انهكه الحزن والتعب .

ظل جين وبيل في ملجأ المستشفى يومي السبت والاحد . وفي يوم الاثنين خرجا وشاهدا جثث القتلى التي كان أكثرها لا يزال في الشوارع والرائحة الكريهة تنتشر منهـــا . تقدما بجسارة نحو الجنود اليابانيين واطلعاهم على هويتيهما فسمحوا لهما بالمرور .

في اليوم التالي ذهب بيل الى القنصلية الاميركية ورتب أمور سفره

على سفينة حربيــة بريطانية كانت ستسافر يوم الاربعاء الى ووتشو . وبعد وصوله الى السفينة بساعة واحـدة صدرت أوامر اليابانيين بمنع التجول والخروج من المدينة .

بعد خروج السفينة الحربية « روبن » من مرفأ كانتون تأوه بيل وتذكر انه في مـــدة اسبوع تقريباً لم يتوقف ليفتكر في ووتشو او نوكسفيل أو في اي شيء آخر بل كان همه التفكير في ما بين يديه من اعمال وفي ما سيكون في الساعة التاليـــة . وكذلك لم يخطر في باله ان يكتب الى مستشفى ستوت ميموريال عن احواله . والدكتور بادو لم يغفل عن هذا فكتب الى المركز في رتشموند فرجينيا يقول :

« نحن في ووتشو قلقون لان الدكتور والاس غادرنا في السادس عشر من تشرين الاول الى كانتون ليحضر اجتماعاً في ١٨ منه ، وحتى الآن لم يرجع . وقد وصلت سفينتان الى هنا من كانتون احداهما تركت في ٢١ والثانية في ٢٢ الجاري . هاتان سفينتان بريطانيتان نقلتا لاجئين صينيين . وحسب اخبـــار الراديو احتـل اليابانيون كانتون في ٢٠ الجاري . ولا نعلم لماذا لم يكتب الينا الدكتور والاس . والذي يقلقنا ان زوارق عديدة كانت آتية من كانتون اغرقتها الطائرات . لذلك بتنا لا نعرف ماذا نقول او كيف نفتكر . »

جميع هيئة المستشفى في ووتشو كانوا مضطربين لعدم سماعهم شيئاً من والاس بعـــد سقوط كانتون . وقد صلوا لأجله بحرارة وبدموع غزيرة في كنيسة المستشفى . بعد الصلاة بساعة واحدة استلم الدكتور بادو رسالة تقول : « اصل غداً في السفينة الحربية روبن . والاس . »

٧

المطلب الرئيسي

وقف بيل في مدخل المستشفى يحتسي فنجان قهوة الصباح ويحاول ان يتخلص من مزعجات ما مر به .كان يشعر بحاجة الى الراحة والنوم ولكن لا مجـــال الى ذلك . فأسرّة المستشفى ملأى بالمرضى ، وقسم الحوادث الطارئة كان يغص بالمنتظرين دور معالجتهم .

ورأى بيل الدكتور بادو خارجاً من العيادة ، في احدى يديه المسماع الصدري وفي الاخرى لائحة اسماء المرضى . وكان كمّا قميصه ملفوفين ومرتفعين حتى فوق مرفقيه ، وطوقه مفتوحـــاً لم يزرّر ، وهو يمسح العرق المتصبب حول عنقه بمنديل . فعجب بيل من ذلك لانه لم يكن من عـــادة الدكتور بادو ان يظهر بمثل هذا المظهر غير الرسمي . ولما اصبح قريباً منه رأى التجاعيد عميقـة في وجهه ورأى دائرتين قاتمتين حول عينيه . وسمعه يقول :

« لا ادري اذا كنت سابتسم في ما بعد . اللاجئون يأتون ويأتون جموعاً متواصلة . ولست استغرب اذا كان عددهم قد بلغ عشرة آلاف منذ سقوط كانتون . »

فقال بيل : « اظن ان معظمهم في المستشفى . » فاجابه الدكتور

بادو : « انا متأكد ان ما قلته قريب من الحقيقة . وعلينا ايضاً ان نجد مكاناً لعشرة آخرين حالتهم تحتاج الى المعاملة في المستشفى لينجوا من الموت . اننا مضطرون بسبب الظروف القاسية ان نعالج بعض المرضى ونرجعهم الى بيوتهم ، ممن كنا في ظروف عادية ندخلهم في المستشفى حالاً . »

فأخذ بيل اللائحة من الدكتور بادو وقال : « سأرى اذا كان بامكاننا ان نفرغ عشرة أسرة لانه لم يبق مكان لنمد عليه حصراً ونضع عليه فراشاً . » قال هذا وهمّ بالذهاب الى المستشفى ولكنه توقف وسأل الدكتور بادو قائلا : « متى كان هنا ظروف عادية ، آخر مرة ؟ »

فاجابه الدكتور بادو : « لا يمكنني ان اتذكر ذلك . ولكن ما رأيته سيقض مضجعي ويزعج نفسي مدة سنين طويلة . »

بعد رجوع بيل من كانتون بوقت قصير دعا الدكتور بادو جميع موظفي المستشفى والمشتغلين فيه للبحث في مسألة طارئة هي الاحتلال الياباني المتوقع . وبعد ان روى لهم ما رآه بيل في كانتون سألهم اذا كانوا يختارون التخلي عن عملهم في المستشفى ام لا . فاكدوا له بالاجماع انهم يختارون البقاء في مراكزهم .

أثر جوابهم الاجماعي على المرسل الشيخ فترقرق الدمع في عينيه حتى ان الموظفين تعجبوا من هذا المظهر العاطفي الذي ما تعودوا ان يروه من المدير القدير .

لقد آثروا البقاء ولكن ظهر ان البقاء اصعب من كل المشاكل التي

واجهوها سابقاً . تلك المشاكل كانت تبدأ ثقيلة ، ثم تخف مع الوقت وتنتهي . اما مشكلة اللاجئين الحاضرة فالظاهر ان لا نهاية لها .

لم يكن من المستطاع احصاء عدد العمليات التي كان يجريها الدكتور بيل في الليل وفي النهار حتى انه اصبح جلداً على عظم . وفي الليل كانت الانوار الخفيفة تنعكس عن ثوبه الابيض المنقط بالدماء بينما يمر في اقسام المستشفى المزدحمة كلها بالمرضى ليتفقد احوال من هم في خطر وليصف العلاجات او المعاملات اللازمة لمن عالجهم في اثناء النهار وليفحص غيرهم لتحضيرهم للعمليات الجراحية في الغد .

ومع الادوية والضمادات كان بيل وبادو والممرضات يقدمون دفعات من اخبار يسوع المسيح الطيبة . وكان المبشرون في المستشفى ومساعدوهم يعقدون اجتماعات يومية للخدمة الدينية ويفرحون ليس فقط برؤية المرضى يستعيدون صحتهم ورؤية دم الحياة النشيطة يعود الى عروقهم ويورد خدودهم بل يفرحون ايضاً باشعاع النور المسيحي والطمأنينة المسيحية المالئين حياتهم .

كان بيل والاس طبيباً مهمته الرئيسية محاربة المكروبات وشفاء الامراض الجسدية ، ولكنه في الصين كان مبشراً يحمل اخبار يسوع المسيح المفرحة وبشارة غفران الخطايا ومسرة الحياة الابدية الملازمة رسالة محبة الله الازلية . وفي بعض الاحيان كان تبشيره بهذه النعمة أشد تأثيراً وأبلغ وقعاً من كلام ابلغ الوعاظ .

بحث بيل وبادو في مسألة ما لديهم من الادوية واللوازم الطبية ومسألة قوتهم الجسدية لاحتمال ضغط حاجات الحالة التي هم فيها ،

فظهر لهما ان الحالة تميل الى التحسن . فاليابانيون لم يتقدموا من كانتون بل اكتفوا بمنطقة ستراتيجية حولها . وهم الآن يسيطرون على المناطق الصناعية والمرافىء الرئيسية وشرايين التجارة الكبرى . فالمناطق الثلاث التي فيها أهم المصالح الخارجية للاقتصاد والتجارة كانت في ايديهم . وكانت أيضاً قواتهم البحرية تسيطر على شبكة المواصلات النهرية . ولكن الصينيين ظلوا صامدين ومصرين على المقاومة .

وفي اثناء فترة راحة من الحرب انحصر اهتمام والاس في الامور المحلية وهو يواجه عملاً ليس له فيه قابلية . فالدكتور بادو وزوجته اللذان اشتغلا مدة ست سنوات في ووتشو بدون راحة صارا بحاجة الى قضاء سنة يستريحان فيها في بلدهما تكسس وصار على الدكتور والاس ان يحمل عبء ادارة المستشفى فوق عبء الطبابة مدة سنة ١٩٣٩ .

جاء الدكتور بادو الى مستشفى ستوت ميموريال في وقت عسير . وبادارته الحكيمة وجهاده المتواصل رفعه الى مستواه الناجح واسبغ عليه ثوب الكفاءة والصيت الحسن . والآن يُعتبر زميله الشاب اللامع من أشهر الجراحين في جنوبي الصين . وبفضله صار الذين كانوا يدعون من في المستشفى « الشياطين الاجانب » ينظرون باحترام واعجاب الى تلك المؤسسة المسيحية القائمة في وسطهم ، ويدعونها « حياة الصين . »

كل الريبة التي خامرت رأي الدكتور بادو في مقدرة زميله الادارية تجلت الآن قبل مغادرته المستشفى . فانه لم يترك امراً مما يتعلق بالادارة حتى اعاره اهتمامه الخاص . فانه عين مديرين للاشغال ، وصرف

الممرضات اللواتي لم يحصلن بعد على شهاداتهن ، ونظم أعمال حاملات الشهادات منهن ، واستحصل على ما يكفي المستشفى عدة أشهر من الموارد اللازمة له . وحاول ان يضع حلاً لكل قضية ادارية قد تعرض لوالاس في مدة غيابه .

واخيراً ودع الدكتور بادو بيل والاس وركس راي ـ المرسلين المعمدانيين الوحيدين الباقيين في ووتشو ـ وسافر الى هونغ كونغ ومنها الى الولايات المتحدة الاميركية ثم الى تكسس بلده الحبيب .

رغم ان بيل لم يعرب عن شعوره فانه كان شاعراً ومعترفاً بالصعوبات التي سيواجهها في تلك السنة . فهو كان رئيس هيئة المستشفى ، وطبيباً مسؤولاً عن المرضى ليلاً ونهاراً ، ومسؤولاً عن عدد من العمليات يقصم الظهر وينهك القوى ، وفوق كل هذا يحمل الآن مسؤولية جديدة هي ادارة المستشفى .

لم يكن بيل قد تعلم ان يكلف غيره حمل قسم من المسؤولية . وقد ادهش موظفي المستشفى باهتمامه لكل شيء بنفسه . فاذا تعطل جهاز الاشعة او مفصلة باب او ما اشبه اصلح المعطل بنفسه بدل ان يستأجر من يصلحه . بالفعل كانت هذه هي الطريقة التي يفضلها للعمل . وقد استفاد المستشفى من مواهبه الميكانيكية . ورغم عدم التشديد على النظام وعدم الحذاقة في المساومة والاهمال في قبض المال استمر العمل بطريقة لا بأس بها .

مر الدكتور والاس مرة في المستشفى فسمع احدى الممرضات تجادل عاملين من عمال المستشفى بشأن نقل جثة من مكان الى آخر .

وكان العاملان يعتقدان ان هذا العمل من شأن الحمالين العاديين وليس من شأنهما ولذلك رفضا تلبية طلبها . وسمع الدكتور والاس الحوار فلما وصل اليهم لم يقل شيئاً بل حمل الجثة المطلوب نقلها وأخذها امام العاملين المدهوشين الى المكان الذي يجب ان يكون فيه . وكانت هذه المرة الاخيرة التي يرفض فيها عامل في المستشفى نقل جثة . وكانوا يقولون : « اذا كان الدكتور العظيم لا يأنف من عمل كهذا فذلك دليل على أن أي عمل لا يحط من قدرنا . » ان تواضع الدكتور بيل وانسانيته بثا روح الشهامة والتضحية فسار الصينيون على خطاه ونجح المستشفى .

تعب بيل في تحمّل مسؤولياته تلك السنة ١٩٤٠ . ولكن شخصاً مجهولاً كتب الى الدكتور مادري في رتشموند وقال ان بيل يرزح جسدياً وعقلياً تحت اعباء مسؤولياته في ووتشو . قد يكون الكاتب من الذين سافروا في تلك المنطقة وقد انتبه للحمل الثقيل الذي يحمله ذلك الدكتور النحيف البنية ، او انه شخص رأى الاعمال تجري دون رقابة شديدة فظن ما ظن وكتب ما كتب ، او ان الكاتب اراد شيئاً وفهم من كلامه غير ما اراد ــ هذه اسئلة لم يعرف جوابها الصحيح . ولكن على كل حال فــان الدكتور مادري اهتم للامر وابرق للدكتور بادو ــ الذي كان في فلوريدا يعظ عن اعمال المعمدانيين في الصين ــ وطلب منه ان يتحرى الحقيقة ويستعد للرجوع الى الصين باسرع وقت ممكن .

وبعد اسبوعين استلم الدكتور بادو من والاس اطول رسالة كتبها له وفيها :

« كل شيء يسير بهدوء في ووتشو . واني ارجو ان تستلم كتابي هذا

وأنت ترتب امتعتك للرجوع الى هنــا ، لاننا بحاجة اليك . انا سيىء الادارة في الناحيتين العملية والماليــة . واني أخشى ان لا تعجبك قائمة الادوية التي طلبتها . ولكن من الصعب معرفة ما يلزم لسنة تالية . ان القائمة التي تراهــا تتضمن مقادير الادوية الرئيسية التي استعملناها في سنتنا الحاليــة . ويستحسن ان تجلب معك كفوفاً من الكوتشوك ، واكياساً للمياه الحارة ، وشراشف . وبناء على بعض اسئلتك اقول انني لم اكن في كل حياتي أحسن وأسعد مما انا الآن . »

واستلم رسالتين اخريين احداهما من موظف في مكتب المستشفى والثانية من المرسل ركس راي وكلاهما تؤكدان ان الدكتور والاس يقوم باعباء مسؤولياته أحسن قيام ، وانه مفلح في كل ناحيــة ، وان فرحه قائم على اساس خدمة حاجات الناس واتمام العمل الذي يعتقد انه دعي له وأعد له نفسه بجهاده المتواصل . فكلما اشتدت الحاجة الى خدمته ازداد فرحه بتضحيته في سبيل قضائها . ومع انه كان يشعر بالتعب من خدمته المتواصلة في الصين ، وخاصة بعد تحمل المسؤوليات الاضافية هذه السنة ، لم يتغير في جوهره .

لما رجع الدكتور بادو الى ووتشو في تموز ١٩٤٠ سره ان يرى المستشفى ناجحاً في جميع النواحي. وفي ما عدا مشكلة الحاجة الى المواد الغذائية وبعض اللوازم الاخرى التي يصعب الحصول عليهــا بسبب الحصار الياباني ، كان المستشفى منارة قوية ثابتة في وسط بحر الاحداث الهائج . وهذا ما اكد للدكتور بادو ان المدير الشاب قام باعباء الادارة أحسن قيام .

والآن جاء دور بيل والاس بالذهاب الى الولايات المتحدة الاميركية . وكان الموظفون وهيئة المستشفى يكرهون ان يفارقهم وهم باشد الحاجة اليه . ولكنهم تأكدوا انه سيصرف سنته هناك في درس ما جدّ في الجراحة وانه سيعود اليهم بما يعود على المستشفى باعظم فائدة .

وبعد ذهابه كتب عــدد من رفاقه الى مجلس الادارة يثنون على مقدرته وصبره وحسن جهاده مما دل على نوع التجربة الاختبارية التي مر بها وكان فيها ناجحاً . وقد جاء في تلك الرسائل :

« مهما قلت لا أفي عمل الدكتور والاس حقــه من التقدير . ان الكلام يقصّر عن ذلك . »

« للدكتور والاس مستقبل باهر في الصين . وستغمر شهرته البلاد باكملها . تلك الشهرة التي لا يمكن الحصول على مثلها في اميركا . »

« يصح ان يقــال عنه « بيل الصامت » لانه يتكلم قليلاً ويفعل كثيراً . والكلام يذهب مع الهواء ويضمحل ، اما الاعمال فخالدة . ان عمل يسوع على الصليب هو الذي خلص العالم . »

« ان ما عمله الدكتور والاس في خلال تجربته الاولى في خدمة الصين سيظل يعطي ثماره على مدار السنين . »

« للدكتور والاس كطبيب ميزة لا أعرف مثلها في أي طبيب ممن اعرفهم . وهي المطلب الرئيسي من كل طبيب . انه كان ينكب على عمله بكل ما فيه من معرفة وحزم وجهد ولو بدا له ان لا أمل في شفاء المريض . »

« اذا اردت ان تعرف أين هو فاطلبه عند أشد المرضى خطراً ، لانه هناك يكون . »

لم يدر والاس بكل هــذا الثناء والاطراء الذي سبقه لانه كان لا يزال في طريق عودته . ان زرقة مياه الباسفيكي وهدوء ليالي السفر في البحر حولت تفكير والاس من البلاد التي تبناها الى ارض وطنه الام . فاخذ يفتكر بنوكسفيل ، واصدقائه فيها ، وبتلال تنسي . وكان يتوقع سنة درس ، وتجديد صداقاته بشوق عظيم . ان مدة تجريبه في عمله قد مرت وأمست في طيات الماضي . ولقد قدر قيمتها ووصفها باختصار في ما يلي :

« عندما اعود الى وطني لا أعرف أين أنا بالنسبة لمهنتي . ولو انني كنت في اميركا لكان في استطاعتي أن أذهب الى طبيب أعرف مني وأسأله عن كيفية اجراء بعض العمليات ولكنني كنت الجراح الوحيد هناك ... لا ، أنا لا أعرف أين أنا بالنسبة لمهنتي ، ومع ذلك ففي استطاعتي أن اقول انني أعرف الآن السيد يسوع المسيح أحسن مما كنت أعرفه منذ خمس سنوات . »

٨

سَن سَيْف المقْدِرَة

من شباك القطار المندفع هادراً نحو الشرق لاح جانب من البلاد المحبوبة . جبال وصحراء واودية وسهول واحراج لاحت كأنها صور متحركة . فاستقبل بيل رؤيتها كما يستقبل كل مهاجر رؤية ارض وطنه بعد غياب طويل .

ونظر الى ثيابه فوجد انها تختلف عن زي ثياب من حوله في القطار . واقنعته الاحاديث القليلة مع المسافرين معه بانه يحتاج الى تنظيم لغته ، لأن تعابير الناس الدارجة قد تبدلت نوعاً ما . وعندما سمع بعضهم يغنون اغنية عامية مألوفة ضحك بصوت عال مسموع . لقد كان المشهد غريباً ومألوفاً في الوقت نفسه . ثم عاد الى التحدث مع من حوله :

« اذن انت أحد المبشرين في الصين . انا اسمع ان الحالة صعبة هناك . »

« في بعض الاحيان . ولكن الصينيين قد عرفوا امورهم وهم متمسكون بشؤونهم الخاصة الآن . »

« انا اعتقد ان المانيا هي وحدها مشكلتنا ومشكلة العالم في كل

حال . اما هؤلاء اليابانيون فليسوا سوى تجار . نفايات الحديد . ويجب ان لا نشغل بهم بالنا . »

تذكر بيل حوادث كانتون ولكنه تبسم دون ان يجيب ، لانه لم يرَ فائدة من اقناع محدثه بانه مخطىء في اعتقاده .

كادت الاسابيع الثلاثة الاخيرة ان تنسي بيل ما مر عليه في الصين من صور ، وتغلب التفكير بالحاضر على افكاره الماضية . وجرّب ان يستعيد ذكريات ووتشو والمستشفى وصور بادو والدكتور لانغ والممرضة لوك ، ولكن كل هذه الذكريات والصور اختفت وراء المشاهد الحديثة : هونغ كونغ ، شنغهاي ، ما خامره من شعور لما كان بين اليابانيين دون حاجة للهرب من رصاصتهم ، هنولولو ، سان فرنسيسكو ، ذكريات مرت كلها في فكره بسرعة خاطفة تفوق سرعة القطار المندفع فوق خطوطه الحديدية . ان عين عقله كانت تنظر الى نوكسفيل وبرودواي والبيت القديم ، و راعوث لن و سد . واصبحت هذه الصور واضحة جلية بعد ان كانت باهتة اللون ومجلببة بوشاح النسيان في السنوات التي قضاها في الصين .

كان بيل غارقاً بين ذكريات الماضي وافكار الحاضر عندما سأله احد الجالسين الى جانبه وهما يتناولان طعام الغداء : « ما الذي يجعل طبيباً مثلك يصرف حياته في مكان كالصين ؟ لا تخطىء فهم قصدي ، اني أكبر عملك وأجلّك لاجله . ولكني متعجب من عظم تضحيتك ولا اعرف السبب الذي يحملك عليها . »

فتبسم بيل واجاب : « اظن ان الاسباب ترجع الى وجهة النظر

التي يفكر بها كل شخص ، ولكن السبب الذي قادني الى الصين بسيط جداً وهو انني لمـــا فكرت في تقرير مستقبل حياتي اقتنعت بان الله يريدني أن اكون طبيباً مرسلاً . وهذا الاقتناع اوصلني الى الصين ، ولانني كنت مسروراً بعملي هناك سارجع اليها . » ولما امتدح الرجل اريحيته وتضحيته واظهر اعجابه بشهامته قال وقد ضايقه هذا الاطراء : «سارجع الى الصين ليس لاني بطل ـ وانا بالحقيقة جبان ـ بل سارجع لان الصين هي الموضع الذي يجب أن أكون فيه . »

فسكت السائل الذي كان من رجال الاعمال الناجحين وغرق في بحر افكاره الخاصـة . ثم بعد قليل نظر الى المرسل الصريح والصادق النظر وقال : « لا ادري اذا كنت أنا قد خسرت شيئاً في هذه الناحية . »

في هـذه اللحظة صاح مدير القطار : « نوكسفيل . نوكسفيل . » ولم يكن بيل بحاجـــة الى من ينبهه ويدله على محطة نوكسفيل لأنه منذ ساعتين كان عالماً ان القطار يسير في الجانب الشرقي من تنسي . وكان قلبه يرقص فرحاً لكل مشهد من مشاهد التحسين والتقدم وكان يستعرف الجديد ويتذكر القديم .

انه الآن في وطنه . وها راعوث لن و سد ستاكل يستقبلانه على المحطة ، فيتكلمون ويفرحون باجتماعهم معاً .

وفي طريقهم الى البيت طلب بيل ان يمرا به حول نوكسفيل ليرى ما طرأ من التغيير على المدينة التي ربي فيهـــا . فرأى سيارات ادهشته ـ مع انه كان يرافق أدوار تبدلها في المجلات ـ لكنها كانت هنا براقة المظهر لمّاعة الورق .

ومروا بقرب البيت القديم على زاوية برودواي وسلفر ووقفوا في الشارع . فتطلع بيل ، وتقاطرت الذكريات في خاطره . وكم ود لو انه يرى المرضى ينزلون الى المدخل عنـــد اسفل السلم ، أو انه يرى اباه الطبيب بقامته النحيفة وفي يده قطعة من الحلوى لولد صغير والساعة الطبية مدلاة من حول عنقه على صدره . كان حنينه الى ذلك الماضي شديداً ، وجالت في خاطره ذكرى السنوات الخمس التي انقضت من يوم سفره الى الصين حتى هذه الساعة .

بنى صهر بيل بيتاً جديداً في شمالي نوكسفيل واصبح هذا البيت مقر عنوانه الدائم. وقد أحب بيل هذا البيت وما حوله من الاشجار الكبيرة والمروج الخضراء الواسعة القليلة الانحدار ، وكان يجد هنـــاك مكاناً للاستراحة ومجتمعاً لزواره . في ذلك المساء اجتمعوا تحت الاشجار وتحدثوا .

في بادىء الامر اكثرت راعوث لن و سد الاسئلة على بيل ، وقبل ان يجيبهما عليها اخذا يخبرانه عما حدث في غيابه . لقد حول بيل مجرى الحديث بذكاء ولباقة عن نفسه .

وكان جميع من يعرفونه يرغبون في رؤيته . وقـــد دعاه اصدقاؤه وانسباؤه الى ولائم متعددة ، وكان الجميع يرغبون في ان يسمعوا منه عن الصين والحرب فيهـــا ولكنهم كانوا دائماً ينتهون بالتحدث عن انفسهم وما عملوه في خلال السنوات الخمس التي قضاها في الصين .

لم يكن شيء يضايقه ويؤلمه مثل محاولة جره الى التكلم في الكنائس واماكن اخرى . وقد صرح بانه يفضل اختبار غارة جوية يابانية على

ذلك . انه ادرك ان الناس ارادوا منه ان يروي لهم اختباراته بصورة دراماتيكية لكنه استصعب حتى ذكر الحقائق الاساسية .

ان الدم والدمار والجوع والآلام في الصين كانت كلها بعيدة عنه ، وهو لا يحب ان يعيش بين احداث الماضي . لقد كان يذكر حاجات الصين في صلواته اليومية ولكنه انصرف عنها في الوقت الحاضر .

القى بيل خطابين ، الاول منهما على جماعة من السيدات . وقد رأته راعوث لن من شباك المطبخ وهو يستعد له فكان يتمشى ذهاباً واياباً في المرجة الخضراء ، وكان مرة بعد اخرى يستند الى شجرة هنـــا او شجرة هناك وعلامات التعب والارتباك بادية على وجهه . وقد كان هو أعلم الناس بان الله عندما وزع مواهب الخطابة لم يحسب حسابه . ولذلك كان يتنصل من القاء المحاضرات واعداد الخطب . وفي الكنيسة كان يلجأ الى المحادثات الشخصيـــة فيبتسم ويحمل الذين يحادثهم على التكلم اكثر الوقت .

في اثناء اجازته السنوية حاول ان يجدد نشاط حياته الاجتماعية التي اضنكتها السنوات التي قضاها في الصين . وعرف اصدقاؤه هناك انه لا يرفض فكرة الزواج ولو لم تكن فكرة الزواج السريع هي التي عاد بها الى وطنه . ففي خلال اسبوع قابل فتيات كثيرات من اللواتي يملن الى الاحاديث والاكل واللهو وكان يسلي نفسه بمعاشرتهن .

وبدا للدكتور والاس ان وقت الاجازة وان يكن لتجديد النشاط فهو أيضاً فرصة يهبها الله لسن سيف مقدرته كجراح لان نيران الصين وبلاياها أحمت حد السيف . وقد عاد الى وطنه ليسنه .

كانت خطته في الاساس ان يدرس في اوربا في احدى المراكز الطبية المشهورة ، ولكن الحرب والاعتداءات النازية قضت على تلك الخطة وجعلته يسعى الى امنيته في جامعة بنسلفانيا حيث تقدم دروس عالية للاطباء المتخرجين . وكان وهو في الصين قد كلف سدني تسجيل اسمه . وفي اثناء درسه تبين له انه يستطيع ان يحضر دروساً في التصوير بالاشعة في جامعة هارفارد بعد انهاء دروسه في جامعة بنسلفانيا .

هـــذه هي الخطة التي بدأ بتنفيذها بعد رجوعه الى اميركا ببضعة ايام .

وفي اواخر آب استلم والاس برقية من مجلس الارساليات الخارجية في رتشموند يدعى فيها لحضور مؤتمر معمداني في « ريدجكراست ــ نورث كارولينا » ويقدم فيه شهادته . فقبل الدعوة .

وكان هذا المؤتمر سبباً لتعرفه بفتاة رأى فيها ما أعجبه . كانت تلك الفتاة موظفة في مكتب مجلس الارساليات الخارجيـــة ، وكانت تعرف الطبيب الشاب الذي صار حديث المجتمعات. عرفته اولاً عندما حضر الاجتماع قبل تعيينه وارساله الى الصين في السنة ١٩٣٥ . وقد كان آنئذ شاباً نحيفاً طويلاً ازرق العينين . وتساءل النـــاس حينئذ ــ وهي منهم ــ عما اذا كان سيتزوج الفتـــاة التي جلبها معه ام لا . وهي لا تدري لماذا فرحت عندما عرفت انه لم يتزوجها .

هذه المرة ليس معه أحد . فكان الاثنان يجلسان معاً في الاجتماعات، ويتمشيان معاً في اوقات فراغهما . وقد لاحظ زملاؤهما ذلك . وكانا يتحدثان عن الصين لان ابا الفتاة كان مرسلا فيها وهي ولدت هناك .

في الليلة التي قدم فيها شهادته جلست هي في مؤخر القاعة وشاركته في عنائه شاعرة بحراجة موقفه . وكم كانت تود ان يسكب ما يريد قوله في قالب روائي ، اما هو فقد جعل شهادته بسيطة التعبير مشتملة على حقائق اساسية ، وأشعر النـاس انهم يسمعون كلام رسول اختاره الرب ، رغم ان القليلين منهم يذكرونه كخطيب .

وفي آخر الاسبوع ودع بيل الفتاة قائلاً : « آمل ان اراك ثانية . » فاجابته : « يجب ان تزور رتشموند . هناك مركزنا » قالت هذا بدلال وبعينين مشعتين .

فاجاب بيـل : « انك على حق . يجب عليّ ان ازور المكتب المذكور . »

وشهد شهر ايلول انكباب والاس المتواصل على دروسه في جامعة بنسلفانيا فكان ناجحاً ، منسجماً مع محيطها الجديد ، وفرحا بالتمتع بجوها العلمي . وقد قضى معظم وقته في مطالعة السجلات الطبيـة التي امكنه التوصل اليها ، وفي مباحثة الاطبـاء المشهورين والاستفادة من خبرتهم الفنية . وكان كلما سمع محاضرة طبية او شاهد عمليـة جراحية يعود بافكاره الى الصين ، ويشكر الله على هـذه الفرصة التي اتاحها له للاستفادة ولجعل خدمة من يأتون اليه من المرضى أتم وأوفى .

وقبل عيد الميلاد بقليل استلم رسالة من الدكتور مادري السكرتير المنفذ لمجلس الارساليات الخارجية يدعوه فيها ليكون ضيفه في رتشموند مدة العطلة المدرسية . فكانت له هـذه الدعوة باب فرح غير منتظر لسببين : الاول ان الدكتور مادري يريد ان يسلمه الف دولار هدية من

النساء في تكساس اردن ان يساعدنه على تحمل اعباء نفقاته العلميـة . وكان بيل بحاجة الى المساعدة لانه صرف معظم ما كان قـد وفره في شركة من شركات ضمان الحياة . والسبب الثـاني لفرحه بهذه الدعوة هو انها اتاحت له فرصة لتجديد صداقته مع فتاة ريدجكراست .

لم يتهم الدكتور مادري زملاؤه بانه اراد ان يزوّج شخصين ، بل قالوا : « كان بامكانه ان يرسل الالف دولار لوالاس بدل ان يدعوه لاستلامها . »

زار الدكتور والاس عائلة الفتاة وتناول الطعام على مائدتهم بضع مرات . وكانوا يجتمعون ، بعد الاكل ، حول نار مشبوبة ويتحدثون عن الصين . فكان بيل يصغي الى احاديثهم عن البلاد التي اختارها ، ثم يعلق عليها التفاصيل ويصف ما استجدّ فيها .

لم يكن بيل يصرف الوقت كله مع العائلة مجتمعة بل كان هو والفتاة يتفقدان الاماكن التاريخية ويتنزهان معاً . وقبل ان يعود الى فيلادلفيا كانت المحبة قد نمت وترعرعت في قلبي الصديقين .

بعد هـذا صار على الدكتور بيل ان يقسم وقته على ثلاث نواح : ناحيـة رسائله المطردة الى صديقته في رتشموند ، تلك الرسائل التي كانت ترافقها افكاره وتزيده ميلاً الى صديقته مرة بعد مرة ؛ وناحية دروسه التي لم يكن باستطاعته ان يختصر الوقت الذي يصرفه في اعدادها دون ان يشعر بان الاختصار نوع من العصيان الروحي ؛ وناحية سوء التفاهم بين الولايات المتحدة الاميركية واليابان وهذا امر يشغل بال من

يود الرجوع الى الصين . فضلاً عن أن الازمة العالمية اضطرت « العم سام » لتجنيد اطباء كثيرين .

في تلك الاثنـــاء قرأ الدكتور بادو عن قانون تجنيد الاطباء في الولايات المتحدة الاميركية وعن الحاجـــة اليهم فكتب الى الدكتور مادري يسأله ان يتخذ كل الاجراءات لارجاع الدكتور والاس الى ووتشو في الصين . فاجابه الدكتور مادري مطمئناً :

« ان قانون ولايتنا ينص على انه اذا كانت الارساليـــة بحاجة الى مرسل ليشغل مركزاً معيناً في الصين او مركزاً انشيء حديثاً فان قانون التجنيد لا يطبق عليه . لذلك اعتقد ان ليس ثمة ما يمنع رجوع الدكتور بيل الى ووتشو متى انتهت مدة اجازته . »

انهى بيل اشغاله في فيلادلفيا في اواخر الربيع ، وبعد زيارة قصيرة لنوكسفيل ركب القطار الى بوسطن وهارفارد ليبدأ دروسه عن اشعة رونتجن . وقد زادته فرصة الدرس في هذا المركز الطبي الممتاز رغبة في الاستفادة من خبرة ذوي العقول الخلاقة . وتذكر نصيحة صديقه القديم ، الدكتور ديوي بيترز ، الذي قال له : « اتبع دائماً أفضل طرق المعالجات الطبية ــ » فشكر الفرصة التي اتاحت له ان يعود الى ووتشو بمعلومات جديدة وخبرة أتم .

وفي تموز ، بينما كان بيل في هارفرد استلم من راعوث لن وسدني رسالة تؤكد انهما سيوافيانه الى نيويورك لقضاء اسبوع العطلة هنـاك . فقبل ، بشرط ان يسمح له بدعوة صديقته من رتشموند . فقبلا وهما يظنان انه سيتخذها زوجة له . وأعجب سدني من تعلق قلب بيل بهذه

الفتاة الموظفة في مكتب ، في حين ان قلوب فتيات المرسلين في الشرق تحوم حوله .

وقضى الجماعة وقتاً سعيداً في نيويورك : حضروا الروايات التمثيلية المضحكة وضحكوا ، وشاهدوا المناظر التي يقصدها السياح وسروا بها . وفي محل يبيعون فيه البيتزا اضحكهم بيل بتقليده حركات صانع البيتزا .

ورغم رغبتهم في استغلال كل دقيقة من هذه الفرصة الممتعة انتهى وقتها . وفي صباح مغادرتهم نيويورك ارتأى بيـــل ان يرافقهم الى نيوجارزي ومن هنـــاك ينتقل في القطار الى بوسطن مبرراً رأيه بكرهه للازدحام الذي لا مفر منه في محطة نيويورك .

وكان بيل كلما وصلوا الى محطة يقترح أن يتقدموا الى المحطة التالية ، كأن يقول : هذه المحطة صغيرة . وفي المحطة التالية يقول : قد لا اجد هنا المجلة التي اريدها . ويقول في المحطة الثالثة انها ليست نظيفـــة كما ينبغي . وعلى هـذا المنوال وبهذه الاعذار كانوا ينتقلون من محطة الى أخرى كأنهم جاؤوا للتنزه . ولم يكن مقصد بيل التنزه انما صعب عليه ان يفارقوه . واخيراً فرغت جعبة اعذاره فركب القطار مرغماً .

لم يجر حديث الزواج بين بيل وفتاته فكانا صديقين كل واحد منهما يميل الى الآخر ويأنس بمعاشرته .

وانهى بيل دروسه في جامعة هارفارد وادرك ان الوقت قد حان ليرجع الى الصين . ولم يبق له سوى بضعـــة ايام يقضيها في نوكسفيل ومنها يذهب الى سان فرنسيسكو اذا سمح له جواز سفره . ولما وقف

في نيويورك ليركب قطـاراً آخر الى نوكسفيل خطر له ان مروره بطريق رتشموند لا يأخذ من وقته الا قليلاً . وبنـاء على ذلك رأى نفسه في القطار الذي يمر في رتشموند .

وفي محطة رتشموند الرئيسية تلفن الى صديقته فقيل له انها ذهبت في اليوم السابق مع والدتها لقضاء أيام عطلتهـا في القسم الغربي من الولاية . فدرس برنامج وقته ورأى انه اذا توقف في مدينة «رون أوك» واحتفظ بوقت يكفي لجمع امتعته في نوكسفيل لا يفوته موعد السفر . فتلفن مرة أخرى وتحرى عن محل اقامة الفتـاة وسألها ان تلاقيه الى محطة رون اوك .

وبعد بضع ساعات كانت صديقته تنقله في سيارتها بين جبـال بلوردج الى مقر اهلهـا الصيفي . وصرفا هناك ثلاثة أيام وهما يتحادثان فوق الطرق المتعرجـة ، ويتمتعان بجمال الممرات المكسوة بالزهور البديعة الالوان ، والدوالي المثمرة ، والاشجار النامية . صرفا قسماً من وقتهما في الكـلام . ومرة رأى بيل عظم ايل كبير فالتقطه وقال هـذا عظم ساق . وكان يحدث صديقته عن مستقبل جمعيات التبشير في الصين ويحرك العظم الذي بيـده كأنه يستعين بحركاته على حسن الاداء فضحكت وتعجبت من تلك الناحيـة التي لم تكن منتظرة من صديقها . ثم قال : « اتعرفين لماذا أخاف من الرجوع الى الصين ؟ أخاف ليس من اليابانيين ولا من امكانيـة امتداد الحرب حتى تعم مناطق الباسفيكي كلها بل لان الدكتور بادو امسى على وشك التقاعد واعتزال الخدمة ، ومجلس الارساليات الخارجية سيطلب مني ان ادير

اعمال المستشفى . هذا بالحقيقة ما يشغل بالي ويضايقني لانني لا احسن ادارة دكـان صغير على رصيف لبيع الليموناده فقط ، فكيف ادير مستشفى عظيماً ؟

« اني لاعجب كيف يجوز ان يطلب من طبيب ان يدير مؤسسة عظيمة كتلك المؤسسة ! الادارة لها رجـال موهوبون مثل الدكتور بادو ، وأكثر الاطباء مثلي ليس لهم موهبة الادارة . أنا احب أن اتبع افضل طرق المعالجات . اتعلمين ما يعني هذا القول ؟ انه يعني الاستعداد الدائم ، والاطلاع المستمر على كل ما يجدّ في عالم الطب من الادوية ، والاختبارات ، والاساليب الجديدة في الجراحة ، والابحاث المتواصلة في حقل مقاومة الامراض المستعصية . ولا حاجة بي الى قول ان الطبيب الذي يريد ان يتبع افضل طرق المعالجات يحتاج الى كل دقيقة من وقته ليراقب الفحوص التي تعطيهـا المختبرات ويدرس ويستقصي تاريخ المرض والمريض ثم يفحص ويعالج . وهكذا يكون قد اتبع افضل طرق المعالجات . »

رأت الفتـاة صديقها بحالة يندر ان يكون فيها فتبسمت بأدب واحتشام ولم تقل شيئاً . اما هو فتابع كلامه :

« كيف يستطيع الطبيب – أي طبيب – ان يتقن مهنته ويفيهـا حقها اذا كان عليه ان يهتم بتموين المستشفى ، وبالاجراءات الاحتراسية ، وبالاصلاحات الميكانيكية ، وبحفظ النظام ومراقبة الموظفين والعمال ، وبكل صغيرة وكبيرة في المستشفى ؟ ان مؤسسة مثل مستشفى ستوت ميموريال تحتاج الى مدير قدير يحصر اهتمامه في الادارة . »

وتوقف عن الكلام قليلاً ، ونظر الى وجه الفتاة ثم تابعا سيرهما بين اشجار الازدرخت المورقة واشجار الشوح الضخمة . وكانت التلال التي تفصل بينها وبين المكان المقصود تتلألأ فرحـــة بنور الشمس . ولكن بيل كان غافلاً عما حوله لا يفكر الا بما يقوله ، وكانت الفتـاة تصغي لحديثه تأدباً . فتابع حديثه :

« انا لست المسؤول عن سير اعمال مجلس الارساليات الخارجية ، ولكني اعتقد انك انت اقرب الناس اليهم ولذلك اخبرك واشرح لك حقيقة الامر الواقع . انا بحاجة الى توظيف علمانيين ليقوموا بالاعمال التي لا يحسن الرعاة القيام بها .

« لماذا لا نأتي برجال اعمال مسيحيين مدربين وواسعي الاختبار الى اماكن مثل ووتشو ؟ ان واحداً من امثال هؤلاء انفع من طبيب . قد يكون في قولي هذا اثم وخطية ، ولكن الحقيقة في ما اقوله .

« الارسالية هي تعاونية وانا كطبيب اسد ثغرة صغيرة فيهـــا ، والوعاظ يجب ان تلقى عليهم مسؤولية الوعظ وبناء الكنائس ، ولكننا نكلفهم القيام باعمال متنوعة ليست من دائرة اختصاصهم . »

ثم التفت الى صديقته وضحك من نفسه وقال : « متحمس جـداً أليس كذلك ؟ » فاجابت الفتـــاة : « انا احب ان اسمعك تعبر عن رأيك ولم اكن ادرك انك تهتم بهذه الامور لهذه الدرجة . لكنك على حق . ولست انا مدير مجلس الارساليات الخارجية ! »

« اخبري اولئك المدبرين امراً آخر ايضاً ، اكراماً لي ، أتفعلين ؟ تعرفت بطبيب ذكي في جامعة هارفارد ، هو من المعمدانيين الجنوبيين

ويحب ان يخدم في حقل الارساليات . وانا اعتقد ان مجلس ارساليتنا لن يقبل طلبه ، ولكن مجلساً آخر سيقبله . اذن لمـــاذا لا نقبل طلبه نحن ؟ »

ظلت الفتاة صامتة. فابتسم ابتسامة يمازجها شيء من الخبث والمزح وقال : « على كل حال ارجو ان لا يرسلوه الى مركزنا . »

ثم رمى بحركة خفيفـــة العظم من يده فتدحرج بعيداً في منحدر المرجة الخضراء ، وتدحرجت معه خطـــة الدكتور بيل والاس التي ارادها خطة اصلاحية تتحسن معها اعمال الارسالية وتنمو مشاريعها .

اما موضوع الزواج فلم يأت احد منهما على ذكره . ولكن بيل كان قد اخبر اخته بانه معجب بصديقته وانه يحبها وقال : « حقيقة يجب ان اتزوجها ولا ادري لماذا لا افعل . ولكن كما قلت قبلاً : كيف يجوز ان آخذ فتاة مثلها الى الصين في مثل الظروف الحاضرة ؟ ان هنـــاك حرباً . »

وهكذا كان .

وعندما ودعها في المحطة طلب منها ان تكتب له وقال انه سيزورها بعد بضع سنوات ، وركب في القطار .

وحالما غابت عنه مناظر فرجينيا ترك التفكير بما وراءه . لقد أتم دروسه ووسع معارفه واختباراته في عالم الطب وصار يدفق بقوة نشيطة تدفعه الى الامام ــ الى الصين .

٩

عصا القيادة

جلس الدكتور بادو ووضع يده على مفاتيح احرف الآلة الكاتبة وبدأ يحرك اصابعه بحدة ، لان من عادته ان ينفّس الهم عن قلبه بالمراسلة التي كانت تخفف عنه وطأة القلق والاضطراب . ثم توقف بغتة ، وتناول خارطة قديمة ممزقة الاطراف يعلوها الغبار واخذ يتبع عليها طريق رجوع زميله العائد من اميركا .

ابحر بيـل والاس من سان فرنسيسكو في ١٤ آب ووصل الى هونغ كونغ في الثالث من ايلول . واستلم الدكتور بادو خبراً بان بيل طار الى شيوكوان في السادس عشر من ايلول . ومن هناك بامكانه ان يصل الى لويتشو بسهولة . ولويتشو تبعد مسافة ثلاثة ايام فقط عن ووتشو . وقد مر ثلاثة عشر يوماً ولم يصل حتى الآن .

ثم أمر يـده على جبهته وأخذ يفكر في ما عسى ان تكون الموانع والاسباب التي أخرت وصول زميله. ضربت الطائرات اليابانية شيوكوان في الثامن عشر ولكن يمكن بيل ان يكون قد غادرها في ذاك الحين. فهل قطع اليابانيون الطريق بين شيوكوان ولويتشو وبيل لا يزال سائراً عليها ؟ هذه الفكرة زادت هواجسه فعاد الى اكمال رسالته :

« الدكتور والاس في مكان ما في الصين ولم يكتب لنا ولا أعلم احداً بتنقلاته . ونحن بحاجة ملحة اليه ... »

مرت اربعة ايام اخرى ، وبيل لم يصل ، ولكن وصلت كلمة تفيد انه خرج من شيوكوان سالماً .

في صباح السادس من تشرين الاول كان جميع افراد هيئة المستشفى يصلون في الكنيسة بحرارة من أجل سلامة وا اي سانغ . وفيما هم متجهون بكليتهم لمناجاة الله وطلب العون منه صرخت احـدى الممرضات قائلة : « لقد مات ! انا أعرف انه مات . » فزاد قولها الغم والكآبة المستوليين على المصلين .

في اليوم التالي وقف اميركي وسخ الثيـاب ، والهم والتعب باديان عليه . وقف امام العيادة المعمدانية . وحالما ذهب السائق الذي اوصله بعربته المخلعة وقف برهة ينقل نظره من العيـادة الى المستشفى الشامخ وراءه ومن المستشفى الى العيادة . وكانت نظراته كنظرات من لم يكن يأمل رؤية ما يراه . ثم حمل صرة مهلهلة وصعد السلم مسرعاً .

وما هي الا طرفة عين حتى تنـادى من في المستشفى صارخين : « عاد ، عاد ، وا اي سانغ رجع » . وبسرعة البرق عم الخبر المفرح كل ناحية من انحاء المستشفى وطبقاته الخمس .

وسمع الدكتور بادو الخبر فصلى صلاة الشكر بحرارة ، ثم اندفع مسرعاً ليحيي بيل ويلومه على اشغاله باله بعدم اخباره ، كتابة او برقياً، عن مكان وجوده وعن سبب تأخره. ولكنه لما رآه ورأى حوله اعضاء

المستشفى يضحكون ويبكون فرحاً نسي ما كان فيه من القلق وشارك الآخرين بالفرح والترحيب .

وفي الليلة نفسها ، وفيما هم يتناولون طعام العشاء قصّ بيل رواية سفرته الغريبة الكثيرة المخاطر . فالطائرات اليابانية كانت تشل الحركة على الطرقات خصوصاً طرق القطارات الحديدية . فكانت القطارات تسري في الليل فقط هذا اذا استطاعت ان تتحرك . وقد اضطر بيل ، في رجوعه الى ووتشو ، ان يسافر في القطار وفي السيارات واحياناً كان يمشي . وكان يضطر مراراً الى النزول في حفر مملوءة وحلاً وماء للتخلص من خطر الطائرات اليابانية التي تحمل اجنحتها الموت والدمار .

وظل القطار ، مرة ، يوماً كاملاً في نفق تحت الجبل تجنباً لخطر الطائرات التي كانت ترصده . ومرة ترك هو ورفاقه السيارة وهربوا للنجاة من شر جنود يابانيين توغلوا ضمن حدود الصين الحرة لسلب المارة ونهب المؤن والمأكولات .

كان يمكن ان تروى هذه القصص باسلوب مؤثر بطولي ولكن لم يفرغ بيل من سردها حتى سمع الحاضرين يضحكون ، لان مسز بادو فاجأتهم بقولها للدكتور والاس : « ظننا انك ستجلب معك شخصاً آخر من اميركا . فقد استلمنا رسائل سارة من اشخاص كانوا يرونك من وقت الى وقت . »

فاحمر وجه بيل وقال : « من يضمن سلامة فتاة يؤتى بها الى الصين في مثل هذا الوقت . وفضلاً عن ذلك من هي التي تقبل بي ؟»

ضحكت مسز بادو واجابته : « استطيع ان اسمي لك عدداً من اللواتي يقبلن لو انك تخفف سرعتك ليستطعن التمسك بك . »

وفي مدى ايام قليلة شعر بيل كأنه لم يغادر ووتشو ، وعاد الى عمله الروتيني، وألف العيش في الصين براحة . هنا وطنه وفي المستشفى بيته .

ولم يؤثر غيابه ، بشكل من الاشكال ، على شهرته كطبيب جراح . وقد بدأ بعد رجوعه في معركة مقاومة الآلام والامراض بغيرة وشجاعة . كان يبدأ عمله الجراحي في الساعة السادسة والنصف كل صباح ، ثم يتناول وهو ينتقل بين غرفة العمليات وغرف المرضى والمكتب فطوره المؤلف من قطعة خبز وكأس حليب . وهو دائماً مستعد لتلبية الطلبات الكثيرة ، وفي الليل يتفقد المرضى مراراً . وكان يسمح لمرضاه بما يطلبونه الا في حالات خاصة . هذا السهر الدائم والعطف الشديد جعل المرضى يحصلون على « افضل انواع المعالجات.»

في تلك الاثناء تجددت الهجمات اليابانية وكانت أشد ضراوة من ذي قبل . ثم حدث الهجوم على بارل هاربر .

فكر الاميركيون بتقوية قواعدهم في جزر الباسفيكي خصوصاً في الفيلبين ولكن اليابانيين باغتوهم في الوقت المناسب وانتصروا عليهم انتصارات مدهشة . فسقطت هونغ كونغ ومانيلا وسنغافوره امام زحف الجيش الياباني المنتصر .

كان لهذه الحوادث تأثير مباشر على ووتشو لانها قللت من عدد المنافذ التي كانت تصل الصين الحرة بسائر العالم . وكانت هونغ كونغ اقرب منفذ لووتشو والباب لسائر العالم ، وهونغ كونغ الآن في ايدي

اليابانيين . وكانت الهند الصينية على وشك السقوط . وطريق بورما كانت خطرة وقليلة الفائدة .

ونتج عن اقفال باب هونغ كونغ صعوبة الحصول على المؤن وحاجات المستشفى . ولكن لحسن الحظ كان المرسل المقدام ركس راي يستلذ المخاطرة في التغلب على الحصار الياباني لاجل تموين المستشفى بكل ما يلزمه . وكان ينجح في أكثر الاحيان .

وأثر التضخم المالي على مالية المرسلين . طلب مرة بيل من ركس راي ان يستحصل على حبوب « السلفا » باي ثمن . فاتاه بزجاجة فيها الف حبة دفع ثمنها ٣٢٥٠ دولاراً من نقد هونغ كونغ . ولما اراد ان يعتذر قال له بيل : « انس الثمن يا ركس . هذه الحبوب هي حياة لكثيرين وما قيمة المال بالنسبة الى الارواح ؟ »

عادت الغارات الجوية وعادت معها البلايا والمتاعب . وبينما كان المرسلون مرة في طريقهم الى الملجأ قالت احدى النساء لبيل : « لقد ضجرت من هذه الغارات ولا ادري ماذا افعل . » فتبسم والاس وقال لها : « سنعمل ما يريد الله عمله ، ولا نهتم بما تكون النتائج ما دمنا نعمل ارادة الله . »

ان مشاكل استمرار العمل الارسالي في الصين الحرة، بعد انقطاعها عن العالم الغربي ومصادر التموين ، صارت تزداد يوماً بعد يوم . فاراد مجلس الارساليات الخارجية ان يلطف حدتها بتسليم مسؤولياتها الى الدكتور روبرت بادو الذي يصبح ممثل المجلس في المنطقة كلها . وتحمل الدكتور بادو ايضاً مسؤولية مستشفى الارسالية في كوايلن .

وشعر الدكتور بادو حالاً انه ليس من السهل ان يحمل بطيختين بيد واحدة ، وأحب ان يترك مسؤولية مستشفى ووتشو للدكتور بيل وان ينقل مركز الادارة الى كوايلن .

فرفض الدكتور والاس قبول المسؤولية دون ان يذكر سبباً او يبدي عذراً . وهذا ما حير الدكتور بادو .

من الصعب جداً ان نجد رجلين تختلف طباعهما كاختلاف طباع بادو وبيل .

فبادو ولد ليكون مديراً ادارياً وقد أحاط بيل بعنايته ليفسح له مجال التفرغ للطبابة ورفع مستوى القسم الجراحي خاصة .

وبيل بدوره أحب عائلة بادو واعتبر الدكتور وزوجته كأبويه ، الا انه كان يستسهل الاتفاق مع مسز بادو التي كانت تلاحق مدبرة البيت لتهتم باصلاح ثيابه وحاجاته الشخصية ، ولا يستسهل الاتفاق مع الدكتور بادو نفسه . فكان الأفضل لهما ان يتعاملا على مستوى شعورهما المتبادل دون اللجوء الى أي بحث . فالبحث كان دائماً يجر الى عدم الاتفاق والكدر . وهذا ما حدث عندما طلب بادو ان يستلم بيل مسؤولية ادارة المستشفى إذ رفض بيل قبول طلب الدكتور بادو وفشل هذا من رفض بيل .

وازدادت المشكلة تعقيداً عندما انتقل ركس راي الى شيوتشو وطلب من بيل ان يستلم وظيفة امانة الصندوق فرفض بشدة . فشكاه بادو بتهمة عدم المساهمة في تحمل اعباء اعمال الارسالية العامة، وذكره

بانه في مثل هـذا الوقت الاستثنائي يجب عليـه أن يحمل مسؤوليات اضافية .

في خريف ١٩٤٣ ساءت صحة بيل ، الذي كان مثـال الصحة والعافيـة ، لان سناً من اسنانه عطبت وسممت جسمه . وساعد على انهاكه العمل المتواصل في المستشفى . فخاف الدكتور بادو ان يتفاقم الضرر وتراجع عن فكرة الانتقال الى كوايلن وظل يـدير الامور من ووتشو .

ولكن عندمـا سارت صحة بيل في طريق التحسن قرر الدكتور بادو ان ينقل مكتبه من المستشفى الى بيته . وفي ذات يوم ، بينما كان الدكتور بيل عائداً من غرفـة الجراحة رأى الدكتور بادو يراقب نقل اغراض مكتبه الى البيت فقال مدهوشاً : « ما هذا يا دكتور ؟ »

« من هذه الليلة سأقطع كل علاقة لي بهذا المستشفى وسادير اعمالي من مكتبي الذي ساجعل مركزه في بيتي . وانت يا دكتور والاس اما ان تدير هذا المستشفى وتحافظ عليه او تتركه ليخرب. انا الآن اتصرف كما يجب ان اتصرف . » قال بادو هذا وحمل رزمة من اوراقه ومشى .

بعـد دقائق أطل الدكتور بادو من نافذة مكتبه الجديد فرأى الدكتور بيل ماشياً في ممر المستشفى وعلى وجهه امارات الاهتمام الشديد. ولما دخل الغرفة قال : « لا اقبل ادارة المستشفى مـا دمت انت في الصين . »

دهش الدكتور بادو واحس ان في ما سمعه شيئاً جديداً لم ينتبه له من قبل ، فسأل :

« بيل ، اني لم افهم مقصـدك . أهو مبني على اساس اسباب لم نبحثها معاً ؟ اخبرني عن شعورك ولماذا تشعر كذلك . »

فقال بيل : « يصعب عليّ جداً ان اعبر عن شعوري بكلمات . وباختصار اقول اني اشعر ان هـذا المستشفى لك . انت بنيته وانت انقذته من ازمته المـالية وصرفت فيه زهرة حياتك . وكل من فيه يجلونك بهالة من الاكبـار والتكريم . ولذلك لا اعتقـد انه يجوز ابعادك عنه . »

فانقشعت الغشاوة عن عيني بادو وبدا له ما كان خافياً : ان بيل يظن ان مجلس الارساليات يريد ان يبعد بادو عن المستشفى الذي يرغب في البقاء فيه ليحمله مسؤوليات اخرى لا يريدها . فاذا رفض بيل تحمل مسؤولية ادارة المستشفى فان مجلس الارساليات يضطر لترك بادو في مركزه أي في المستشفى الذي يحبه . انه لاجل بادو يرفض ما يعرض عليـه .

واطرق بادو قليلاً ثم قال : « اني متأسف جداً لاني لم أفهم قصدك قبلاً . ان مجلس الارساليـات لا يقصد ارغامي على التخلي عن المستشفى ، وأنا أشعر انني خلقت للعمل الجديد الذي ارادني له المجلس وأرغب رغبة صادقة في حمل مسؤولياته . واستطيع بعد زوال الازمة الطارئة ان ارجع الى المستشفى الى ان يحين وقت تقاعدي واعتزالي العمل . فهل تقبل ادارة المستشفى اذا اقنعنا المجلس باضافة كلمة « موقت » على الاتفاق ؟

اشرق وجه بيل وقال : « بهذا الشرط اقبل وسأدبر امور المستشفى

بالوكالة كما كنت أفعل عندما كنت انت تصرف مدة اجازتك في اميركا . »

اخبر الدكتور بادو زوجته عما دار بينه وبين بيل من الاحاديث ، وبدا عليه التأثر العميق من شدة اخلاص بيل له حتى انه بكى .

استلم بيل ادارة المستشفى خائفاً . وبالرغم من اختباره السابق في السنة ١٩٣٩ صادف صعوبات كثيرة . فالحرب اليابانية عقدت الحالة واكثرت العراقيل وصارت الادارة تتطلب وقتاً اطول وصارت صعوباتها تزداد يوماً بعد يوم .

عندما يكون على بيل ان يختار أحد امرين ، احدهما اداري والآخر طبي كان بدون بحث أو تعب يختار قضاء الواجب الطبي وتلبية حاجة المريض . ولكن سهولة الاختيار لم تخفف المتاعب . ولذلك ، قبل ان تمر بضعة أشهر ، كتب الدكتور بادو الى سكرتير المجلس في رتشموند يقول : مسكين بيل ، انه ينتقل من ازمة الى ازمة ومن تعب الى تعب . وقد يكون من الضروري اسناد ادارة المستشفى الى شخص غير طبيب . »

ومن مشاكل المستشفى ان بعض الطالبات في مدرسة التمريض ، لاعتقادهن بان ادارة المستشفى ستقفل المدرسة وتسرحهن بسبب الازمة الحاضرة ، ذهبن الى حفلة ليلية راقصة . فاحدث عملهن ضجة في اوساط المبشرين المشتغلين في المستشفى . فقد اعتقد هؤلاء ان يد بادو التي كانت تضبط النظام قد ذهبت وذهبت الادارة الحازمة معها .

ان تصرفاً متطرفاً كتصرف الممرضات الطالبات كان يلاقي جزاءه

السريع في عهد الدكتور بادو . اما في عهد الدكتور بيل فقد مر وكأنه لم يحدث شيء . وهذا ما أذهل الجميع وحيرهم .

بعد هذه الحادثة ببضعة اسابيع استلم الدكتور بادو برقية من ووتشو تفيد ان خلافاً ذرّ بين ابناء الكنيسة وانه يجب عليه ان يحضر حالاً قبل ان يستفحل الامر ويصدع وحدة المعمدانيين الصينيين . فارسل الدكتور بادو البرقية الى الدكتور بيل بعد ان كتب عليها « هذه من ضمن مسؤولياتك . » وقال في نفسه ، على الدكتور بيل ان يغرق او يعوم .

كان هذا العبء ثقيلاً على بيل فانهم حملوه فوق ادارة المستشفى التي رضي بها مسؤولية منطقة ووتشو كلها . ليس هو الدكتور بادو ، ولا يستطيع ان يحمل حمله . فكلما عجل وافهم الناس انه ليس بادو كان ذلك أفضل له .

كانت هذه الفترة اصعب اوقات عمله مع الارسالية ولكنه ثبت عليها ، وعمل باسلوبه الاداري الخاص حتى استقرت له الزعامة القيادية واستتب الهدوء في كل المنطقة بشكل لم تعرفه قبلا وكان ذلك في مطلع السنة ١٩٤٤ .

حدث ذلك التبدل النفسي اولاً في وسط الاطباء والممرضات وامتد الى سائر موظفي المستشفى ومن هؤلاء الى المبشرين الذين كانوا دائماً يحترمون الدكتور والاس وقد اصبحوا الآن يحترمونه كقائد حكيم وصاحب رأي صائب .

كان اسلوب بيل في الادارة مستمداً من مثاله الخاص وتكريسه

نفسه لخدمة ارادة الله فاحتاج ، لاثبات قــدرته الادارية ، الى وقت اطول من الوقت الذي كان يحتاج اليه لو انه اتبع اسلوب استعمال سلطة وظيفته الادارية .

باكراً في سنة ١٩٤٤ حصلت في المستشفى حركة تبشيرية نجحت أكثر من اي حركة مماثلة سبقتها خلال سني الحرب . واخــذ اعضاء الكنيسة في ووتشو التي خــدمها بيل كشماس يدركون انه ليس طبيباً ماهراً فحسب بل عضواً مكرساً وواحداً منهم . ونتيجة لذلك اخذوا يتحملون مسؤولية أكثر من ذي قبل وكان ذلك بنجاح . وكانوا قبلاً يتركون تقرير الامور للمرسل الاقدم عهداً .

ان رداء ايليــا قد هبط على الدكتور بيل ، الذي رفض مسؤولية الادارة اولاً ، وبفضل القوة التي استمدهــا من السيد يسوع المسيح اثبت كفاءته وانه رجل الساعة .

ومن ثمار المسؤوليات التي القيت على كــاهل بيل اشتراكه اكثر فأكثر في المشاريع الاجتماعية . وقد كان قبلاً يحيل كل أمر يخرج عن نطاق خدمته الطبية الى الدكتور بادو . امــا الآن فهو عضو عامل في الـ « روتاري كلب » ، يزور بيوت العائلات في ووتشو ويؤاكلهم ، ويحضر الاجتماعات الاهلية ويشترك في الشؤون العامة مستشاراً لشيوخ المدينــة . هذا هو بيل والاس الجديد الذي لا تقل فائـدة نصائحه واحكامه عن فائدة عملياته الطبية الجراحية .

ووسّع كثيراً دائرة معارفه واصدقائه بين المرسلين الآخرين العاملين في المنطقة . فارتفع مركز الاتحاد الارسالي المسيحي على تلة شبه الجزيرة

الواقعة بين النهر الغربي ونهر فو . وكان رئيس هذا الاتحاد الدكتور وليم نيوبرن ، يدعو الدكتور والاس الى الاجتماعات وتنــاول طعام الغداء بصفة انه المرسل المعمداني الوحيد الباقي في منطقة ووتشو .

كان بيل في صباح كل احد يحضر الخدمة الدينية في الكنيسة ، ثم يتفقد المرضى في المستشفى ، ثم يذهب لزيارة اصدقائه على التلة حاملاً دجاجة قد اشتراها في ووتشو .

الارسالية الكاثوليكية المعروفــة هناك باسم « مارينول » كانت تعتمد في معالجة مرضاها على مستشفى ستوت ميموريال ولكن لم يكن بين المرسلين الكاثوليك والمعمدانيين التعارف الاخوي . وقد ادهش المرسلين الكاثوليك ان بيل رفض ان يتقاضى اجرة معالجة مرضاهم . وذهب كل الحاحهم عليه عبثاً . وزاد انه كان يزور مرضاهم في بيوتهم بعد خروجهم من المستشفى او عندما يدعى لزيارة مريض ما .

هذا مــا جعل بيل عضواً مفيداً في كل ارسالية . ورغم الفوارق اللاهوتيــة شعر انهم اخوة في المسيح الذي في حضرته تبــدو كل الفوارق تافهة .

هذا هو الرجل الذي اعده الله وهيأه لانجاز مهمة تفوق التصديق .

١٠

عمود نار في الليل

كان بيل يسمع ، كل يوم ، بواسطة الراديو اخبار تقدم اليابانيين ، ويضع علامات لتقدمهم على خارطة قديمة للصين .

بدأ اليابانيون هجومهم العام في اواخر ربيع ١٩٤٤ بكل ما لهم من قوة لستر طيف الفشل الذي بدأ يتراءى لهم في جنوبي الباسفيكي . ورغم تفوق القوى الجوية الاميركية على قوتهم الجوية في الصين ورغم نجاح اعدائهم في بورما ورغم استنزاف مواردهم ظلت جيوشهم تهدد الصين تهديداً جدياً .

ومن متابعة العلامات المرسومة على الخارطة تبين للدكتور بيل ان سير اليابانيين من مرفأ نهر اليانغتزي وواديه الذي يدور حول هانكاو قد شكل فك كلابة ينوون اطباقها على مقاطعة هونان الجائعة . وبعد القضاء على الجيش الصيني المؤلف من ثلاث مئـة الف جندي داروا جنوباً نحو هانغيانغ المركز الرئيسي لتفرع خطوط القطـار الحديدي . ونتيجة هذه الخطة العسكرية السائرة بنجاح تعني ان ووتشو ستنفصل حتماً عن الصين الحرة اذا لم يوقفوا حالاً .

بعد اسبوعين ظهر لبيل ان حسابه كان دون جدوى لان اليابانيين

بـدأوا يزحفون رأساً من كانتون الى ووتشو . وكان معظم الجيش الصيني قد نقل الى الشمال للدفاع المستميت عن القواعد الجوية الاميركية التي يهددها الزحف الياباني هنـاك . والفرق الصينية التي بقيت لصد اليابانيين الزاحفين من جهة الشرق لم يكن لها أمل الا بعرقلة الزحف وتخفيف سرعته فقط . وبما ان الدكتور بيل كـان المرسل المعمداني الوحيد الباقي في ووتشو ، وهو وحده يحمل مسؤولية المستشفى ومـا حققته الارسالية هناك ، كان عليه ان يختار احد أمرين : البقاء والوقوع في ايدي المحتلين اليابانيين او اخلاء المستشفى ومغادرة ووتشو حالاً . فصلى وسأل الله ان يعطيه الحكمة ليحسن الاختيار .

وفي كوايلن كان الدكتور بادو ، ممثل مجلس الارساليات الخارجية ، قـد ادرك خطر الزحف الياباني ، وحسب عادته ابرق الى الدكتور م. تيرون رانكن ، الذي خلف الدكتور مادري في وظيفة السكرتيرية التنفيذية ، ونصح بترحيل المرسلين من تلك المنطقة الصينية . وفي ٢١ حزيران ابرق الدكتور رانكن الى بادو يحضه على ترحيـل المرسلين جميعهم الى اميركا في اول فرصة تتيسر لهم فيها وسائل النقل . والذين لا يوفقون الى وسيلة نقل يجب ان يذهبوا الى غربي الصين حالاً . اذن الدكتور والاس يجب ان يترك ووتشو .

عندمـا استلم الدكتور والاس أوامر الدكتور بادو شعر بعظم المسؤولية الملقـاة على كاهله . وكانت ووتشو ملجأ للفارين من وجه الزحف الياباني منـذ ابتدائه من كانتون . والمستشفى كان غاصاً بمن فيه ، وموظفوه يخدمون باجتهاد دون توقف . وفي كل يوم تقريبـاً

كانت الطائرات اليابانية تمطر بقنابلها المدينة حتى اصبحت فيها الحرائق والدخان والنار والمساكن المهدمة من المشاهد اليومية المألوفة .

ان مغادرة المستشفى في تلك الحالة تعني الهرب في وقت يكون الناس فيه في امس الحاجة . ولكن البقاء ...؟ ماذا يعني البقاء ؟ كان بيل قد اختبر ما يعنيه الاحتلال الياباني عندما كان في كانتون . وفضلاً عن ذلك لا يستطيع تحمل مسؤولية ما يصيب نساء الموظفين ، ومسؤولية ما ينهب من معدات المستشفى التي لا تستغني عنها البلاد المنكوبة . فاذا بقي الى آخر الوقت كيف يستطيع ان يهرب بمن معـــه ، وبالآلات وعدة المستشفى .

دعا بيل هيئة المستشفى واوضح لهم الحالة كما يراها بكل صراحة ولم يخف عنهم صورة الخطر المحدق بهم . واوضح لهم كذلك الواجب الحيوي، واجب الخدمة الانسانية المطالبين بها في ذلك الوقت العصيب. فقرروا بالاجماع ان مستشفى ستوت ميموريال يجب ان لا يغيب عن المعركة ، وانهم يرغبون في البقاء معه حتى وصول اليابانيين انفسهم اذا كان هو نفسه يشعر ان في البقاء خدمة للغاية التي دعاهم الله لتنفيذها .

عندئذ كتب بيـــل الى الدكتور بادو انه هو ومن معه في المستشفى سيبقون حيث هم في الوقت الحاضر .

هذا التصرف أقلق الدكتور بادو ولكنه كان يعرف فتاه ، فلم يقل له شيئاً بل ابرق الى الدكتور رانكن يخبره بالخطة التي اتخذها لتسفير المرسلين واخيراً قال : « أنا اعتقد ان الدكتور والاس سيبقى الى ان

يحتل اليابانيون المدينة وليس في استطاعتي ان أقول او أفعل شيئاً يؤثر على رأيه او على تصرفه . »

لم تكن مشاكل بيـــل محصورة في سيل المرضى والجرحى المتدفق باستمرار على المستشفى بل كان منها ان ليس عنـــده مديرة تدرب الممرضات المتمرنات وهـذا أمر حيوي بالنسبة الى الخدمة الصحيحة المثمرة . وكان الدكتور بادو قبل سفره الى كوايلن قد كتب مراراً الى مجلس الارساليات طالباً مرسلة ممرضة . ولما استلم بيل مسؤولية ادارة المستشفى كرر الطلب . وكان كلما سمع ان ممرضة ستترك محلها بسبب الحرب يكتب اليها حالاً ، وفي الغالب كان ينسى ان يرسل نسخة من رسائله تلك الى مجلس الارساليات في اميركا . وسمع مرة ان ممرضة في الولايات المتحدة ترغب في الخدمة في الصين فكتب اليها رأساً وحثها على الحضور باسرع ما يمكنها .

واخيراً استجيبت صلاته. والممرضة المرسلة « لوسي ريت » ـــ التي خدمت عشرين سنة في مقاطعة شانتونغ في شمالي الصين وهربت قبل الاحتلال اليـــاباني سنة ١٩٤٠ ـــ تطوعت للخدمة في ووتشو . وكان مجلس الارساليات يعرف اهليتها فقبل بتعيينها في ووتشو رغم انها لا تحسن اللغة الكانتونية بل تتكلم باللهجة المندرينية .

رقص قلب بيل فرحاً عندما بلغه انها غادرت اميركا الى ووتشو ولكنها ظلت ، بسبب الحرب العالمية ، ثمانيـة أشهر حتى وصلت الى الهند وليس الى الصين . وطارت الى كوايتشو في طائرة حربيـــة ولم

تستطع الانتقال منها لان تقدم اليابانيين قطع الطريق عليها . فاقامت في مكان خال للارسالية مع بعض المرسلين المنقطعين هناك .

في هذه الاثناء كان قنصل اميركا يكرر اوامره لبيل ليغادروا المستشفى . واخيراً جمع بيل كل الموظفين وشرح لهم الحالة ثم سألهم : ماذا يجب ان نعمل ؟ نبقى ! سمع سكان ووتشو بهذا القرار فقالوا : « كل الاجانب تركوا المدينة اما وا اي سانغ فانه لا يزال فيها والمستشفى سيبقى وسيواصل عمله . وبما ان المستشفى سيبقى مفتوحاً فلا خطر على المدينة . » هكذا كانوا يقولون بعضهم لبعض .

في خريف ١٩٤٣ جيء الى المستشفى بحاكم مقاطعة كوانغسي السيد ه. وانغ وقد كان اقرب الى الموت منه الى الحياة بسبب انفجار الزائدة الدودية والتهاب البريتون . وكان قد عالجه اطباء المستشفى الحكومي وقطعوا الرجاء من شفائه . ثم خوفاً من أن يموت بين ايديهم اشاروا بارساله الى الدكتور والاس . فاجرى له الدكتور والاس عملية جراحية حاذقة وسهر عليه بنفسه . وبعد معركة طبية شديدة سلم الحاكم وحاول ان يكافىء والاس بهدايا نفيسة . وحاول ان يكرمه باقامة حفلة رسمية له في ووتشو فرفض أيضاً وقال ان المكافأة الكبرى قد حصل عليها عندما رأى الحاكم سليماً معافى . فاعجب الحاكم بشهامة الطبيب النحيف البنية ولم ينس معروفه .

في تموز تأكد سكان ووتشو ان الجيش الياباني الزاحف سيطوق مدينتهم قريباً فبدأوا باخلائها . وعرف الحاكم بالامر فارسل ثلاث سفن نهرية كبيرة وزورقاً آلياً الى مرفأ ووتشو لتكون تحت تصرف

الدكتور الذي انقذ حياته . ولكن الدكتور بيل رفض اخلاء المستشفى . فامر الحاكم السفن بان تنتظره حتى وصول اليابانيين .

وكان بيل يتألم لرؤية موظفي المستشفى يجهدون انفسهم في الخدمة الى حد الاعياء والمرض ، بينما القاذفات اليابانية لا تتوقف عن ملاحقتهم . فهل هو مصيب في بقائه هناك أم لا ؟ وكان يقلّب هذا الامر من جميع وجوهه فلا يهتدي الى حل يطمئن اليه ، فابرق الى الدكتور رانكن يطلب منه النصح والارشاد . وكان محظوظاً في ارسال برقيته لانها آخر برقية خرجت من ووتشو . فرد الدكتور رانكن ، مقدراً الصراع النفسي الذي يعانيه الطبيب المرسل ، قائلاً : « لا نقدر ان ننصحك بشيء بل نؤازرك بالصلاة والثقة سواء بقيت او نزحت . »

في الايام الاولى من ايلول ازدادت الحوادث ، واشتدت الازمة ، وكثر اللاجئون ، وأمست المدينة كلها في حالة سيئة من جراء الغارات الجوية . واخيراً انضم سكانها الى سيل الهاربين من مدنهم نحو القسم الغربي . ولم يبق في المستشفى سوى المرضى والجرحى من الجيش ، وكان يؤتى بعدد منهم كل يوم . ولكن في العاشر من ايلول انقطعوا عن المجيء وصار الجنود يمرون في ووتشو ولا يبقون فيها . وهذا دليل ، لا يجهله أحد ، على ان الجنود المارين هم فلول الجيش الصيني المنهزم .

اما بيل فبقي في مكانه ، وظلت هيئة المستشفى تتقيد برأيه وتتبعه دون بحث أو تفكير ... لا يمكن ان يترك المستشفى وفيه كثير من المرضى . لذلك اخذوا يعالجون ويصرفون من يمكن صرفه . وفي الثاني

عشر من ايلول لم يبق فيه الا عدد قليل . وفي اليوم نفسه استلم بيل علماً من رؤساء المدينة يفيد انهم سيخلونها اضطراراً .

عندئذ قرر مغادرة المدينة ، لانهم اذا بقوا فيها قضي على عملهم الى الأبد . اما اذا غادروها وتبعوا المنكوبين المتألمين الى القسم الغربي ، فان خدمتهم تستمر وتخفف آلام الكثيرين .

في ليلة الثاني عشر من ايلول جمع بيل هيئة المستشفى وشرح لهم خطته باختصار : يأخذون الآلات والعدة وكل ما في المستشفى من ادوات وادوية ولوازم، ويسافرون غرباً في السفن التي لا تزال تنتظرهم في النهر الى مكان امين . « هناك نقيم مستشفانا ونواصل خدمتنا . مستشفى ستوت ميموريال لن يموت انما ينتقل من موضع الى موضع آخر . ان المستشفى ليس البناء بل هو الخدمة التي يقوم بها من فيه كما ان الكنيسة هي الشعب وليست الحجارة والطين . فحيثما نكن وتكن روح الخدمة باسم السيد يسوع المسيح يكن المستشفى . »

قال بيل هذا ببساطة ، ولكن الرجاء الجديد والحلم الجميل الذي راود مخيلة الطبيب المبشر حركا مشاعر السامعين فاندفعوا بحماسة لتحقيق فكرته . في غضون اربعة ايام فككوا الآلات ورتبوا الادوات ، ونقلوا كل ما ارادوا نقله الى السفن النهرية . فعلوا كل هذا تحت ستار الليل لان الطائرات اليابانية كانت تطارد وتلاحق الوطنيين المتراجعين .

فكك بيل نفسه الآلات الضخمة فادهش مساعديه بمقدرته على تحويل الآلات الثقيلة الى قطع يسهل نقلها . وكان هو بنفسه يشرف على اعمال النقل الى السفن والترتيب فيها ويترك الاعمال الثانوية لسواه.

في ليلة السادس عشر من ايلول فتش المستشفى التفتيش الاخير ثم خرج الجميع وساروا في الشوارع المقفرة حاملين بعض امتعتهم الباقية . وكانوا مرة بعد مرة يختلسون النظر الى الوراء لرؤية البناء الشاهق الجبار الذي يروي خبر جهادهم ويردد صدى اعمالهم وقد صار الآن يعني عندهم ما كان يعنيه عند عموم سكان ووتشو الذين دعوه « حياة الصين » .

تأثر بيل وهو يمر في الشوارع بمرأى الدمار والحرائق التي كانت بقاياها تلقي انواراً عليه وعلى رفاقه . وكان قد ألح على الجميع كي ينزعوا عنهم ثياب المستشفى البيضاء ويرتدوا الموسلين الاسود الذي يلبسه أكثر الصينيين في الصيف ، لان الثياب البيضاء تجعلهم هدفاً اوضح ، وتعرضهم أكثر من الثياب السوداء لرصاص الطائرات اليابانية .

صعد بيل وموظفو المستشفى الى السفن وبدأ الزورق يجرها على مهل ويخرج بها الى عرض مياه النهر الغربي المتلألئة تحت اشعة ضوء قمر ايلول . انهم يسيرون الآن في البرية .

في صباح اليوم التالي كانوا قد ابتعدوا عن ووتشو فاختبأوا تحت قصب الخيزران . وسفرة الليلة التالية اوصلتهم الى مصب نهر صغير يؤدي الى « يونغ ين » الامينة . ظن بيل ان يونغ ين مدينة امينة لانها صغيرة ومنحرفة عن طريق اليابانيين واعتقد ان الذين يلجأون اليها كثيرون . ولانه لا يعرف مدى امن طريقهم النهرية قرر اللجوء الى يونغ ين وامر سائق الزورق بالاتجاه نحوها .

كان السير نحو المدينـــة صعباً وبطيئاً لان قوة مجرى النهر الصغير كانت اشد مما ظنوا . وفي اليوم الثاني هدرت الطائرات اليابانية فوق رؤوسهم فاضطروا للهرب من السفن وتفريغها ، والاختباء في الكهوف على حافة النهر .

في المساء بينما كان بيل يراقب اعـــادة الاغراض الى السفن سمع صوتاً يناديه :

« وا اي سانغ ! وا اي سانغ ! تعال الى هنا حالا ! »

كان المنادي الدكتور وانغ ، والى جانبه على الطريق المتعرجـــة الممتدة على جانب النهر رجل صيني يحمل بعض الامتعة على ظهره .

قال الدكتور بيل للدكتور وانغ ، الذي كان يناديه ، بعد ان اقترب منه : ما بك يا دكتور وانغ ؟

فقال الدكتور وانغ : هـــذا الرجل آت الآن من يونغ ين . وهو يقول ان اليابانيين احتلوا المدينة وهم آتون بطريق هذا النهر نحو « تن ين » وهو يقول ايضاً انهم لا يبعدون وراءه أكثر من عشرة اميال . »

فقال بيل : « ان العناية الالهية اوقفتنا عند هذه الكهوف . والآن فلنذهب حالاً . بعـــد بضع دقائق صارت الاغراض كلها في السفن وتحركوا باتجاه « تن ين » والنهر الغربي .

في رجوعهم كانوا مسرعين لان مجرى النهر كان يساعد المحركات . ولكن بيل ظل قلقاً تتلاعب في رأسه الهواجس . فاليابانيون وراءه وعلى بعـــد عشرة اميال فقط ، وربما ساروا رأساً الى تن ين وسبقوه اليها ، او كانوا امـــامه في الطريق . وكان في الصباح قد سمع بواسطة

جهاز الراديو الذي معه ان ووتشو قد سقطت بايدي اليابانيين ، ولم يذكر تاريخ سقوطهـــا . والمعروف عنده ان اليابانيين لن يقفوا في ووتشو بل سيواصلون تقدمهم . وزوارقهم الحربية لا بد ان تكون في طريقهـــا في النهر . ومع ذلك قال في نفسه ــ وهو ينظر الى الامام محاولاً ان يخترق بنظره ظلام الليل ــ ليس لنا طريق آخر ، وليس من حسن الرأي ان نعرقل طريق املنا بالنجاة اذا واصلنا سيرنا حتى نصل الى التلال . ثم صلى صامتاً وانتظر تبلج الفجر .

بعد الفجر بقليل وصلوا الى تن ين ولحسن حظهم لم يكن اليابانيون قد وصلوا اليها . لم يتوقفوا هناك بل واصلوا السير غرباً الى كواي بانغ حيث كان عليهم ان يختاروا احدى طريقين : طريق لويتشو التي كانت مركزاً لجيش اميركي صيني او طريق ناننغ الواقعة نحو الغرب .

جمع بيل الاطبـــاء الذين معه ونشر امامهم الخريطة وشرح لهم ما يتوقعه من الحوادث الممكنة . فهم اذا ساروا الى لويتشو يضطرون للوصول اليها الى استعمال وسائل النقل البرية . اما نانغ فانهم يصلون اليها بالوسائل النهرية القليلة التكاليف . ولكن اليابانيين يزحفون من الهند الصينية نحو تلك الجهة ولا أحد من المجتمعين يعرف مدى تقدمهم. فاعترض احدهم قائلاً : «وكذلك لا يعرف أحد منا كم يبعد اليابانيون عن لويتشو . » بناء على هذا القول قرر بيل الذهاب الى نانغ ، لانهم على الاقـــل يستطيعون ان يبقوا كل ما معهم في السفن فلا يتأخرون بانزالها وتحميلها ولا يضطرون لخطر تركها والهرب بدونها .

وبقي على بيل ان يحل مشكلة اخرى ، وهي ان الزورق الآلي الذي

كان يجر السفن النهرية سيؤخذ منه ليشترك في المعركة من أجل تلك المنطقة . لذلك اصطحب بيل طبيباً يحسن التكلم باللهجة المندرينية ونزل الى كواي بانغ ليرى أحد اصحاب الزوارق الآلية الجرارة ويستأجر زورقاً .

استأجر زورقاً بعد ان رضي ان يدفع مبلغاً باهظاً لان الناس كلهم كانوا يستغلون الظروف لاجتناء اكبر فائدة يمكنهم الحصول عليها .

وكذلك كانت تزداد يوماً بعـد يوم صعوبة الحصول على المواد الغذائية . وما عدا المواد الغذائية التي جلبها بيل ورفاقه معهم ، وكانت تنقص كل يوم ، كانوا يأكلون الرز الذي يشترونه باسعار فاحشة .

كانت الايام التالية ايام ضيق وعذاب . فمجرى النهر كان قوياً لم يستطع الزورق ان يجر السفن ضده ، واضطر الركاب ان يجروا معه لاخراج السفن من طريق التيار . وبعد تعب ساعات عادوا الى السفن منهوكي القوى واصيب اكثر من نصفهم بالاسهال والحمى .

وصار بيل يطوف بينهم يعالجهم ويؤاسيهم ويشجعهم . وعندما لا يبقى لديه أي عمل لفائدتهم يطرح فرشاً بينهم وينام نوماً هو في أشد الحاجة اليه .

كان الصينيون معودين على رؤية الاجانب –حتى المبشرين منهم– يعيشون مبتعدين عنهم لا يخالطونهم في الاقامة ولا في المأكل . اما بيل والاس ، وا اي سانغ ، فانه لا يتبع هـذه الخطة بل ينام بينهم ويشتغل مثلهم ويترك لهم طعامه . لذلك قال احدهم : « انه بالفعل يعيش بيننا حياة المسيح . »

وصلت القافلة الغريبة وعلى رأسها بيل الى نانغ فنصحتها السلطة العسكرية هناك بالذهاب الى بلدة بوزه لان نانغ غير امينة . وكانت السلطة العسكرية تعتقد ان اليابانيين بعـد احتلال نانغ سيكتفون بما احرزوه ، واذا وصل بيل وجماعته الى بوزه فسيكون بامكانهم مواصلة عملهم الطبي هناك .

كان الاتفاق مع صاحب الزورق الآلي الذي يجر السفن ان يوصلهم الى نانغ فقط فتركهم هناك ولم يكن لدى بيل وسيلة للسفر . ففكر في امره ثم ارتأى ان يصنع للسفن أشرعة . وهكذا ابتدأ بيل ورجـاله بصنع الاشرعـة للسفن باذلين كل ما لهم من جهد جسدي وعقلي ، واستعانوا بحبال الجر والصواري فركّبوا الاشرعة في اماكنها وساروا بقوة الرياح نحو بوزه . فكانوا اذا اسعفهم الحظ – اي اذا كان مهب الريح باتجاه بوزه – يسيرون على متن سفنهم ببطء ، وفي الاوقـات الاخرى كانوا يسيرون قرب حافة النهر . وكانوا في بعض الاحيان يضطرون لاستعمال قواهم الجسدية لجر السفن وعدم التوقف خوفاً من الموت المحتم الزاحف وراءهم .

في أول يوم سافروا فيه من نانغ جلس بيل على صندوق في مؤخر السفينة الاخيرة وكتب رسالة للدكتور رانكن يعلمه فيها انهم تمكنوا من الهرب قال :

« تركنـا وونشو في ١٦ ايلول قبل وصول اليابانيين بقليل . انا والموظفون والممرضات ، وعددنا خمسة وخمسون شخصاً ، جمعنا آلات وادوات المستشفى وهربنـا بها . نأمل ان نركز عملنا في نانغ ولكن

السلطات العسكرية هناك نصحتنا بالذهاب الى بوزه – وهي بلدة في جنوبي كوانغتزي – وسنكون فيها بعد عشرة ايام اذا نجونا .

« مصاريف السفر باهظة وسنواجه شتاء صعباً ولكننا مصممون على ابقاء مستشفى ستوت ميموريال حياً . هذا رجاء كل واحد منا . وقد كان اطباؤه وموظفوه وممرضاته امناء في خدمته وخدمة مبادئه في كل المراحل التي مرت . والجميع يرغبون في ان يأتي اليوم السعيد الذي فيه نعود الى ووتشو .

« لا ادري اذا كنا نبقى الى ذلك اليوم ام لا ولكننا نسعى ونحاول. فاذا قصرنا او فشلنا نموت مطمئنين لاننا نكون قد متنا ونحن نحاول . دم سالماً . » بيل والاس .

عندما انهى بيل الرسالة رأى الدكتور وانغ الى جانبه وكلاهما لاحظا نور الشفق يستسلم لعتمة الليل .

منذ تركا ناننغ كانا يستدلان على موقعها بعمود من الدخان يتصاعد منها . انها سياسة حرق كل ما قد ينفع العدو . وقد ظهر هذا العمود الاسود لهما في ظلام الليل عموداً من نار احمر اللون . فقال المسيحي الصيني الذي الى جانبه : « نحن الآن كبني اسرائيل في البرية ، لنا عمود من الغمام نهاراً وعمود من نار في الليل . »

١١

المستشفى في البرية

بدأت طائرة النقل الاميركية هبوطها وسط الغيوم الكثيفة التي كانت تستر المكان المقصود . فالصقت لوسي ريت وجهها بزجاج النافذة لترى بلدة بوزه لأول مرة . وتبادر الى ذهنها ان الطيار قد اخطأ في حسابه عندما دار وسط الغيوم واكتحلت عيونها بمرأى ارض جنوبي الصين الشديدة الاخضرار والاحمرار الضارب الى الدكنة . ثم في لحظات ظهرت لها بنايات بوزه ومطارها ، فازدادت املاً بالاجتماع بهيئة مستشفى ستوت ميموريال اللاجئين هناك .

شكرت سائق الطيارة الاميركي الذي جاء بها من البلدة التي كانت فيها تنتظر بفارغ الصبر انتهاء الهجوم الياباني . وحملت ثيابها وسارت نحو كوخ ظنته مركز المطار واستعلمت عن جماعة المستشفى فقال لها أحد الجنود الاميركيين : « ان جماعة المستشفى الصيني الذي يرأسه مرسل اميركي قد ذهبوا منذ وقت قريب . مكثوا هنا اسبوعاً وعالجوا كثيرين من المدنيين والعسكريين وذهبوا . »

فسألته لوسي : « هل رجعوا الى ناننغ عندما استعيدت من اليابانيين ؟ »

فاجاب الجندي : « نعم . فاني سمعت الدكتور والاس يقول ان الوقت قد حان للتوجه نحو وونتشو ، لاعتقاده ان النصر يسير في طريقه. وقد رأيتهم يعملون بدأب واجتهاد أكثر من اي جماعة وقع نظري عليها » ثم قال : « لقد عالجني الدكتور والاس واراحني من الدود الحلمي ، وكان لطيفاً جداً . انه معمداني وانا معمداني ايضاً من دلاس – تكسس . »

فقالت لوسي : « على كل حال يجب ان الحق الدكتور والاس وجماعة المستشفى . »

قال الجندي : « اذا كان لا بد من ذلك فيمكنك – اذا اسعفك الحظ – ان تدبري امرك وتذهبي مع سائقي الشاحنات الواقفة في الطرف الآخر من هذا المكان ، فقد سمعت انهم ذاهبون الى ناننغ . »

وبعد وقت قصير كانت الممرضة الحازمة في شاحنة تحمل مواد الاسعاف للجنود وتسير نحو ناننغ .

سألت لوسي السائق : « هل ذهبت قبلاً الى ناننغ ؟ »

– « نعم ، مدام . انا مركزي هناك في ناننغ . ولكن اذا كنت لا تعرفين تلك البلدة فاني انصحك بعدم تصورها أكثر من بلدة صغيرة اضرت بها الحرب ومسختها . »

– « لا يهمني ذلك . بل يهمني ان تدلني على مقر الدكتور والاس اذا كنت تعرف اين هو . »

– « الدكتور والاس ؟ لا اظن اني اعرفه. ففي ناننغ ألوف جاؤوا اليها من جميع انحاء الصين . »

وخشيت الممرضة ان يكون الدكتور والاس ورفاقه قد تركوا ناننغ ايضاً ، فاكتأبت وكاد ان يستولي عليها اليأس من اللحاق بهم . انها قررت ان تشتغل معهم في خريف ١٩٤٣ ، والآن هي في تموز ١٩٤٥ .

وبينما هي مطرقة والهواجس تجول في رأسها اذ نظر اليها السائق وقال : « اسمعي . هل تسألين عن شاب مرسل اميركي طويل نحيف البنية ومعه حوالي خمسين شخصاً صينياً ؟ »

« هذا هو بعينه ، الدكتور بيل والاس . » قالت هذا وبدت على محياها ابتسامة اعرض من ارض الصين الواسعة .

« انا اوصلتك اليه رأساً . في بادىء الامر لم اعرف اسمه ، ولكن كل الناس يعرفون عنه الشيء الكثير . فهو وجماعته حديث الناس في هذه المقاطعة . وقد سمعت انهم اتوا من مكان قصي بطريق النهر الغربي وفي وسط الجيش الياباني . ويعتقد الصينيون ان الملائكة كانت تحرسهم . »

– « انهم من وونتشو وأنا منذ اكثر من سنة احاول أن الحق بهم لاشتغل معهم . »

– « ستكونين معهم قريباً ، ثقي بما اقوله ولا تيأسي . »

وبعد قليل من الوقت كانت لوسي التعبة ، بما عليها من غبار السفر، تجدّ مسرعة لتجد بيل والاس . ولما عرّفته بنفسها استقبلها بفرح وترحاب . وأعجب العجائب ان الدكتور القليل الكلام ألقى خطاباً استغرق خمساً واربعين دقيقة !

اما المناسبة التي القي فيها هذا الخطاب فهي الاجتماع الذي عقدته هيئة المستشفى للترحيب بالممرضة التي وصلت بعد الانتظار الطويل .

ولم تفهم لوسي ريت التي تتكلم اللهجة المندرينية ما قاله بيل باللهجة الكانتونية والنبرة التنسية (نسبة الى تنسي) ، الا انها قرأت في وجوه السامعين فحوى الخطاب وفهمت مغزاه .

وبينما كان بيل يزن الفاظه ويختـــار كلماته وتعابيره كانت لوسي تستشف من مجمل ما يقوله ان الجماعـــة انصهروا في بوتقة المصاعب والبلايا وخرجوا منها عائلة مسيحية متماسكة مستعدة للتضحية في سبيل الخدمة الانسانية وخير البشرية وارضاء الله . وشعرت بالاعتزاز والفخر ان تنضم اليهم وتصبح عضواً في عائلتهم السعيدة ، كما يشعر الجندي عندما ينضم الى فرقة ذات تاريخ مجيد . وتمنت لو انها قاست ما قاسوه من متاعب وآلام حتى اصبحوا كما هم الآن قوة متحدة ومصدراً نقياً للخدمة لا تشوبه شائبة .

« وسنعود حالاً ، سنعود الى ووتشو . وسنعيد المستشفى الى ما كان عليه ، ليظل تاريخه متصل الحلقات مع مرور الحقب . واني مؤمن بان الله نجانا وابقانا لهذه المهمة . »

سمعت لوسي هـــذه الفقرة من خطاب بيل فعلمت انه يتكلم عن المستقبل وعلمت انه يريد ان يتمم ما قاله بمؤازرتهم . لم يكن الخطاب مما يستغوي السامعين ببلاغته بل بمعانيه ومراميه المفعمة بروح الاخلاص والتضحية . ولذلك ودت لو انها فهمته كلمة فكلمة .

وبعد ايام سمعت حكاية المغامرات التي خاضوها من ممرضة تتكلم

الانكليزية كانت تعيش واياها في غرفـــة واحدة . وعرفت تفاصيل القصة حتى وصولهم الى بوزه . ولكن لم تسمع بعد ذلك سوى اجزاء متقطعة منها .

فسألت لوسي محدثتها : « في أي موضع من بوزه سكنتم ؟ انا كنت هناك هذا الصباح ولم ار انها بلدة ذات شأن . »

فاجابتها الممرضة الصينية : « نعم لم تكن بوزه بلدة ذات شأن . ولكن الدكتور بيل قابل السلطات هنـــاك وطلب منهم مكاناً يقيم فيه مستشفى يخدم الجيش والشعب . فسمح لنا شيوخ البلدة باستعمال هيكل كونفوشي قديم ومدرسة مهجورة . والحقيقة ان الحاكم وانغ هو الذي سهل لنا الامر هـــذه المرة أيضاً كما سهل لنا أمر الفرار من ووتشو بوضع ثلاث سفن وزورق آلي تحت تصرفنا . وبقينا نكبر هذه الاريحية الى ان عرفنا بعد ذلك ان اهالي البلدة كانوا يعتقدون ان الهيكل البوذي والمدرسة تسكنهما ارواح شريرة ولا يجرؤ أحد على استعمالها والاستفادة منهما . وبعد ان اقمنا فيهما صرنا في نظرهم ابطالاً جبابرة ، وقالوا ان الدكتور والاس استطاع ان يطهر المكان من الشياطين التي كانت تحتله.

فضحكت لوسي وقالت : « هـــذا الزعم تحبذه الجمعية الطبية . فاحد افرادها له القدرة على طرد الارواح الشريرة واخراج الشياطين.»

« لا أعرف شيئاً عن هذا ، ولكنني أعرف اننا بقيادته حولنا ذلك المكان القذر الى مستشفى . ولا يمكن ان يعمل شيء وقتي أفضل من الذي عملناه . وقد أظهر الدكتور والاس ذكاء ومهارة قل نظيرهما . فقد كان يمد خطوط الكهرباء للانارة وللمحركات ، وأنابيب المـــاء

للشرب والغسل ، والقساطل للمجارير ، ويساعدنا في عمل ستائر من قصب الخيزران ، وفرش للنوم من القش ، ويركب من مواد كيماوية مادة لتنظيف ثيابنا الرسمية البيضاء . وكان يريد ان يرانا دائماً كما يجب ان تكون الممرضات في أفضل المستشفيات . »

وكانت لوسي تصغي باهتمام ولا تقول شيئاً . وواصلت الممرضة حديثها : « وانتشرت الملاريا الخبيثة في كل البلدة وانتشر معها الهواء الاصفر وامراض اخرى حتى ان أكثر من ثلاثة أرباع السكان اصبحوا مرضى ، ولم نكن نحن أحسن منهم حالاً . ونظراً لقلة الغذاء والمشقات التي تحملناها اصابنا مثل ما اصابهم من الضعف والاعياء . واصيبت احدى الممرضات بمرض عقلي نفساني من جراء حمى الملاريا الشديدة . أرأيت مريضاً من امثال هذه ؟ »

فهزت لوسي رأسها علامة الايجاب وتذكرت مريضاً كانت نوبات الحمى تفقده صوابه فيعربد عربدة السكارى .

وعادت الممرضة تقول : « لقد كانت مثل حيوان هائج . ولم يكن أحد غير الدكتور والاس قادراً على تهدئتها . وهو وحده كان ، بمثل رقى السحر ، يعيدها الى الهدوء . وظل بقربها مدة ثمان واربعين ساعة لم يفارقها الا بعد ان اطمأن وتأكد ان الازمة قد زالت .

« حتى تلك الساعة لم نكن قد فقدنا احداً ولكني بأسف أقول انه قبل ان نترك بوزه فقدنا الدكتور تشو كوان بوك . سمعنا ان اليابانيين يتجهون نحو بوزه ولم نخف حتى عرفنا ان الطيارات الاميركية اكتشفت جيشاً عدواً يتقدم نحو البلدة وقد مرّ قرب نانننغ وهو لا يبعد عنا اكثر

من عشرين ميلاً . فاضطربت قلوبنا واسقط في ايدينا واستسلمنا لما يأتي به القدر . ولكن الدكتور والاس شدد همتنا وأعاد الى نفوسنا الثقة فاندفعنا بنشاط وفككنا الآلات . وصرنا نفكر كيف ننقلها الى السفن . وفيما نحن نفكر ولا نهتدي جاء الدكتور والاس ومعه سيارة اسعاف لا أعلم من أين أتى بها .

« وفي هذه السيارة نقلنا كل ما كان عندنا الى السفن . وما كدنا نفرغ من ترتيبها ونهم بالسفر حتى اصيب الدكتور تشو كوان بوك بنزيف دموي شديد . كان الدكتور بوك مصاباً بالقرحة المعدية وكان الدكتور والاس يعالجه بما يتيسر من الادوية ولم يكن الغذاء المناسب متوفراً . لذلك عاوده النزيف واصبحت حياته في خطر مداهم . وفي الوقت نفسه كانت اصوات مدافع اليابانيين تقترب من البلدة .

« لم يسمح الدكتور والاس بنقل المريض وظل يعالجه في مكانه بالمعالجة الممكنة . لن انسى تلك الليلة وما عانيناه فيها . لم يكن مسموحاً لنا باستعمال الضوء خوفاً من اذى الطائرات اليابانية التي كانت قد اغارت على بوزه مرات عديدة . فجلسنا حول الهيكل صامتين نراقب الدكتور والاس ينحني بعطف فوق مريضه . وكثيرون منا احيوا تلك الليلة ساهرين . وكانت اصوات المدافع تقترب منا رويداً رويداً . وقبل الفجر حثنا الدكتور والاس على ان نتركه مع المريض ونسافر ، فكان هذه المرة دورنا بالرفض والاصرار . رفضنا وبقينا معه ، ولكن لن ننسى مروءته وسنحفظ له الشكر ما حيينا .

« مات الدكتور بوك بعد بزوغ الفجر بقليل رغم كل ما بذله

الدكتور والاس من جهود . سامحنا يا الله ولا توقفنــا في مثل ذلك الموقف الذي كنا فيه . لقد صلينا فعلاً وطلبنا ان يشفى الدكتور بوك فنسافر حالاً والا فليمت بسرعة . يا هول ما طلبنــا ! ولكنك لا تستطيعين تصور ما كان يساور افكارنا ونفوسنا من القلق عندما نسمع اصوات المدافع المقتربة منا فيختفي معها صوت انفاس مريض حياته في كفة ميزان القدر . »

قدرت لوسي ان تتصور هول الموقف ولكن شتان بين تصور هول البلية ومعاناتها بالفعل .

وتابعت الممرضة حديثها فقالت : « المرة الوحيدة التي لم يعجبني فيها رأي وا اي سانغ هي لما اراد ان يأتي بتابوت ليدفن المرحوم الدكتور بوك باحتفال مسيحي . كل المحلات كانت مقفلة ومعظم سكان المدينــة كانوا قد غادروها . وبعد التفتيش والتعب وجد الدكتور والاس والمبشر معه صاحب دكان باعه تابوتاً لم يقبل ان يسلمه اياه في مكان الميت . فاستلمه والاس قطعاً نقلناها نحن وضممناها بعضها الى بعض ووضعنا فيها جثة الدكتور بوك . وبعد الاحتفال الديني دفناه في قبر عند سفح تلة قريبة من الهيكل الكونفوشي .

« في ذلك الوقت كانت المدافع اقرب الينا من أي وقت . وقــد شاركت اصواتها اصوات الرعد واختلطت سحب دخانهــا بسحب غيوم السماء . وانهل المطر قبل ان نبدأ الخدمة فقال واحد منا : « يظهر ان السماء تشاركنا في حزننا وتبكي معنا . » قرأ الدكتور والاس فصلاً من انجيله الصغير وصلى . ثم دفنا ميتنا بأسف واسرعنا نحو النهر حيث

السفن . تلك الدقائق كانت أشد اوقاتنا حزناً ولكنها لم تكن أشدها تعباً وهولاً ومصاعب . »

رأت لوسي الدموع تتسابق على خدي الممرضة الشرقية وهي تمسحها بمنديلها . ثم رأتها تتجلد وتكمل حديثها :

« نشرنا القلاع وجررنا السفن وسرنا نحو قرية تدعى فوك لوك . فلما وصلنا اليها وجدناها في حالة تدمي القلوب . فاللاجئون منبثون في كل مكان، والجثث تملأ الشوارع وليس من يدفنها او ينقلها الى خارج القرية . وكان علينا ان نتجنب أذى الخنازير البرية التي كانت تنتاش تلك الجثث وتتغذى بها ، وكانت احياناً تهاجم الاحياء . وكان اكثر الناس أضعف من أن يقاوموها .

« تحرك جيش ياباني من الهند الصينيــة نحو جنوبي الصين محاولاً الاتصال بالجيش الياباني المحتل ناننغ . فاصبحنا بين الجيشين واضطررنا ان نخيم خارج فوك لوك . وكنا في كل يوم نذهب ونختبىء في المغاور القريبة منــا تجنباً لخطر القاذفات اليابانية الانقضاضية . وتلك المغاور كانت ملأى بالجثث البشرية المنتنــة ولا ازال حتى اليوم اشم رائحة نتانتها ورائحة الخوف فيها .

« تلك كانت اخطر ايامنــا . فكثيرون منا كانوا لشدة جوعهم يخاطرون ويخرجون طلباً للرزق حيث كان . ولكن الدكتور والاس كان يعيدهم لنبقى معاً ، وكان يشجعنا ويقودنا في الصلاة ويقسم الزاد الموجود علينا ، ويخرج كل يوم ليأتي بما يتيسر له منه .

« ورأيته مرة يعطي نصيبه من الرز لممرضة مصابة بحمى شديدة .

وكثيرون منا كانوا مصابين بالاسهال والحمى . ورأيته مرة اخرى وراء المطبخ يأكل حبوب الرز المحترق الذي يرمى لعدم صلاحه للأكل . ولما عرف اني رأيته اضطرب ليس من الخجل ـ لأن ذلك الرز لا يأكله احد منا مهما كان جائعاً ـ بل لانه لا يريد أن اعرف انه يجوع الى مثل ذلك الحد .

« لقد كان نحيفاً جداً يخشى عليه من ان تحمله الريح اذا هبت ، ومع ذلك كان اوفرنا صحة . وقد علمنا كيف نأكل عظام الطيور حيث نجدها لنأخذ منها الفيتامينات التي نحن بأشد الحاجة اليها . وأنا اعتقد ان اساليبه غير العادية خلصت حياة كثيرين منا في ذلك الوقت العصيب . لقد كان يحسن مراقبة كل واحد منا ويؤنسنا ويعتني بمرضانا ويعمل كل ما يستطيعه لراحتنا .

« لا اريد ان اجرح احساساتك يا مس ريت بل اريد أن اسهل عليك فهم ما اقصده ، فاعذريني اذا قلت اننا نحن الصينيين لم نتعود ان نرى الاميركيين والاوربيين يفعلون هكذا ويتصرفون مثل هذا التصرف . اننا نعرف ان المرسلين يحبوننا . ولكن ، هناك فرق بيننا وبينهم ، فهم يعيشون عيشتهم الخاصة ، ونحن نعيش عيشتنا . اما الدكتور والاس فلم يعلم بذلك الفرق بل كان واحداً منا واشترك معنا في حياتنا . »

فقالت لوسي : « الآن قد عرفت لماذا تحبونه كلكم ... ولكن كم كان طول المدة التي قضيتموها خارج بوزه قبل عودتكم اليها ؟ »

« في ذلك الحين لم نكن نفكر بالعودة الى بوزه ، لان اليابانيين

قتلوا عدداً من الاشخاص خارج فوك لوك في الاسبوع الذي وصلنا فيه اليها . وهربنا في الليل للنجاة بانفسنا تاركين معداتنا وامتعتنا حيث كانت . وقد اسعدنا الحظ باستعادتها فيما بعد .

« هذه المرة انتقلنا مشياً على الاقدام الى قرية صغيرة تدعى تونغ لينغ . وقد حزنت جداً عندما رأيت الدكتور والاس يسير محتذياً حذاء بالياً من نوع احذية التنس حشاه بالورق المقوى مكان النعل . وقد بلي هذا النعل من الورق المقوى عندما كان يجر السفن يوم خرجنا من نانتغ .

« في اليوم الثاني سقط الدكتور والاس ، على الطريق ، مغمياً عليه . فظننا انه اصيب بنوبة قلبية ، واركبناه على حصان كان قد اعطانا اياه احد الجنود الاميركيين وواصلنا سيرنا . عندما استعاد وعيه وعرف ما حدث أصر على النزول لتركب احدى الممرضات المريضة مكانه . وصلنا الى تونغ لينغ ومكثنا فيها اياماً لا اعرف كيف قضيناها . وما كان اعظم فرحنا عندما وصل عدد من الجنود الاميركيين واخبرونا ان بوزه قد استرجعت من اليابانيين . »

فسألت لوسي : « هل بقيتم كل هذه المدة تعيشون معاً دون افتراق ؟ »

فتبسمت الممرضة الصينية وقالت : « نعيش معاً ! نعم عشنا معاً ، ولم تكن أية جماعة او أية عائلة اسعد منا باجتماعنا . كنا كل يوم نصلي معاً بخشوع وايمان وطيد . كانت صلواتنا كثيرة ودموعنا غزيرة وكان عزاؤنا اننا كنا في كل يوم نطلب الله ونسأله حاجاتنا شاكرين .

« مرة واحدة فقط افترقنا فيها افتراقاً موقتاً عندما رجعنا الى بوزه وكان الدكتور والاس قد هيأ لنا الرجوع في سيارات شحن اميركية تنقلنا على دفعات . وقد تعجب الجنود من رؤيته هناك . وكم سُررنا ان نراه يتحدث مع اشخاص من بلاده الاولى فيضحك مسروراً ويضحكون .

« بعدما وصلنا جميعنا الى بوزه جلب الدكتور والاس المعدات والاغراض من المكان الذي تركناها فيه ، وبدأنا نشتغل في المستشفى الذي انشىء حسب فكرته ودعي المستشفى « الصيني – الاميركي » .

وقد تعاون على العمل فيه اطباؤنا واطباء الجيش الاميركي . »

فقالت لوسي : « وقد عالجتم فيه عدداً من الجنود الاميركيين . لقيت أنا احدهم في بوزه عولج فيه وتخلص من الدود الحلمي . »

« نعم عالجنا كثيرين مصابين بالقرحة والدود الحلمي والزحار والاسهال العادي والملاريا وحمى الرجع وغيرها . وبعد معركة ضارية مع فرقة عسكرية يابانية عالجنا الجرحى ايضاً . وفي ذلك الحين ماتت احدى ممرضاتنا دون ان نعرف سبب موتها ولكننا اسفنا عليها كأخت، وحزن عليها الدكتور والاس كأنها ابنته . »

ثم توقفت عن الكلام قليلا وقالت مبتسمة : « والحمد لله نحن هنا الآن . » فاجابتها لوسي : « نعم نحن هنا بنعمة الله وعونه . »

وفي اليوم الثاني طاف بها بيل والاس في جميع انحاء المستشفى واطلعها على الاعمال اليومية الروتينية ، وزارت معه المرضى . فأدهشها تعلقه بالمرضى وتعلقهم به والوفاق السائد بين الجميع – الصينيين

والاميركيين . ولاحظت ان الارتياح عام وان كل شخص يتكلم للطبيب عن نفسه وعن رغائبه . وشعرت ان هذا الارتياح النفسي جزء من العلاج الشافي .

كان في المستشفى مئة وخمسون سريراً اذا جاز لنا ان نسمي الحبال المشدودة والقش المحشو في الاكياس أسرة . وفي ذلك اليوم نفسه ساعدته في اجراء عملية جراحية فثبت لها ان هذا المستشفى لا يقل عن سواه رغم حالته البدائية .

في فصل الصيف خدم هذا المستشفى في ناننغ . وفي ١٤ آب استسلم اليابانيون ، ووقع امبراطورهم وثيقة الاستسلام دون قيد او شرط وبدأ جنوده ينسحبون من الصين .

كادت جماعة المستشفى ان لا تصدق الخبر وانهم سيعودون الى مقرهم الاول . وانقضى كل ذلك اليوم وهم في عيد آمالهم . وحمل الجنود الاميركيون الى المستشفى المآكل والهدايا . وتحول الحفاظ على النظام في اقسام المستشفى الى اوساط فرح ومسرة . وكان الدكتور والاس قبلة انظار الجميع ومحط رحال تفكيرهم – رغم تستره وانزوائه – لانه قاد جماعته وسط الاخطار الى الهدف المنشود كما قاد موسى الشعب في البرية .

في اليوم الثاني احتفلت القوات العسكرية بعيد النصر ودعت ممرضات مستشفى ستوت ميموريال للانشاد والاشتراك في افراح العيد . فدوت اصواتهن مرددة أناشيد الفرح والشكر . وكن يرتلن في حلقات متعددة فحدث في احدى الحلقات ما يحدث في كل الاجتماعات

التي يكثر فيها شرب الخمر . سكر الجنود وتعـدوا حدود الآداب فخافت لوسي ريت والممرضات الاخريات وذهبن الى الدكتور والاس يسألنه عما يجب ان يفعلن . فقـال لهن : « رتلن لهم ترانيم روحية » . ففعلن وعادت المياه الى مجاريها .

فمسّت الترانيم قلوب الجنود السكارى وحولتهم الى الناحيـة الاخرى من الحيـاة الفاضلة . فذكروا امهاتهم واخواتهم في الوطن وتذكروا آباءهم وايمانهم بالله وتسبيحهم له . وتحويل النـاس عن الطريق غير المشكورة الى طريق الشكر لله هو من صميم اعمال « المستشفى في البرية » .

والرب الذي هيأ لهم طريق الخروج ونجاهم من المصائب هو نفسه هيأ لهم طريق الرجوع الى ووتشو. فالضباط الاميركيون الذين عولجوا في المستشفى وعرفوا مقدار خدماته دبروا خطة لارجاع موظفيه الى حيث يشاؤون . فاستأجروا لهم سفينة عوامة بأجرة مخفضة جداً ظن بيل انهم اجبروا صاحب السفينة على القبول بها . وقدموا زورقاً آلياً لجر السفينة . وجنود الفرق الاميركية التي خدمها بيل ورفاقه بنوا قارباً جميلاً جعلوه مطبخاً وربطوه بالسفينة .

وفي صباح احد أيام ايلول الجميلة ابتدأ القسم الاخير من سفرتهم الغريبة فغص المرفأ بصفوف المدنيين الشاكرين والجنود المحيين . وكان المسافرون يلوحون لهم بايديهم مودعين . ودام هـذا المنظر الوداعي المؤثر حتى حملهم النهر الغربي الى بعيد وغابت عنهم نانتغ وراء الافق .

استغرقت سفرتهم اربعة ايام ولكنها كانت ملأى بالسرور والترانيم

والتأملات الانفرادية والرجاء المنشط ، بعكس الحالة التي كانوا فيها عندما هربوا من اخطار الموت والاسر منذ سنة فكانوا كمن يهرب من الدب ليقع في الجب ، ينتقلون من خوف الى خوف ومن خطر الى خطر . ولاحظت لوسي الدكتور والاس في اثناء السفرة يجلس جـانباً منهوك القوى من جراء ما اختبره . وفي اثناء رجوعهم الى ووتشو كان الجميع متهللين يغنون ويرتلون .

بعـد ظهر يوم السفرة الاخير كان جميع افراد هيئة المستشفى يتضاحكون ويشير بعضهم الى بعض نحو مناظر الافق المألوفة . وعندما اجتمعوا في المساء حول مناقل النـار التي تحفظ حرارة الطعام قرروا متفقين ان يرتلوا لووتشو .

وبعد قليل ظهرت انوار ووتشو وبانت لهم خطوط الجلد، والتلال، تحت النجوم التي شاهدتهم هاربين من الموت منذ سنة . عندئذ وقفوا ورتلوا بصوت مرتفع :

توجوه بتيجـان المجـد الكثير
فالحمل قـد جلس على عرشه
أصغوا فتسبيحة السماء قد أخفتت
كل موسيقى إلا موسيقـاه

استفيقـي يا نفسي ورنمي
ليسوع الذي مـات من اجلك
وحييه تحيـة ملك لا يضاهى
ولا يكون مثيل له الى الابد

والتفتت لوسي ريت فرأت الطبيب المبتسم يقترب منها وبيده رسالة ثم قال : « كتبت هذه الرسالة لاختي واظن انك ترغبين في الاطلاع عليها . » واعطاها الرسالة . فأخذتها وقرأتها . فكانت أخصر رسالة عرفتها :

اختي العزيزة :

وونشو

محبتي

بيل

١٢

العودة إلى وونتشو وإلى الوطن

كان بناء المستشفى لا يزال قوياً ثابتاً اما داخله والارض حوله فقد كانت بحالة زرية . فهذه الحالة ، وما اصاب المدينة من الدمار ، ونقص السكان الذين قضى الهواء الاصفر على معظمهم اذهلت بيـل ورفاقه واحزنتهم . ولكن سرهم ان الباقين من أهل المدينـة استقبلوهم بترحاب وفرح .

دار بيل ورفاقه الاطباء في المستشفى الذي تركوه نقياً نظيفاً . اما الآن فكل الادوات الصحية والانابيب قد سدت بالحجارة والاوساخ ، لان اليابانيين استعملوا الطبقة السفلى مربطاً لخيولهم . ولم يكن في البناء ماء ولا كهرباء ولا شبابيك ولا ابواب . وكل ما كان فيه من الاثاث قد تحطم . والقطع الرئيسية الضرورية كانت قد اقتلعت من اماكنها وطرحت اجزاؤها المحطمة على الارض ، وجزء من السقف كان قـد تكسر واصبح ركاماً على الارض .

بعد هذه الدورة الاستكشافية جمع بيل هيئـة المستشفى بكاملها . ورغم ان وجوههم كانت تنم عما فيهم من تعب واعياء اطلعهم على الاصلاحات الضرورية التي تنتظر جهودهم وقال : « الأفضل ان نبدأ بالاصلاح لان حولنا كثيرين هم بحاجة الى المستشفى . »

قال هـــذا ومشى صعداً على السلم وتبعوه واحداً أثر واحد وبعد قليل كان العمل الاصلاحي يسير بحماسة والمستشفى المحبوب يعود اليه جماله ورونقه .

اصلحوا ونظفوا المعدات التي كانت مغمورة بالاوساخ وصنعوا ستائر وابواباً وطلوا الجدران ودهنوهـــا . وبدا القسم الاول من المستشفى نظيفاً مطهراً في بضعة ايام ، كأنما تمّ ذلك باعجوبة . وركّب بيل مصفاة لاستقطار المياه التي يمازجها الملح لمعالجة المصابين بالكوليرا . وجهز مختبراً بدائياً ولكنه ذو منفعة ملحوظة . وصنع من براميل الكاز التي تركها اليابانيون صهاريج للمياه التي كانوا يغلونها ليلاً ونهاراً دون انقطاع . واستغل مواهبه ومعرفته الميكانيكية في صنع مولد كهربائي يدار باليد لانتاج الطاقة الكهربائية والضوء اللازمين للعمليات الجراحية. ومن الحوادث المروعة انه اخرج مرة جميع من في المستشفى لتعطيل ثلاث قنابل يابانية استقرت حيث كانت ولم تنفجر .

وفي كل يوم كان يشجع رفاقه ويحثهم على السرعة في انجاز اعمالهم لكي يستقبلوا اول مريض باسرع وقت ممكن . وكانوا يقبلون نصائحه واوامره بروح طيبة واخلاص ويبذلون اقصى ما يمكنهم من دقة لانجاز المهمة بسرعة . وبعـــد ذلك باسبوع اجتمع الاطباء والممرضات في الكنيسة لتكريس ذواتهم للمهمة المنوطة بهم ، ثم فتحوا الابواب : مستشفى ستوت ميموريال قد فتح ابوابه ثانية ، وبسط جناحي الرحمة ليظلل بها المرضى .

وفي الاسابيع الاولى بقي الدكتور بيل يدير ويهتم بالترميم والاصلاح

ولا يستقبل من المرضى غير الذين تستدعي حالتهم السرعة . فاعاد بناء المطبخ وكان بنفسه يبني الفرن . واستأجر عمالاً لاصلاح السقف الذي صدعته القنابل واسقطت قسماً منه . كان في كل اعماله ناجحاً الا ترميم السقف فانه سقط بعـــد اسبوع فقط . ولما رأى بيل ما حدث قال : « لا يمكن ان ينجح الانسان في كل اموره . » ثم باشر العمل مرة اخرى .

قلق كل من في المستشفى لشعورهم ان بيل يحمّل نفسه فوق طاقتها. فهو دائم الحركة دائم التفكير لا يأخذ قسطاً من الراحة لجسده او عقله . قالت لوسي ريت : « انه كالاسبرطيين لا يهتم بنفسه ، ينام على فراش من قصب الخيزران المجدول ، ومخدته قطعة من الخشب . لقد حصلنا على ثلاث فرشات قديمة فاعطاني واحدة منها وأرسل الاخريين الى قسم الممرضات وقال: « لقد عشت عيشة اللاجئين مدة طويلة ولا اقدر ان انام الآن على فرشة . »

وقالت ايضاً : « اشتريت مرة حليب جاموسة ، وشوفاناً ، وزبدة هندية وصنعت له طعاماً فأكله وكأنه يأكل غداء ملوكياً . وهو كولد صغير تبهجه الاشياء الصغيرة . نادانا مرة ودعانا كي نخرج بسرعة الى حيث كان هو . فاسرعنا اليه ظانين ان حادثاً هاماً قد طرأ . وما كان نداؤه الا ليرينا البدر كاملاً وهي اول مرة يكتمل فيها البدر بعـــد رجوعنا الى ووتشو . »

وبعد رجوعهم بشهرين سمع بيل ان حمى التيفوس آخذة بالانتشار في سجن ووتشو . والسجن في ذاك الحين كان يضيق بالسجنـــاء

السياسيين وبالمجرمين العاديين . فاشفق على الارواح تزهق وهو قادر على تخليصها ، فاسرع الى حكام البلدة ورؤسائها وقال لهم : « ان تفشي التيفوس لا يبقى ضمن جدران السجن بل يتسرب الى الخارج ويهدد الصحة العـامة . » (لانه عرف انهم لا يبالون بما يصيب السجناء لو انحصر الضرر بينهم فقط .) فحصل على اذن لمكافحة التيفوس في السجن وخارجه .

فكان في كل يوم يأخذ فرقة من المتطوعين ويدور بهم فيطهرون الاماكن الموبوءة ويعالجون المرضى . وكان يهدد المسؤولين واحيـاناً يرشدهم لاجل تنفيـذ الاصلاحات الصحية الضرورية . وقد ادهش الجميع بعاطفته الفياضة ونشاطه الجم واندفاعه في تنفيذ المشروع حتى دعوه « ملاك الرحمة . »

في اواخر كانون الاول ، قرب عيـد الميلاد ، عاد المستشفى الى مستواه التعليمي السابق وقبل فوجاً جديـداً من الممرضات وطبيبين ينامان في المستشفى .

عاد مرة بيل بعد نزهة قصيرة ومعه كيس فيـه عظام شخص مات في اثنـاء الحوادث ، وبليت جثته وظلت عظامه كاملة على منعطف الطريق . فركب هـذه العظام وجعل منها هيكلاً عظمياً لتعليم الممرضات .

وفي الربيع التالي سمع بيل خبراً سره جداً ، وهو ان الدكتور بادو في طريقه الى الصين والى مستشفى ستوت ميموريال . وعنـد وصوله يذهب والاس ليقضي في اميركا اجازته الثانية ، التي يترقبها بشوق ،

وليدرس هناك ما هو بحاجة الى درسه وليرى اخته وعائلتها ، وشخصاً آخر يرغب في ان يراه .

وقد ساعدت لوسي على انماء هـذه الرغبة . لانها كانت تقتبس له من رسائل الفتاة التي اعجبته في اثناء اجازته الاولى وكان يصغي اليها برغبة .

وصل الدكتور بادو . وبعـد وقت قصير تجددت صداقتهما . ثم سافر بيل الى اميركا وعرج في طريقه على رتشموند ـ فرجينيا . وهناك دعا صديقته للاجتماع به وكأنه لم يفارقها الا منذ اسبوع لا منذ خمس سنوات مديدة . وهو لم يعلم ان لوسي ريت كتبت لها مؤخراً تقول :

« ... في الوقت الذي يصلك كتابي هذا يكون صديقنا في عرض البحار متجهاً الى اميركا . وانا أحس انه سيتصل بك سريعاً . وأحس أيضاً انه سيخبرك الشيء القليل عما جرى في السنوات الماضية وهـذا نقص او انتقاص للحقيقة . ان قصته من قصص البطولة التي لا تصدق والتي يحسن بك معرفتها . وربما يخبرك بقصته ـ لا تستخفي ابداً بقوة المرأة وتأثيرها ... »

فنـدق جفرسن في رتشموند مشهور بما فيه من اواني الكريستال الجميلة ، والشموع . ومعروف بخدمته الممتازة وطعامه الشهي . وكان بيل يفضله على كل مكان يجتمع هو وصديقته فيه .

جلست صديقته قبالته الى المائدة الانيقة وتبسمت لتفكيرها بالفرق العظيم بين ما يراه بيل الآن وبين ما كان يراه مؤخراً في اثناء هربه من ووتشو ورجوعه اليها . اما هو فكان مرحاً يفكر بحاضره وقـد نسي

الحرب ، والامراض ، والموت والجوع . صديقته ، التي كان يحلم بها وهي بعيدة عنه ، هي الآن بقربه . وهذا يكفيه لان يكون مرتاحاً ومطمئناً . لذلك لما رآها تبتسم سألها قائلاً : « ما الذي تبتسمين له ؟ »

« كنت افكر بان ما تراه الآن يظهر لك كأنك تراه في حلم بالنسبة الى ما مر عليك في السنين الاخيرة الماضية . »

« انه بالحقيقة امر مضحك ، لانني كنت ايضاً افتكر بان ما مر عليّ لم يكن سوى حلم بالنسبة الى ما اراه واتمتع به الآن . انني بالحقيقة رجل يعيش في الحاضر وفي الحاضر فقط . »

« ولكنك تحسن عيشك الحاضر . » قالت هذا قبل ان تفكر بما يعنيه قولها فارتبكت واسرعت الى اتمام حديثها : « وانا لا احب ان تبقى سكوتاً لا تخبر احداً عما جرى لك كما تفعل الآن . لان ما جرى يهم الكثيرين من الرجال والنساء الذين صلوا لأجلك وساعدوك فضلاً عن انه يدفع الكثيرين من الشبان والشابات للسير على غرارك . » ثم قالت بلهجة اقرب الى التعنيف منها الى النصح « اظن ان ما قلتُه يظهرني بمظهر الشكاسة . »

تبسم بيل وقال : « لا بأس . ان ما قلته حق . » ثم تناول كأس الماء البلوري وقال بعد تفكير بما حدث له : « بالحقيقة ان قصتي جديرة بان تروى ، ولكنني لا اعرف كيف أرويها ، ولا من أي نقطة ابدأ فيها لان خمسين شخصاً اشتركوا معي فيها ، وقد استوحيت من حياتهم الثقة والايمان . وهناك مئات من الاشخاص صادفتهم في طريقي منهم طبيب صيني دفناه تحت امطار مقاطعة كوانغتزي الباردة ، ومنهم جنود

اميركيون قد ارخوا لحاهم ، ومنهم فلاحون صينيون انهكتهم المصائب وجعدت وجوههم النوائب . ولكن اصعب شيء في قصتي هو انها اصبحت من ماضي حياتي ولا احب ان اعود اليها ولو بالذكرى . »

ثم سكتا كلاهما عندما تقدم أحد الخدم ليجمع الصحون ويصب لها القهوة . وبعد انصراف الخادم عادت الى اسئلتها . هي ولدت في الصين وتحب ان تسأل عن اشخاص عرفتهم هناك وعن الاماكن التي اشتغل فيها بيل. ولكن عندما بدأ يتكلم شعرت انه يقودها الى موضوع آخر وانه يرقب الفرصة . وكان ، وهما في طريقهما الى الفندق ، قد اراها صورة طلب للخدمة الارسالية اخذها من مكتب المجلس وقال : « في حالة عثوري على من يرغب في الذهاب الى الصين . » فماذا يعني بذلك ؟ ولماذا اراها صورة الطلب ؟ هل هي مخطئة في ما فهمته ام انه حقيقة يقصدها هي نفسها بهذا القول ؟

شغل بالها شعورها الحالي وذكريات سابقة ، وبالجهد قدرت ان تتظاهر بالاصغاء الى حديث رفيقها . انها مكرسة نفسها للخدمة المسيحية ، وقد ولدت وترعرعت في بيت والدين مرسلين ، ولكنها حتى الآن لم تشعر بالدعوة الى ضرورة الخدمة الارسالية . قبلاً فكرت مراراً بان الله قد يدعوها الى العمل الارسالي بواسطة زوج ما ، وفكرت في انها ستقبل تلك الدعوة متى جاءت . فهل بيل هو ذلك الزوج الذي يحمل الدعوة ؟ وهل يأخذها معه الى الصين متى انتهت مدة اجازته ؟ ام انه ينتظر منها ان تقول هي ان الله يدعوها للخدمة الارسالية ؟ منذ برهة احست انه يجهد نفسه في الدوران حول هذه الغاية ، ويترقب بشوق سماع هذه الكلمات من فمها .

وشعرا كلاهما بحرج الموقف الكامن تحت سطح احاديثهما العرضية ، في تلك الليلة السحرية . ولكن شعورها كان ينقصه اطمئنان المتأكد . وهو كان كذلك .

وظلا يدوران حول الموضوع ولا يجرآن على ذكره صراحـــة ، ووصل كل منهما الى قرار دون حاجــة الى الكلام . وقبل ان يفترقا عرف كل واحد منهما ان صداقتهما شيء يعزانه حتى آخر ايامهما وانه يجب عليهما ان يسيرا في طريقين مفترقين . ان المدبر غير المنظور يريد لكل منهما مصيره الخاص .

وقرر بيل مجاراةً لميله الدائم ان يزيد معرفته الطبيـــة ووضع خطة للتنفيذ ، لان اساليب الاجراءات الجراحية ، وفنون المعالجة الطبية قد خطت خطوات جديـــدة واسعة في اثناء الحرب . وهو يرغب في ان يتعلم كل ما يستطيع ان يتعلمه منها قبل رجوعه الى الصين . انها فرصة « لسن سيف المعرفـــة » كيف لا وهو الذي كان دائماً يقول للاطباء المقيمين في مستشفى ستوت ميموريال : « ان علم الطب يتقدم باستمرار فالطبيب لا يستطيع ان يتكل على شهرته وينـــام على اكاليل الغار التي نالها . »

ابتدأ اولاً بدرس ثلاثة فروع طبية في مدرسة كوك الطبيـــة في شيكاغو : هي التصوير بالاشعة ، والجراحة العامة ، وجراحة التجويف الصدري . وبقي من تشرين الاول حتى كانون الثاني يلتهم العلم التهاماً في ذلك الوسط الطبي . فكان يسمع المحاضرات ، ويطـــالع المجلات الطبية في المكتبة لاستيعاب فوائد ما يجد من الابحاث ، ويحضر العمليات الجراحية . وكثيراً ما كان يسأل ويستفهم الجراحين المشهورين .

ولما اكمل دروسه في شيكاغو سافر الى نوكسفيل ليصرف وقتاً قصيراً مع عائلة اخته . ومن هناك انتقل الى نيو اورليانز ليقضي فصل الربيع في درس معالجة امراض المناطق الحارة في جامعة طولين .

كان افضل له ، من الوجهة الشخصية ، لو درس أكثر عما يتعلق بالجراحة التي هي اختصاصه ، ولكنه اراد منفعة الصينيين الذين اختار خدمتهم . أما الشهرة والمنفعة الشخصية فليس لهما مكان في تفكيره .

وكان في اوقات فراغه في نيو اورليانز يحضر الى مستوصف قريب حيث يسمع محاضرات عن مرض السرطان الخبيث . لانه لاحظ كثرة ظهور السرطـان الجلدي في الصين وخصوصاً في المنطقة التي فيهـــا مستشفى ستوت ميموريال. وكان يدوّن الملاحظات ووصف مشاهداته بدقة واعتناء ليقدمها في محاضرات يلقيهـــا على الاطباء العاملين معه والجمعية الطبية المحلية في ووتشو .

ان فصل الربيع البهيج حوّل افكـــار بيل الى الصين . وكتب الدكتور بادو العجوز يطلبه بالحاح ، لان ذلك الاداري الفـذ أصبح على وشك التقاعـد وبالنسبة الى تقدمه في السن لم يبق في امكانه القيام بالمهمات الادارية التي خلق لها . والجميع ينتظرون مجيء وا اي سانغ .

في نيسان زار الدكتور رانكن الدكتور بيـــل في نيو اورليانز ثم كتب الى الدكتور بادو يقول : « ليس لبيل سوى فكرة واحدة هي الرجوع الى ووتشو في أول فرصة بعد انهـــاء عمله الدراسي في نيو اورليانز . » وجواباً على سؤال لم يذكر ــ ولكنه يجول في رأس منتظري رجوع بيل ــ قال : « ويظهر انه لا ينوي أخذ احد معه . »

صديقته ؟ هبت عليها رياح الحب من جهة اخرى فخطبها واعظ معروف .

وكان بيل والاس شديد الاهتمام بمستقبل عمله . لان الدكتور رانكن اخبره عن تعيين طبيب آخر ليعاونه وهـــذا سيسافر ليدرس اللغـــة الصينية . واخبره ان ممرضة ذات خبرة واسعة سترسل الى المستشفى في ووتشو ، وان شاباً مبشراً وعائلته يدرسان الآن اللغـــة الصينية وهم ايضاً سيرسلون الى ووتشو . هـذه الاخبار رفعت آمال الدكتور بيل وبشرته بانبثاق فجر جديد .

وفي اوائل ايار أكمل دروسه في نيو اورليانز وعـاد الى نوكسفيل ليتمم معاملات رجوعه الى الصين . وقبل ان ينتقل الى سان فرنسيسكو استلم مخابرة هاتفية من الدكتور هربرت آكف صديقه القديم :

« يا وليم اني انقل اليك خبراً ساراً . لقد انتخبت عضواً في الكلية الدولية للجراحة . »

كان بيل يعرف ان الدكتور بيترز قد حفظ ملفاً عن بعض الامراض الصينية وكيف عالجهـــا بيل . وفي أول هذه السنة أخذ ذلك الصديق القديم بياناً عما اكتشفه بيل في خلال الاثنتي عشرة سنة من عمله الطبي في الصين . ولكنـــه لم يكن يعلم لمـــاذا طلب الدكتور بيترز صوراً فوتوغرافية ومستندات . وكان بيل يعتقد انه قطع كل علاقة له بالكلية الدولية للجراحة منذ رفضه مـــا عرضه عليه الدكتور بيترز للعمل معه فيها . فاجاب الدكتور آكف بقوله :

« لست ادري مـــا اقول يا دكتور . ولم أفكر يوماً بانني اهل لما انتخبت له . »

فقال الدكتور آكف : « انك اهل لما انتخبت له وجدير به . لقد اجريت عمليات جراحيـة متنوعة على نطاق يجعل معظمنا نظهر قليلي الخبرة بالنسبة لك . انت أهلٌ لمـــا انتخبت له . وانا لي الشرف ان اكون الشخص الذي يبلغك الخبر . »

كان بيل قد تخلى عن السعي وراء الشهرة وقيد نفسه بالعمل في بلاد الشرق العجيبة . ولكن نور خدماته المتوهج لم يكن مما يختفي عن اعين المجتمع . ومهنته الطبية ميزته وكانت فخورة به .

وما حصل عليـــه الآن ازكى شوقه للرجوع الى مهنته التي خلق لها والتي دعاه الله اليها وساعده فيها . وبكل تواضع كان يعترف بان الله كافأه ، عن كل تضحية ضحى بها ، بالبركات والنعم التي ملأت حياته وكانت ثمرة اختياره . وقال في نفسه : من الصعب ان يشعر الانسان بفضل اذا كان مشغولاً بالشعور بالامتنان .

وحسب عادته لم يخبر رفاقه في ووتشو عما حصل عليـــه الا انهم اكتشفوا الخبر صدفة .

ان اخت بيل وزوجها اظهرا فرحهما عندما نقلاه بسيارتهما الى مطار نوكسفيل . وكان آنذاك قد زاد وزنه حوالي عشرة كيلوغرام وبدا في أحسن ما يكون من مظاهر الصحة والنشاط . ولكن كل هـذا لم يخفف لوعة ساعة الوداع .

قال سدني صهر بيل عندما ودعه : « اهتم بنفسك يا وليم واكتب الينا ، ولو سطراً ، من وقت الى وقت . »

كان سدني صهر بيل تاجراً من نوكسفيل ، وكان وكيلاً عن بيل وكان يشتري كل لوازمه حسب الطلب . وكان يعتبر عمله هـذا قسماً من واجباته المسيحية ، كما انه يحب بيل ويحسبه من لحمه ودمه . وقد قال له أيضاً ساعة ودعه: «حتى لو كان طلبك ربطة من الانابيب الزجاجية لفحوصات المختبر فذلك يطمئننا عنك . »

تطلع بيل الى صهره سدني ثم نظر الى اخته راعوث لن وابنهما ساندي ، وكان الصغير يحـاول ان يحبس الدمع في عينيه ويتظاهر بالرجولة وقال : « يا صهري العزيز أنا ليس لي ما أهتم به ، فاهتم أنت باختي وساندي وأنا سأهتم بنفسي . والله يحفظنا جميعاً . »

١٣

هدوء قبل هبوب العاصفة

رغم غموض الحالة السياسية في الصين كان بيل والاس متفائلاً عندما ابتدأ الدورة الثالثة من خدمته الارساليـة . وكان الدكتور سام رانكن وزوجته مريم يدرسان اللغة الصينية في مدرسة كانتون ومعهما الممرضة أفرلي هايس والواعظ القدير أد كلوي وعائلته . وفي أقل من سنة سيكونون جميعهم في ووتشو .

هذه الوجوه الجديدة ذكرت بيل بالوجوه التي غابت عن المستشفى . ركس راي صار شغله في مصح للبرص . ولم يعرف بيل مقدار محبته لذلك الطبيب القدير الذي كان يختلف عنه ، الا بعد مغادرة الدكتور بادو وزوجته بلاد الصين ورجوعهما الى وطنهما .

والآن اصبحت اثقال ادارة المستشفى على كاهل بيل بعد ان كان مديراً بالوكالة . ولكن المستشفى سار الى الامام بنجاح . والتقرير الذي قدم عنه في ١٩٤٧ كان درساً مفيداً في الاختصار والتعمق .

« بذلنا كل جهد لاتمام رسالة المستشفى . العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والمساكين يبشرون . ونحن

نصلي آملين ان تكون الخدمة الطبية في هذا المستشفى على المستوى الملائم لتعليم الانجيل الذي يبشر به كل يوم بين جدرانه . »

لوسي ريت من الوجوه التي كانت في المستشفى وبقيت فيه مدة ولكنها قصيرة . لوسي ، التي خدمت خدمات تذكر فتشكر في عهد المستشفى في البرية وفي عهد اصلاح المستشفى وارجاعه الى سابق عزه في ووتشو ، كانت مشرفة على الموت عندما عاد بيل من اميركا . اصيبت بانفجار قرحة في معدتها وأصاب الدكتور بادو في تشخيص مرضها ولكنه لم يجرؤ على معالجتها جراحياً وكذلك الاطباء الصينيون لم يقدموا على تحمل مسؤولية اجراء العملية الخطرة . ولكن بيل وقف نفسه على معالجتها . عرف ان العملية ضرورية ولكنها خطرة جداً . لذلك عالجها بالبلازما والكلوكوز وراقب حالتها عن كثب ، مستعداً لاجراء العملية اذا ظهر بعد العلاجات الاخرى انها الأمل الوحيد للشفاء .

كان الله رحيماً فبدا التحسن بطيئاً إلا انه مستمر فكان بيل يهمس في أذن لوسي مشجعاً ومؤكداً : «ستشفين يا لوسي ، اصبري فستنتصرين على القرحة . » وبعد هذا كان يصلي . وفي احيان كثيرة كان يدعو الآخرين ليصلوا معه بجانب سرير المريضة .

كان بيل يثق بقوة الصلاة . وكثيراً ما كان يقتبس في صلاته ما جاء في رسالة يعقوب ٥ : ١٤ ـ ١٥ ويرددها على مسامع الاطباء والممرضات . « أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصلاة الايمان تشفي المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له . »

وكان يحسب المهارة الطبية والادوية مصدرين من مصادر الشفاء الالهي ولكنهما ليسا المصدرين الوحيدين . فكم من مريض من مرضاه شفي بطريقة غامضة لا تفسير لها في عالم الطب في حين كان الموت المحتم يشد قبضته على عنق المريض . ان القوة التي تتجاوز مدى ما تصل اليه اصابع الطبيب الماهر هي ايضاً مصدر إلهي للشفاء يحصل عليها الناس بالايمان فقط .

تحسنت حالة لوسي ريت وسارت في طريق الشفاء ، ببطء ولكن باستمرار وثبات ، دون عملية جراحية . وفي ذات يوم حضر بيل الى غرفتها وبيده كتاب طب ضخم . فتح الكتاب واراها فصلاً منه ثم قال لها : « عمل الله قسمه فلنعمل نحن قسمنا . هنا وصف مشكلتك . » ثم قلب الصفحة وقال : « وهنا وصف العلاج . » ثم ترك الكتاب قربها ووقف وقال وهو يبتسم : « والآن لا تتمهلي . »

أبلّت لوسي من مرضها ولكنها كانت بحاجة الى الراحة في فترة نقاهة طويلة . وكان قد حان وقت اجازتها فسافرت الى الولايات المتحدة بعد وداع مؤثر سالت فيه الدموع .

لم يبق من الوجوه القديمة التي اشتغل معها بيل في مدة قبل الحرب إلا وجه جاسي غرين المبشرة القديرة .

استعرض بيل والاس التغييرات التي حدثت وكاد ان لا يصدق أنه أصبح الآن أقدم المرسلين العاملين في تلك المنطقة الصينية . وتذكر مع ذلك أنه هو نفسه قد تغير . انه الآن أكبر سناً وأخف شعراً ولكن يده لا تزال ثابتة وثقته بمقدرته الطبية أصبحت أعظم . وكان يقر

بفضل التجارب التي مرت عليه وبفضل الفرص السانحة له الآن . وإذا تبين ان الهدوء النسبي المخيم الآن ما هو إلا نذير عاصفة مقبلة فانه مستعد للعمل ما دام نهار .

في صيف ١٩٤٨ اجتاحت ووتشو وافدة « براتيفوئيد » فـأمر والاس بأن يلقح كل من في المستشفى ضد المرض المنتشر بلقاح جديد من مركب ضد التيفوئيد والبراتيفوئيد . وهو نفسه تلقح الا انه اخطأ فأخذ اللقاح القديم الذي بقي من التيفوئيد فقط . وقد كانت انابيب اللقاح الجديدة موضوعة قرب أنابيب اللقاح القديمة على رف واحد . فأصيب بالبرا تيفوئيد واشتد عليه المرض . فعالجه رفاقه الصينيون بكل طاقتهم . وفي بادىء الأمر كان هو نفسه يدربهم إلا انه أصيب بالهذيان فيما بعد لاشتداد وطأة الحمى عليه .

ترءاى له انه صبي صغير مصاب بالتيفوئيد وان أباه يحـدب عليه ويعالجه فصرخ « بابا انني أكاد احترق . »

فمسحت الممرضة لوك جبينه وحاولت ان تهدئـه . وفي مرات اخرى كان يعود الى صوابه ويطلب مقابلة نيوبرن . مرة رفع نفسه على احدى يديه وقال : « اخبروا نيوبرن ان من الضروري ان اقابله . »

وليم نيوبرن مرسل الاتحـاد الارسالي المسيحي يسكن في مركز الاتحاد الارسالي وهو من اصدقاء بيل المقربين ، وقـد قضى واياه ساعات عديدة . فلما عرف ان بيل مريض اسرع اليه وجلس قرب سريره .

مدّ بيل يده وشد صديقه إليه وقال له : « قل لجميع من هنـا ان

يخرجوا فأنا اريد ان أعترف . » فأمسك نيوبرن يد صديقه وقال : « سأبقى هنا يا بيل ، وأنت ستتعافى . »

فرجاه بيل بصوت ضعيف ولكن فيه لهجة الجد والحزم : « أرجو منك ان تسمع اعترافي . »

ترقرق الدمع في عيني نيوبرن وقال في نفسه : من أنا لاسمع اعتراف مثل هذا الرجل ؟ فالأفضل أن اعترف أنا له ؛ ولكن هي الحمى . ولكن الحاح بيل عليه جعله يطلب من الحاضرين ان يخرجوا . ولما رجع الى جانب صديقه وجده في هـذيان ولكن لم يلبث الطبيب المريض ان استعاد وعيه وفتح عينيه وقال :

« لقد اخطأت الى الرب يا نيوبرن . لقد أهملته . لقد همني نجاح المستشفى المادي أكثر من معرفتي للرب . صلّ من أجلي يا نيوبرن ، صلّ من أجلي . »

صعق وليم نيوبرن لدى سماعه هـذه الكلمات ولم يستطع ان يقول شيئاً . وشعر ان قلب صديقه طاهر كقلوب الأولاد وأن ايمانه بسيط . فركع وصلى .

بعد برهة قال الطبيب المريض : « الله يكفي . » لقد وثق بربـه ولكن وطأة المرض ظلت ثقيلة على جسده الناحل الذي كان يضعف يوماً بعد يوم .

انبلج صباح اليوم التالي ودخلت أشعة النور الى غرفـة المريض ولكن لم يدخل معها الرجاء . وجسم بيل الذي حطمته الحمى ظـل

يتلوى على فراشه، وتمتمت شفتاه اليابستان الفاظاً لا معنى لها . والاهتمام الشديد غضن جبين الدكتور وانغ تاي ننغ عندمـــا أكمل عد ضربات النبض :

كم مرة عد ضربات النبض منذ اصبح وا اي سانغ مريضاً ؟ سجل الرقم على الورقة الخاصـــة ومشى الى جانب الشباك . ما اطول تلك الليلة ! القى رأسه على يده وسرح نظره فوق مدينة ووتشو حتى النهر الغربي الهادىء . رأى الضباب في الصباح يتنقل متكاسلاً فوق صفحة الماء المتلألئة . وشعر كأن هدوء نهر جنوبي الصين يهزأ بقلبه المضطرب. فعاد ليلقي نظرة ثانية على هيكل زميله الحبيب .

انتبه لحركة غير عادية تحت الشباك من الخارج حيث كانت جماعة من الناس تنتظر صامتة . فهل كانوا هناك كل الليل ؟ انهم مجموعة من جميع الطبقات : حمالون وتجار وشحاذون ، ومأمورون وقضاة . وفيما هو يراقب هذه الجماعة خرجت الممرضة « لوك » من المستشفى وكلمت بعض المنتظرين وحركت رأسها ببطء اشارة اسفها لحـــالة المريض . فسرت موجة تنهد بين المجتمعين اظهرت للدكتور وانغ عظم محبة ابناء شعبه للدكتور بيل والاس .

ثم التفت الى الوراء عندما سمع صوت فتح الباب وحيـــا الدكتور الجراح لانغ المقيم في المستشفى .

« كيف وا اي سانغ ؟»

« انه ضعيف . »

« آه ! الحمى انهكته وانحلته . »

« نعم . وهو لم يكن في وقت من الاوقات سميناً . »

« صحيح . ولكنه كان يصعد الدرج بسرعة وينزل بسرعة عدة مرات كل يوم . وكان يشتغل على الدوام دون راحة . »

وبعد برهة صمت قال الدكتور لانغ :

« ألم يبق في اليد حيلة ؟ »

« البرا تيفوئيد صعبة وخصوصاً على الاجانب . ان نبضه ضعيف وانا خائف عليه . »

« آه » .

احس الدكتور وانغ ان شخصاً ثالثاً دخل الغرفة فدار وحيا مس جاسي غرين التي خافت ان تنظر الى المرسل المريض فحولت انظارها نحو الدكتور وانغ لتسمع منه كلمة تشجيع . فالتفت الدكتور اليائس الى المريض الناحل ولم يقل شيئاً .

فجأة عزمت جاسي غرين على أمر وقالت : « سأبرق الى الاطباء الجدد في كانتون . فهل يزعجكم عملي ؟ »

« كلا ، كلا ، اذهبي . ولكني اخاف ان يأتوا الى هنا ليشاركونا في حزننا فقط . »

« على كل حال سابرق لهم . »

نزلت مسرعة وشقت طريقها بين الناس المحتشدين امام البـاب . وفيما هي تمر بينهم تعلقت بها ابنة صغيرة يظهر على وجهها أثر عملية لاصلاح شرم الشفة العليا وقالت : « هل يموت وا اي سانغ ؟ »

« املنا انه لا يموت يا صغيرتي . صلي للرب يسوع ليشفيه . »

« نعم . نعم . ساصلي . »

وصلت برقية جاسي غرين الى سام رانكن في اثناء اجتماع مرسلي جنوبي الصين . وصعب عليه تصديق ان بيل والاس على وشك الموت. لقد سمع ، منذ بضع سنوات ، عن اعمال ذلك الطبيب الناجح وتاق الى العمل معه جنباً الى جنب ليتعلم منه ويراقب كفاءته ومهارته الجراحية عن كثب . فهل يحرم من هذا الامل ؟

بعد ظهر اليوم نفسه ركب الدكتور سام رانكن سفينة نهرية وفي اليوم التالي ظهرت ووتشو فنظر اليهـا بقلق وكان الى جانبه الدكتور دون مور الذي تطوع لمرافقته والممرضة افرلي هايس . كانوا كلهم بفروغ صبر ينظرون السفينة تقترب من الموضع الذي ترسو فيه . وفجأة رأى الدكتور رانكن جاسي غرين على البر امامهم . فناداها : « نحن هنا يا جاسي . كيف بيل ؟ » ولما التفتت وابطأت بالجواب جزع وقال في نفسه : هل تأخرنا ؟ واذ هو في هواجسه سمعها تقول :

« شكراً لله . انتم الآن هنا . لم تتحسن حالته . ارجو ان تسرعوا ، وهذا الفتى الذي معي سيتولى أمر حقائبكم . » وبلهجـة كانتونية موسيقية اعطت التعليمات اللازمة للفتى ، واسرعت واياهم في الشوارع المزدحمة بالناس الى المستشفى .

وفي اليوم التالي عمل الاطباء كل ما يمكن عمله ولكن كل جهودهم لم توصلهم الى الغاية المطلوبة . فقال الدكتور سام للاطباء الآخرين : « بقي شيء واحـد قد يرجى منه نفع وهو ادخال المصل السائل الى عروقه لمنع نشاف الماء من جسمه . ولكن هل يفعل هذا فعله قبل فوات

الوقت ؟ أمـا الدم الذي نقلناه من عروق افرلي الى عروقه فلم يحن الوقت لظهور منفعته . »

لقد كانوا يتمسكون بخيوط العناكب ، ولم يبق في جعبة الطب ما ينفع سوى الصبر والانتظار .

افرلي هايس وجاسي غرين شعرتا الشعور نفسه . والجموع المحتشدون خارج العيـادة ظلوا ينتظرون متألمين ساكتين صابرين وفي صدورهم تفور العاطفة الشرقية الحساسة . وكانت جاسي قبل دقائق قليلة قـد خرجت اليهم واخبرتهم ان وا اي سانغ لا يزال حياً، وان كل ما يمكن ان يعمل قـد عمل ، فما عليهم الا ان يصلوا وينتظروا . فصلوا مع نيوبرن على التلة ، وصلوا في دير الراهبات خارج ووتشو مع الكهنـة الذين يعتبرون بيل والاس اخاهم وملاكاً للرحمة .

شعرت افرلي بتعب شديد لأن نقل الدم من عروقها الى عروق بيل المريض اضعفها . وتمنت ان يجعل الله هـذا الدم مفيداً . جلست على درجات السلم تعبة ضجرة ، تحسب دقائق الانتظار اياماً . ثم قالت في نفسها : « الشرقيون يعرفون كيف يصبرون ، وأنا يجب أن أتعلم . »

في اليوم التالي أفاق الدكتور رانكن من غفوة قصيرة قرب سرير بيل على وقع خطى مس لام ممرضة قسم الجراحة وهي تؤدي واجبها باتقان كما هي عادتها دائماً . وفيما هو يراقبها التفتت اليه فجأة وقالت : « يبدو لي ان الحرارة أخف الآن منها قبلاً . »

نهض رانكن حالاً وأمرّ يده على جبهة المريض الشاحبة ، وجس

نبضه ، ثم زفر زفرة ارتياح وفرح وقال : « الحمى قد خفت وطأتها . انه سيشفى . »

وانتشر الخبر كالنار في الهشيم . وما ان لفظ الدكتور رانكن كلمات الاطمئنان والفوز على الحمى حتى ارتفع هتـــاف الجمع المنتظر في الخارج : وا اي سانغ سيحيا .

سار بيل والاس على طريق الشفاء وعـــاد الدكتور سام رانكن والدكتور دون مور وافرلي هايس الى درس اللغة في كانتون . وبينما هم في السفينة التي كانت تشق مياه النهر الغربي، وبينما كانت تلال ووتشو تبتعد عنهم رويداً رويداً ، قال الدكتور رانكن : « لا ازال استغرب كيف نجا الدكتور بيل من شباك الحمى ، ولست أرى تعليلاً علمياً ارضياً لشفائه ! »

فتبسمت افرلي وقالت : « صحيح اننا لا نعرف تعليلاً ارضياً لهذا الامر ، ولكن قد يكون السبب سماوياً . »

في خريف تلك السنة ١٩٤٨ ظل بيل والاس نحيلاً ولكنه شفي تماماً وعاد الى عمله . لم يكن وحده الآن بل كان معه الدكتور سام رانكن وزوجته وأد كلوي وزوجته وافرلي هايس . هؤلاء بعـــد ان اكملوا دروسهم في كانتون جاؤوا الى ووتشو وكان فرح بيـــل بهم شديداً .

واشتغل بيل والاس وسام رانكن معاً بانسجام تام . وكان رانكن يعجب بشجاعة بيل واقدامه على العمليات الجراحية المتنوعة اقـــدام الواثق بمعرفته ونجاحه . وكان في كل فرصة يراقبـــه للاستفادة من خبرته .

ونادى بيل مرة زميله رانكن . ولما أقبل قال له : « يا سام اني اقدم لك صديقي » ولم يكن ذلك الصديق سوى ولد فقير قذر رث الثياب يهزأ به رفاقه بسبب عاهة خلقية فيه .

كان الصبي الصيني ينقل نظره من طبيب الى طبيب متبرماً كأن حياته عبء عليه . هو أعلم (مشقوق الشفة العليا) ومشقوق الحلق ، يتجول في الشوارع فيطارده الاولاد ويطرده الكبار ويصعب عليه جداً ان يحصل على الحاجات الضرورية لحفظ حياته .

نظر بيل الى فمه المشوه وقال لسام : « علينا ان نزيل عاهته ونهيىء له فرصة للحياة . »

تقدم سام ليفحص فم الولد بتدقيق فسأله بيل : « هل اجريت قبلاً عملية من هذا النوع ؟ » فقال سام : « لم يمر عليَّ شيء من هذا النوع . »

فقال بيل : « اذن ستعمل أنت العملية وأنا اساعدك . »

وهكذا تحت ادارة بيل وارشاده عمل سام اول عملية لاصلاح الشفة المشقوقة والحلق المفتوح . وقد نجحت العملية . ورأى الولد نفسه في المرآة كسائر الناس وتكلم فكان كلامه واضحاً مفهوماً لاول مرة في حياته فطار فرحاً . وابتهج سام أيضاً . وشعر بيل بارتياح لان زميله اقتنع ان في امكانه ان يخدم في مكان مثل ووتشو ويفيد الناس .

ولما برىء الولد استأجره بيل ليخدم في المستشفى ويبقى فيه ليلاً . فكان حسن السلوك ، اميناً في الخدمة ، وكان يشجع المرضى الخائفين من الاقدام على عمليات جراحية . فاستلفت بعد نظر بيـــل واهتمامه بالانسان الكامل انتباه الدكتور رانكن .

كان بيل في الاربعين من عمره في تلك السنة (١٩٤٨) ومع ذلك كان أباً لكل الذين يشتغلون معه . ولم يكن أحد منهم يتزوج الا وبيل اشبينه . وليس أحد من الذين حضروا زواج ابنة يتيمة ــ ربيت في المستشفى وصارت ممرضة ــ ينسى أن بيل أخذ دور الوالد الحقيقي . فقد اهتم بتنظيم المعاملات الرسمية التي تسبق الزواج ، وأعد ما يلزم لمراسيم الاكليل ، ووقع امضاءه باحترام واتزان على صك الزواج . وفي حفلة العرس كان أباً مثالياً للعروس مغموراً بالمسرة . وقد تعجب المرسلون الجدد وأدهشهم ما كان يلقاه من حسن الاستقبال بين الناس الذين تبناهم أو اختارهم .

لما كثر عدد المشتغلين في المستشفى وتسهلت أعماله الروتينية بدأ بيل برحلات يزور فيها أهالي القرى المجاورة يرافقه المبشرون . في تشرين الاول أخذ معه فرقة وقصد قرية هوتشينغ الصغيرة . بدأوا رحلتهم قبل الفجر فمروا في شوارع ووتشو حاملين لوازمهم الطبية ، والمواد الغذائية ، والثياب والكتب المقدسة ونبذاً . وكان بيل قد صنع زورقاً صغيراً من الواح خشب شدها بعضها الى بعض وجهزه بمحرك آلي قوي . فاستعمل هذا الزورق في نزهته . وكان يشد اليه ماعونة يركب فيها مرافقوه ويشحنون فيها امتعتهم . وفي سفرته هذه الى هوتشينغ تطوع لمرافقته اثنا عشر شخصاً من العمال والمبشرين .

وعند بزوغ الفجر كانوا على وشك البدء بسفرة عشرة اميال في مياه نهر فو والباقي من المسافة يقطع مشياً على الاقدام . فلما وصلوا الى الطريق البرية المؤدية الى هوتشينغ شدوا الزورق الى جانب النهر وحمل

كل واحد قسمه من الامتعة وساروا صعداً في ممر ضيق فوق تلة خضراء . وعلى الجانب الآخر من التلة رأوا القرية التي يقصدونها وأطلوا على الوادي المطمئن . وحالما اقتربوا من القرية لاقاهم الاولاد راكضين فرحين وتجمعوا حولهم يحيونهم ويرحبون بهم . والذين عرفوا بيل في المستشفى رموا انفسهم عليه بدالة الحب .

لَكَمْ أحب بيل هذه الرحلات التبشيرية ، وأحب أن يمشي في القرية ويحيي شيوخها ويلعب بشعر الاولاد ذوي العيون البراقة .

في هذه الرحلات كان العمال يوزعون الالبسة والاناجيل والنبذ . والمبشرون يزورون الاهالي في بيوتهم ويبشرونهم ، ويعلمون المسيحيين الجدد ويساعدون الوعاظ المحليين في فحص المتجددين . وفي الوقت نفسه ينشىء بيل والاس وافرلي هايس مستوصفاً طبياً في مكان آخر من القرية. كان اكثر المرضى من النساء والاولاد فكانوا يعالجونهم بواسطة الابر ، او يطهرون ويضمدون قروحهم وجروحهم . كان بيل يعمل عمله والاولاد حوله يسألونه عن اشياء مختلفة فيجيبهم باللهجة الكانتونية الممزوجة بالنبرة التنسية ، فيضحكون ويركضون ثم يعودون .

في زيارة اخرى اجتمع الزائرون كلهم لتأدية الخدمة المعتادة على ان تبدأ بترانيم مسيحية يرتلها الاولاد باللغة الصينية . ثم بعد العظة والصلاة الختامية جمع المبشرون امتعتهم للرحيل وشيعهم الاولاد حتى آخر البلدة وهم يرتلون ، « الله يحفظكم ! الله يحرسكم ! » وظلت اصوات الاولاد ترن في آذان المبشرين حتى وصلوا الى رأس التلة وهبطوا الى الجانب الآخر منها .

كان عيد ميلاد ١٩٤٨ مفعماً بالبهجة والمسرات . اجتمع فيه كل المرسلين في ووتشو ، وهيئة المستشفى لتهنئة بيل والممرضات بطفلهم الجديد . هو طفل ماتت امه في المستشفى رغم بذل كل ما في الامكان لانقاذها . فتبناه بيل وسماه بولس . وكان يهتم به شخصياً ويشعر انه مسؤول عن الاعتناء به ، وكانت الممرضات يعملن كل ما في طاقتهن لراحته ونموه .

من عادة بيل انه كان يوزع هدايا صغيرة لكل واحد من معارفه ، ومن الذين تربطه بهم رابطة ما ، وخصوصاً الاولاد الذين في المستشفى. وكانت لعشية عيد ميلاد هذه السنة بهجة خاصة لوجود الاعضاء الجدد: الدكتور سام رانكن وزوجته ، واد كلوي وزوجته ، وافرلي هايس .

واجتمع المرسلون لتناول طعام العشاء الميلادي في بيت الدكتور رانكن ، ثم نفذوا البرنامج الذي اقروه في الليلة السابقة . فتبادلوا الهدايا ، وزاروا الكنيسة لتقديم الشكر لله ، واجتمعوا على سطح المستشفى مع جوقة من مدرسة الاحد المعمدانية ومدرسة الاحد الاتحادية ، وانشدوا الترانيم الميلادية مع جوقة الطالبات الممرضات .

وفي صباح اليوم التالي ، حوالي الساعة السادسة ، بعد ان أكمل بيل دورته في المستشفى اقترح على افرلي هايس ان يذهبا الى التلة لتهنئة جماعة الاتحاد هناك بعيد الميلاد . فدهشت لهذا الاقتراح وقالت : « ولكنهم في هذا الوقت لا يزالون نائمين . » فاجابها : « وهذا ما قصدته باقتراحي . »

فقطعا شوارع ووتشو الهادئة المقفرة ، وركبا زورقاً من زوارق

نهر فو ، ثم تسلقا التلة الى مركز الاتحاد ، فلم يستقبلهما غير الكلاب النابحة من هنا ومن هناك . ولكن بيل ايقظ النائمين بندائه بصوت عال : « ميلاد سعيد . ميلاد سعيد . » فاخذت الانوار تظهر تباعاً . وكان نيوبرن وعائلته يحبون بيل كما لو كان فرداً منهم . وكان هو يبادلهم المحبة بمثلها . فلم يقبلوا إلا ان يتناول هو وافرلي هايس طعام الفطور معهم .

في ١٧ كانون الثاني اجتمع المرسلون المعمدانيون « وجماعة التلة » في بيت الدكتور رانكن ليهنئوا الدكتور بيل والاس بعيد مولده الحادي والاربعين . وكان له آنذاك اربع عشرة سنة في الصين . فأعدت افرلي هايس كعكة العيد ، وامضى الجميع ليلة ساهرة سارة — رغم البرد القارس — واتفق الكل على مداعبة بيل لبقائه عزباً حتى الحادية والاربعين . والسبب الذي دعا الى هذه المداعبة وجعلها فاكهة الموسم الدائمة هو ما حدث في أحد الاعياد التي سبقت عيد الميلاد ، اذ سأل احد أصدقاء بيل الصينيين قائلاً: « لماذا لم تتزوج يا دكتور ؟ » فاجابه بيل مازحاً : « لم أجد من تقبل بي زوجاً لها . » فقال ذلك الصديق وقد أخذ الامر جدياً : « اتريد ان أجد لك زوجة ؟ » فتنحنح بيل وغيّر الموضوع . ولكن الصديق الصيني فهم من صوت بيل ما يعني « نعم » .

في اليوم التالي دهش بيل عندما اتى صديقه الى المستشفى ومعه فتاة ابوها الماني وامها صينية ، وكانت امها معها . فهم بيل معنى هذه الزيارة عندما تقدمت الام نحوه وطوقته بذراعيها وقبلته وبدأت تخاطبه بشأن الزواج .

فاحمر وجه بيل خجلاً وقال لها : « يجب ان يكون في المسألة خطأ . » فأكدت له انها فهمت الحقيقة كما قالها صديقه .

وقطعاً للجدل تذكر بيل انه على موعد لاجراء عملية ضرورية ، وخرج مسرعاً .

بعد هذا جاءت الام ومعها ابنتها مرات عديدة ولكنها ما كانت تجد الدكتور بيل الذي كان يكثر من الرحلات الطويلة في تلك الايام . ولم تنته المسألة الا بعد ان اوضح اصدقاء بيل لتلك المرأة كيف جرت الحادثة .

ان الايام الهادئة التي تلت حوادث الحرب اليابانية مرت بسرعة ، وكانت كالهدوء الذي يسبق العاصفة . ففي الشمال كان الافق يتلبد بالغيوم الحمراء المنذرة بالشؤم . والشيوعية ، باسلوبها الصيني ، اخذت تنتشر وتمتد . ولم يكن بيل والاس يجهل الشيوعيين الذين كانوا يحاربون شانغ كاي شك ، يوم جاء هو الى الصين .

ان الشيوعية ـ بضاعة التصدير الروسية ـ بدأت تنمو في الصين منذ ١٩٢٠ . وفي ما بين ١٩٢١ و ١٩٢٧ نما الحزب الشيوعي الصيني بفضل مساعدات اصدقائه السيبيريين حتى اصبح يتألف من خمسين او ستين الفاً يسيطرون على مليونين من العمال وتسعة ملايين من الفلاحين ، وكان لهم عضو في الحكومة في عهد صن يات سن .

فلما استلم شانغ كاي شك الحكم ادرك خطر التحالف مع الشيوعيين وبشكل دراماتيكي قطع كل علاقة له معهم. فقاوموه ودارت رحى الحرب بشدة بين الفريقين .

وقرر شانغ كاي شك ، القائد الاعلى ، القضاء على الشيوعيين واوشك ان ينجح في ١٩٣٦ . ولكن في السنة نفسها وقعت حادثة اختطاف الشيوعيين للزعيم الصيني المشهور . وهذا الاختطاف مع الخطر الياباني الذي ذر قرنه مكنهم من الحصول على الاعتراف بهم من ذلك الرجل الذي كاد يخدمه الحظ بقطع دابرهم من الارض الصينية .

ثم جرى الهجوم الياباني ففصل الشيوعيين الصينيين في الشمال عن سائر الاراضي الصينية ، فتمت لهم السيطرة الكاملة على القسم الشمالي حيث شرعوا يقوون جيوشهم ويدربون فرقاً من السياسيين ويرسلونهم تحت ستار الحرب للعمل في البلدان الصينية الاخرى .

وتذكر بيل كيف انه لم يوافق على ما قاله الدكتور بادو عندما ارجعت روسيا الى الصينيين الحمر اراضي منشوريا التي احتلتها وجميع المعدات الحربية التي استولت عليها . وكانت روسيا قد اشتركت في الحرب اليابانية ـ الصينية قبل انتهائها بايام معدودة . قال الدكتور بادو في هذه المناسبة : « نحن ، قبل ان نموت ، سنأسف لما حدث في هذا اليوم . »

وعندما وصلت فرق الجيش الصيني الوطني لمحاربة الشيوعيين في الشمال وجدت الجيش الشيوعي متأهباً وعلى تمام الاستعداد للنزال . والجهود التي بذلتها الولايات المتحدة الاميركية للحؤول دون الحرب الاهلية ـ وهي جهود لم يرض عنها الدكتور بادو ـ أعطت الشيوعيين وقتاً لزيادة استعدادهم لغزو البلاد . وفي ١٩٤٨ وضحت النتائج للعيان ولم يبق فيها ما يحتمل الشك . فبالرغم من بذل شانغ كاي شك

اقصى جهده لاستئصال الفساد من صفوف جيشه، وتطهيره من المخربين، ومنع الضباط المشكوك باخلاصهم من التسرب الى المراكز الحساسة فيه ، بدأ التنين الاحمر بابتلاع البلاد جزءاً بعد جزء . ولم يكن يقف الا ليهضم ما ابتلعه .

وتجمع المرسلون امام باب المستشفى لمشاهدة احتفال الصينيين بعيد رأس السنة في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٩ . وانضم اليهم بيل والاس ومس هايس ومس برادلي بعد انتهائهم من عملية توليد في الساعة الثانيـة بعد نصف الليل ، وشاهدوا القسم الاخير من الاحتفال الذي دام حتى الصباح . وفور انتهاء الاحتفال قال بيل : « اني اخشى ان تتبدل الحالة كثيراً قبل ان نشاهد احتفالاً آخر من هذا النوع . »

وفي الربيع نقل شانغ كاي شك عاصمة الصين الوطنية من نانكنغ الى كـانتون . وانقطع الأمل بالصلح عن طريق المفاوضات لان الشيوعيين الصينيين طلبوا منه التسليم دون قيد او شرط . وامست الحالة حالة وجل وفوضى . وشعر المرسلون كلهم بشيء من الخوف، وتطلعوا حائرين الى الحوادث التي تـدور حولهم وهم لا يعرفون كيف تكون نهايتها . ولكنهم صلوا واستعدوا لمواجهة الموقف المقبل مهما كان نوعه.

١٤

أنا جزء من رجل

في ربيع ١٩٤٩ كانت كوايلن في خطر ، وشنغهاي مهـددة بالسقوط ، ونجاح الحمر في سرعـة تقدمهم نحو كانتون مما لا يصدق . وكانت اخبـار المرسلين الذين جربوا البقاء في الاماكن التي يسيطر عليها الشيوعيون مما لا يشجع على البقاء .

قرر اد كلوي وبيل والاس ان يجازفا بالسفر الى هونغ كونغ ، قبل حلول فصل الامطار ، لجلب مصعد قدمته احدى الكنائس للمستشفى . وفي هذا الوقت كان السفر خطراً لان عناصر شيوعية متقدمة كانت تظهر على طول جانب النهر الغربي . وفي الاسبوع السابق جازف اد بمثل هذه السفرة وفي رجوعه اطلق الشيوعيون النار عليه وعلى رفاقه من التلال المجاورة . ورأى اد رفيقه يموت برصاصة اصابت رأسه .

ولما وصلوا الى منطقة الخطر تقدم احد البحارة نحو اد وقال له وهو يشير الى بيل : « هل انت رفيقه ؟ » وكان بيل واقفـاً قرب حاجز السفينة يراقب جانب النهر .

تحير اد ولكنه بهدوء اجاب السائل : « نعم انا رفيقه . ولكن لماذا تسألني ؟ »

«لان قائد السفينة يرغب في مقابلتكما في غرفته ، فتفضل واتبعني . »
ونظر الى بيل واشار اليه ان يتبعه فتبعاه كلاهما . ولما دخلا غرفة القائد قال لهما البحار : « انتظراه قليلاً . » ثم اعتذر ومضى . بعد قليل دخل القائد وعرّف اد بنفسه قائلاً : « ان رفيقك في السفر ، الدكتور والاس ، انقذني من الموت ثلاث مرات ولم يقبل مني اية مكافأة . فانتما الآن ضيفان، تأكلان معي، وتكونان هنا بمأمن اذا عاد الشيوعيون لاطلاق الرصاص علينا . بهذه الطريقة اكافىء الطبيب الكريم بقليل مما يستحقه فضله السابق . »

وتأثر بيل بهذا الاطراء وهز كتفيه حياء وقال : « كنت ارجو ان أكافأ على عملي في السماء ، ولكن يبدو ان الافضل ان نأخذ مكافأتنا الآن . »

سرّ المرسلان في ضيافة وكرم القائد . وكانا اكثر امتناناً وشكراً عندما اطلقت بعض العيارات النارية على المركب بعد دعوتهما الى غرفة القائد بنصف ساعة .

وفي رجوع بيل واد الى ووتشو التقيا باثنين من المرسلين العاملين في مستشفى كوايلن . هذان كانا في طريقهما الى هونغ كونغ . وقد اخبرا ان الشيوعيين اصبحوا قريبين من كوايلن وانهما سمعا ان مواصلة العمل تحت السيطرة الشيوعية ليس بالأمر النافع ولا المستحب . وهما شخصياً قد عزما على الرجوع الى الولايات المتحدة الاميركية .

وفي الايام التالية انتشرت شائعات تفيد ان الوطنيين الصينيين قد استسلموا ، وان الشيوعيين على بعد اميال فقط من المدينة . وعرف بيل

ورفاقه ان الشائعات المتواترة غير صحيحة . وعلى أي حال تسلموا رسالة من القنصل الاميركي في كانتون ينصحهم فيها بان يغادروا جنوبي الصين باسرع ما يمكن . وعندئذ شرعوا يعالجون قضيتهم برزانة واهتمام وينظرون الى المستقبل بحذر .

في هذا الوقت كان بايكر جايمس كوش سكرتيراً لمجلس الارساليات الخارجية للمعمدانيين الجنوبيين وهو السكرتير المنوطة به شؤون البلدان الشرقية . كان كوش مبشراً في كوايلن ثم خلف ثيرون رانكن الذي صار سكرتيراً منفذاً بعد تقاعد الدكتور مادري . وفي ايار دعا كوش اعضاء الارسالية الى اجتماع يعقده في كانتون لدرس الحالة التي تنذر بالشؤم . فاختار بيل والمرسلون الذين معه في ووتشو اد كلوي ممثلاً لهم في الاجتماع .

لما رجع اد من الاجتماع اجتمعوا كلهم في بيت سام رانكن ليسمعوا تقريره الذي جاء فيه ان قرار الدكتور كوش كان بسيطاً واضحاً وسديداً . فهو بعد ان اخبرهم بتقارير المرسلين في القسم الشمالي واختبارات الذين كانوا قد اختاروا البقاء في المناطق التي احتلها الشيوعيون استخلص ان الجميع متفقون على صعوبة العمل تحت السيطرة الشيوعية كما اظهر الاختبار ، ولكن البعض يرون في النتائج القليلة الممكنة ما يوازي صعوبات البقاء . فعلى المرسلين انفسهم ان يختاروا : اما البقاء او الرجوع الى الوطن او الانتقال الى اماكن اخرى . وذكر ان مفاوضات تجري الآن لأجل العمل التبشيري في مناطق جديدة ، وان المجلس سيساعد، بكل امكاناته،كل المرسلين مهما كانت قراراتهم.

فاذا قرروا البقاء حيث هم فليكن ذلك مبنياً على شعورهم بان الله هكذا يريد . ولم يحدد وقت ما لاتخاذ القرارات النهائية مع ان تقدم السيل الشيوعي مما يستدعي الاسراع في بعضها . ثم صلى المجتمعون وطلبوا الهداية من الله وبعد ذلك رجع كل واحد الى مركز عمله .

ولما انهى اد كلوي بيانه عن الاجتماع صمت الجميع برهة ثم تكلم بيل بهدوء ولكن بحزم فقال :

« القرار لا يمكن ان يتخذ بصورة جماعية تشمل كل مرسل في المركز ، بل يجب ان يقرر كل شخص لنفسه حسب اعتباراته الخاصة . ويجب ان يحترم كل واحد قرارات الآخرين مهما كانت . »

فاقتنع الجميع ، ولم يقل احد شيئاً بعد ذلك . وفي الايام التالية أخذ كل واحد يختار ما يوافقه . فبعضهم كان طريق اختيارهم سهلاً واضحاً ، وبعضهم اختاروا بعد صلوات كثيرة وتفكير طويل .

وفي هذه الاثناء كانوا يتلقطون الاخبار الواردة من المراكز الاخرى ويدرسون القرارات التي اتخذت هناك . ففي بعض المراكز طلب الاخوة الصينيون من المرسلين ان يذهبوا ، ليس لانهم يكرهون بقاء هؤلاء الرسل بينهم بل لان بقاء الاجانب بينهم قد يؤثر على قضيتهم ويعيق سيرها . وقد اثبتت الاخبار الواردة من المناطق المحتلة حكمة هذا القول ، في بعض الحالات . فهل يشعر المسيحيون الصينيون في ووتشو مثل هذا الشعور ؟ انهم لم يعربوا عن شيء من هذا للاميركيين حتى هذا الوقت . ولو انهم فعلوا لكانوا سهلوا على البعض اتخاذ قراراتهم النهائية .

كان بيل اسبق الجميع الى اعلان قراره فقال انه سيبقى ، لان ترك المستشفى في هذا الوقت مجازفة خطرة ، ولانه هو الشخص المناسب للبقاء فيه .

وبلانش برادلي كانت على وشك التقاعد . وهي تتكلم اللهجة المندرينية ولا تحسن التكلم جيداً باللهجة الكانتونية لذلك تشعر بان بقاءها يعرقل العمل . وبناء على هذه الاسباب قررت الذهاب .

اد وبتي كلوي قررا الذهاب لان لهما فرصة سانحة للعمل في تايلاند بين الصينيين . وهما يشعران بوجوب انتهاز هذه الفرصة، لان رسالتهما في بدئها وهما يتوقان للعمل في مكان أكثر استقراراً .

كانت جاسي غرين على اهبة الذهاب الى اميركا لتقضي مدة اجازتها ، ولكنها فضلت التأجيل في الوقت الحاضر وآثرت البقاء ، لأن عملها ناجح ومزدهر . وتشعر انها اذا ذهبت الآن فقد لا يمكنها الرجوع في ما بعد .

وأطلعت افرلي هايس بيل على القرار الذي اتخذته ، وذلك بعد الانتهاء من اجراء عملية جراحية في أحد الايام . قالت له : « أنا سابقى هنا يا بيل. فالمستشفى يحتاج الى ممرضة من المرسلين، وقد صرت انا على وشك اجادة استعمال اللغة المطلوبة . »

فتبسم بيل لزميلته التي عزمت على البقاء مثله وقال لها : « لقد حسبت لك ذلك . » ثم اضاف بلهجة أكثر جداً : « هل أنت متأكدة ان البقاء هو ما تريدينه وانه هو انسب ما تختارينه ؟ ان الحالة ستتبدل وستكون اقسى مما هي الآن . »

« انا متأكدة ، ومتأكدة تماماً . »

اما سام ومريم رانكن فقررا الذهاب ولكن بصعوبة وبعد تفكير وجهد . لان ابنتهما الصغرى كانت تحتاج الى عمليـــة جراحية من نوع خاص وهما يفضلان اجراءهـــا في اميركا . انهما يذهبان على أمل ان تتاح لهما فرصة اخرى .

الخلاصة ان خمسة قرروا السفر وثلاثة قرروا البقـــاء . وكان لكل قرار من قراراتهم ما يدعمه .

كان السيد كلوي وعائلته اول من تركوا ووتشو الى هونغ كونغ . وفي صباح اليوم الذي سافروا فيه كان بيل واد يتمشيان على التلة التي وراء المستشفى . فقال اد : « انا أعتقد ان ما قررته هو الذي كان يجب ان اقرره يا بيل . فمجال العمل في بنكوك واسع . والشيء الذي يؤسفني هو اني افارقكم أنت وافرلي وجاسي . ومع ذلك فانا اسائل نفسي عما اذا كنت قد فعلت ما استحق اللوم عليه . »

فاجابه بيـــل : « لا . فانا أشعر انك فعلت أحسن ما يمكنك ان تفعل . فانت رب عائلة وعليك ان تهتم براحتهم . واذا بقيت هنـــا فستكون دائماً قلقاً عليها ومشغول البـــال لاجلها . فلا يمكنك هنا ان تنصرف بكليتك الى العمل كما لو كنت في تايلاند . أما أنا فشأني غير شأنك . اني رجل عزب او جزء من رجل كما يقول الصينيون ، غير مسؤول عن أحد . »

وكلمة « جزء من رجل » تعبير صيني قديم يراد به انقاص القائل من قيمة نفسه تأدباً ومجاملة . وقد افادت هنا انه رجل عزب لا يحمل

مسؤولية أحد ويمكن الاستغناء عنه . واذا خاطر فانمـــا يخاطر بنفسه فقط . وقد اعده الله لمثل هذا الوقت وهيأته الظروف لاتمام هذه الغاية . فهو الشخص الذي يجب أن يبقى ليواجه المستقبل المجهول وليعطي مستشفى ستوت ميموريال والشهادة المعمدانيـــة فرصة للاستمرار في العمل متى وصل الوبأ الشيوعي .

« انا جزء من رجل . » هذه العبارة كررها اد كلوي أمام زوجته عندما كانا يتحادثان وهما في السفينة التي تنقلهما الى هونغ كونغ . وقال اد أيضاً : « ان بيل قال هذه العبارة وهو يقصد معناها ، لانه لا يقدّر قيمة نفسه ولا يهتم لما يأتي به الغد المتلبد بالغيوم الحمراء . »

وبعد ايام قليلة مر كاهن من المرسلين الكاثوليك في ووتشو لأخذ بعض الادوية من المستشفى وزار صديقه الحميم بيل والاس وفي اثنـــاء الحديث قال له : « سمعت انك ستبقى هنا يا بيل . »

« ولماذا لا ابقى يا محترم . وانتم ستبقون أيضاً أليس كذلك ؟ »

« صحيح ، نحن سنبقى ولكن يستغنى عنا . »

« وعندئذ يجب ان يكون هنا من يهتم بكم . »

ضحكا كلاهما وشكرا هذه الزيارة التي اتاحت لهما فترة ارتياح مما هما فيه من التوتر العصبي والهم المستديم .

لم يكن في تصميم بيل شيء من أعمال البطولة . واختياره البقاء كان مبنياً على أساس شعوره بالواجب المفروض عليـــه وهو الشعور الذي أحس به عندما كان اليابانيون يجتـــاحون جنوبي الصين قبل خمس سنوات .

بعد هذا بقليل حان وقت سفر مس برادلي وسام رانكن وعائلته . فكان لوداعهم مظهر مؤثر بكت فيه النساء بهدوء وهز الرجال ايدي بعضهم البعض بصمت وسكون . لقد كانوا فرحين بالتعاون معاً في العمل وكانوا كلهم يودون لو سمحت لهم الظروف باكمال ذلك التعاون الانساني المثمر .

ـ « قد نعود الى التعاون يوماً ما يا بيل . »

ـ « ان شاء الله يا سام . اهتم بنفسك وبعائلتك وخصوصاً بابنتي الصغيرة . » كان بيل مولعاً بالابنة الصغيرة ذات الشعر الذهبي التي يأخذها ابوها سام رانكن لاجراء عملية جراحية لها في اميركا .

وقف بيل وجاسي وافرلي على أرض المرفأ النهري وظلوا هناك حتى غابت السفينة عن انظارهم . ثم عادوا الى المستشفى متأثرين صامتين .

وزاد حزنهم وتأثرهم ان نيوبرن المرسل جاء بعد اسبوعين ليخبر بيل ان سكرتير الاتحاد الارسالي المسيحي في الشرق امرهم بالانتقال الى هونغ كونغ ، وانه جاء ليودعه .

بعد سفر نيوبرن وعائلته كان من الصعب على بيل ان ينظر ، عبر نهر فو الى التلة حيث كان يقيم صديقه ، دون ان يشعر بغصة الحنين الى ذلك المكان المهجور .

ثم تراكمت الاشغال . فالمرضى في المستشفى كثيرون ، والطالبات الممرضات كن يغادرن المستشفى بسبب الازمة المحدقة بالبلاد . وكان على بيل ان يشتري المواد الضرورية ويخزنها حاسباً حساب الوقت الذي

ينقطع فيه عن الاتصال بالاسواق الخارجية . فالستار الخيزراني قد فرض في شمالي الصين ، وينتظر ان يجري مثل هذا في جنوبيها .

وقد اشتركت الطبيعة في تعقيد الامور . فالنهر الغربي ونهر فو ثارا في تموز ١٩٤٩ وهاجما ضحيتهما القديمة ــ ووتشو . كان الفيضان هذه المرة مخيفاً . وقد اضطر بيل في الأحد الثاني من تموز ان يذهب الى الكنيسة والمياه تغمر قدميه . ولما خرج المصلون كانت المياه قد وصلت الى الدرجات العليا فاستأجر بيل قارباً يُستعمل لنقل الناس من مكان الى مكان ، ليرجع الى المستشفى .

وفي المساء كانت المياه قد وصلت الى ابواب العيادة . وأدرك بيل انها ستدخل الى الغرفة ، فهذا الفيضان لم يحدث مثله في الست عشرة سنة التي قضاها في الصين . وفي الصباح التالي نقلوا المعدات من العيادة الى المستشفى .

وامتدت المياه الموحلة من الارض المحيطة بالمستشفى حتى الهيكل الوثني القائم بعيداً على منحدر الوادي الآخر . وكانت معظم انحاء المدينة تحت مد المياه الطاغية .

كان بادو يقول ان المياه لا تصل الى درج المستشفى . وعندما بدأ بيل يشك في صحة ما قاله بادو بدأت المياه بالتراجع تاركة وراءها الخراب ، والوحل ، والحمأة ، والبيوت المتصدعة ، والاشجار المقتلعة ، والامراض . ولكن الصينيين تعودوا مجابهة مثل هذا الطوفان ولذلك كانوا يخرجون الى البناء ويصلحون ما أتلف بنشاط واتزان . وفي هذه المرة لم يشذوا عما تعودوه .

اما مشكلة بيل في المستشفى فكانت انقطاع الماء والكهرباء ، وتدفق سيل من ضحايا الطوفان يطلبون المعالجة السريعة . وعلى كل حال لم تخل هذه الرزايا من الحسنات . فانها حولت تفكير الناس الى اصلاح ما فسد واراحتهم، ولو الى حين،من التفكير بتقدم الشيوعيين الشرس.

بعد انتهاء الطوفان قرر المرسلون في جنوبي الصين اقامة اجتماعهم العادي في كانتون رغم قلة عـــدد الباقين منهم . ولحسن الحظ كان الطوفان قد اوقف تقدم الزحف الشيوعي موقتاً . فقرر بيل وافرلي وجاسي ان يحضروا الاجتماع كلهم لانه قـــد يكون الفرصة الاخيرة للاجتماع برفاقهم المرسلين . وكان انتظار موعد الاجتماع والتفكير به يدخلان أشعة البهجة الى نفوسهم .

في يوم السفر لحضور الاجتماع ُطلب بيل لاجراء عملية جراحية لا تؤجل ، فاستاء من الصدفة ولكن لم يكن له ان يختار غير البقاء واتمام الواجب . فارسل افرلي وجاسي وأعطاهما رسالة الى جين ولويزا هيل الباقيين في كانتون مع من بقي . لانه قد يمر وقت طويل قبل ان يراهما.

واشتغل بيل باجتهاد في اثناء غياب مساعدتيه في كانتون . وبعد ظهر اليوم المقرر لرجوعهما ذهب ليغتسل ويبدل ثيابه ثم يلاقيهما في المطار . وفيما هو في الطريق سمع صوت مدير الاشغال يناديه « وا اي سانغ ، وا اي سانغ !!»

« ما الأمر يا تشان ؟ »

« ورد خبر يقول ان الشيوعيين اسقطوا الطائرة الآتية من كانتون

منذ نصف ساعة . قال قائد الطائرة ان الشيوعيين هاجموه ثم انقطعت اخباره . ولم يعرف شيء بعد هذا . »

فاضطرب بيـــل وطلب العون من الله : « يا الله نجهم من الخطر واحرسهم . » ان المصيبـــة بهما أكبر من ان تحتمل . ثم ارتدى ثيابه بسرعة وانطلق .

فناداه مستر تشان : « الى اين انت ذاهب ؟ »

« الى الجمرك في المطار لعلهم يعرفون شيئاً جديداً . »

في الجمرك أكدوا ان الطائرة سقطت وان ما عرفوه من اخبارهـا يفيد ان جميع من كانوا فيهـــا ماتوا . وكانوا يحاولون ان يعرفوا من مطار كانتون اسماء الركاب .

جلس بيل ينتظر الخبر الجديد ويصلي مردداً « يا الله نجهما . يا الله احفظهما سالمين . »

ومرت ساعتان ولم يحصل مأمور الجمرك على لائحة اسماء المسافرين في الطائرة المنكوبـة ، ولكن بيل كان واقفاً والدموع تنهل على خديه وهو يقرأ برقية حملها اليه تشان تقول: « سبقتنا الطائرة . سنصل بطريق النهر الاثنين . افرلي وجاسي . » ووصلتا كلتاهما يوم الاثنين .

وبعد الاجتماع في كانتون قرر بايكر جايمس كوثن ان يزور مراكز المرسلين المعمدانيين في جنوبي الصين . وقد تكون زيارته هـــذه آخر زياراته لهـا قبل ان يحتل الشيوعيون المناطق التي هي فيهـــا . ورغم الاخطار سافر هو وسكرتيرته لوسي سميث الى ووتشو . وفي سفرتهما

من هونغ كونغ الى ووتشو راقب الدكتور كوثن مناظر الاراضي في جنوبي الصين وهي تتقلب بين الاخضر والاسمر الادكن . وكان في الوقت نفسه يفكر في المدة التي يستطيع المعمدانيون ان يواصلوا فيها خدمة تلك المنطقة . لقد هددتهم الحرب واطبقت عليهم مرتين في خلال بضع سنوات : اليابانيون اولاً ، والآن الشيوعيون . فما هي المدة الباقية لهم ؟ ثلاثة اسابيع ؟ ثلاثة أشهر ؟ ان انتصار الشيوعية نتيجة ظاهرة اكيدة لا جدال في ذلك . ثم مرت في رأسه صور اخبار المرسلين في شمالي الصين فغضن جبينه الاهتمام بما سيأتي به الغد القريب.

كان الدكتور كوثن يتوق لرؤية الطبيب التنسي الطويل الذي يذكره دائماً بالممثل الصامت كاري كوبر . وهو يقدر له تصميمه على البقاء وعدم انهزامه امام الشيوعيين ، وكان دائماً يذكر قوله : « سابقى ما دمت قادراً على الخدمة . » ومع ذلك لم يتمالك ان صلى من اجله وسأل له السلامة . ثم لمح الاشارة التي تدل على وجوب استعمال الاحزمة فعرف ان الطائرة اوشكت ان تنزل في مطار ووتشو .

بعد دقائق كان بيل وافرلي وجاسي يستقبلون ضيفهم ، فصاح به بيل بلهجته الكانتونية : « تكسي » فضحك كوثن ورمى بمعطفه وحقيبته الى قارب بيل . وقبل كل شيء سألوهما عن سام رانكن وعائلته ، ومس برادلي ، واد كلوي وعائلته . وشكروا الله لما علموا انهم جميعاً سافروا الى الوطن ، اميركا ، وقال بيل : « لقد احسنوا الخدمة هنا ولكن هذا المكان ليس لاصحاب العائلات في هذا الوقت .

في مساء ذلك اليوم كان كوثن ينتظر الآخرين على مدخل بيت

الدكتور بادو قديماً . فرأى الشمس في مغيبها تتوج رأس المستشفى بتاج ذهبي اللون وتوشح التلال بحلة وردية وتكسب الحجارة الدكناء لوناً احمر ناعماً .

ثم سمع كوثن وقع اقدام فانتبه والتفت فاذا افرلي هايس بثوبها الرسمي الابيض قادمة من المستشفى . فبادرها بقوله : « بالحقيقة لا يدل مظهرك على انك اشتغلت كل النهار . »

فهزت رأسها وقالت : « لقد اشتغلت كل النهار ، وكل الليل أيضاً . جاءنا جندي مشى على قدميه اكثر من مئة ميل فاصيب بالغنغرينا وقد اشتغلنا كل الليل لأجل سلامته وأظن اننا نجحنا . »

فاجابها كوثن : « ان هذا لعجيب ! » ثم حول نظره الى المستشفى وقال : « الا يدعونه حياة الصين ؟ »

في هذه اللحظة أقبل والاس راكضاً ، والسماعة الصدرية تتدلى من جيب سترته . فلحظ كوثن ان والاس يركض دائماً فقال مازحاً : « أظن انك الدكتور والاس ؟ » فقاطعته افرلي ضاحكة وقالت : « يجب ان تفاخر به يا دكتور كوثن ! اما نحن ، فعندما يحضر للعشاء في الوقت المعين ، في ما عدا ايام الآحاد، نعتبر حضوره امراً غير اعتيادي وفرصة ثمينة . »

فقال بيل : « لقد مر وقت طويل بعد الاحد . فلنذهب لنأكل الآن . »

وبعد العشاء اجتمع الدكتور كوثن بالمرسلين وبحثوا في المشاكل التي سيواجهونها في القريب العاجل .

قال الدكتور كوثن ببطء ورزانة : « من مشاكل البقاء هنـــا ان الذي يبقى لا يمكنه ان يحصل على حمايـــة الدولة الاميركية ، لانها لن تعترف بنظام الحكم المقبل في الصين . » فسأله بيل : « هـــل صادر الشيوعيون شيئاً من الممتلكات الاميركية ، حتى الآن ؟ »

فاجاب كوثن: «حتى الآن لم يأخذوا شيئاً من ممتلكات الارسالية ، ولكن مطالبهم تزداد يوماً بعد يوم. ففي أحد الاماكن طلبت السلطات الشيوعية المحلية ان تكون منشآت الارسالية لها ، وسمحت للمرسلين بان يستعملوها كما كانوا يستعملونها قبلاً بدون بدل . »

فقالت جاسي : « أنا أفهم من هـــذا التصرف أنهم يقصدون امتلاكها . »

فاجابها كوثن : « قد تكون نواياهم هكذا ، ولكن اذا ثبتنا نحن في وجوههم فقد يتوقفون عن تنفيذ خطتهم الى حين ، تجنباً لاسخاط الرأي العالمي . »

وكان بيل والاس جالساً على الارض مستنداً الى الحائط ينظر الى المستشفى القديم المحبوب ويفكر بمستقبله فقال : « ألا تظنون اننا نفعل حسناً اذا حولنا ملكية ما لنا هنا الى مجمع لانغ كوانغ المعمداني ؟ فربما يصير الشيوعيون عندئذ أقل جشعاً لامتلاك مؤسساتنا او لوضع ايديهم عليها . »

هذه الفكرة كثيراً ما كانت تجول في خاطر الدكتور روبرت بادو وقد حبذها الآن خلفه الدكتور والاس . ولكن الدكتور كوثن رد على

هذه الفكرة بقوله : « قد يكون هـــذا الاجراء أفضل شيء للمستقبل البعيد ، اما في الوقت الحاضر فان الملاكين الاجانب اوفر حظاً عنـــد الشيوعيين من الملاكين الصينيين . »

وكانت اخبار القتل بالجملة وذبح المتمولين في الشمال تتسرب الى الخارج فتهز ضمير العالم ، ثم اضاف قوله :

« وبعد كل شيء الملك للرب وعلينا ان نثق ان الله يستعمل املاكه لأجل مجده ، كيفما تبدلت الامور . » فقال بيل : « ونحن ايضاً شعب الرب فهو يظل معنا حتى اذا تركنا فنصل اميركا . »

وفي اليوم الثـــاني كان بيل وافرلي وجاسي وغيرهم من زعمـاء المعمدانيين الصينيين يودعون كوثن وسكرتيرته لوسي سميث في المطار وهما عائدان الى هونغ كونغ . ولما هز الدكتور كوثن يد بيل قال له : «تذكر يا بيل انه ستصلى صلوات كثيرة من أجلك في الأشهر القادمة.»

فقال بيل : « ونحن نعتمد على تلك الصلوات التي تشدد عزائمنا . »

وبعد هـــذا بدأ الانتظار الطويل . وكان بيل في اثنائه يحاول ان يؤكد لافرلي وجاسي انهم سيتغلبون على المصاعب كما تغلب هو عليها من قبل ، خلال الزحف الياباني . ولكنه ، في قرارة نفسه ، كان يشعر بأن لا شيء يستطيع ان يسكت صوت القلق من المستقبل المجهول .

وكان العاملون للسياسة الشيوعية يتسربون الى كل ناحية من نواحي الحياة في ووتشو ومن مراكزهم السرية كانوا يشيعون اخبار استعدادهم التام للسيطرة على المدينة . فكانوا من جهة ينشرون الذعر بين السكان ،

ومن جهة اخرى يوزعون الوعود المعسولة والاماني الطيبــة . وهكذا كانوا يخلقون البلبلة بين النـاس ويفسدون الاخلاق . وكانت الحالة اصعب مـا تكون على المسيحيين الذين عرفوا ان المبادىء الشيوعية تخالف كل المبادىء المسيحية التي اعتنقوها ، وكانوا حـائرين بين ان يهجروا المدينة وبين ان يبقوا فيها .

وقد اصيب بيل وزعماء الكنيسة بصدمة شديدة عندمـا وجدت امرأة مسيحية ورعة تشتغل في المستشفى ، في فعل الزنى . وقد استغل الشيوعيون هــذه الحادثة لاساءة سمعة المستشفى وتحقير قيمة المبادىء المسيحية واثارة الشكوك حول نزاهة المسيحيين .

ولكن نتيجة هــذا الافتراء جاءت معكوسة فقد عمّدت الكنيسة المعمدانية في ووتشو تسعة عشر شخصاً اهتدوا حديثاً ، كأن الله اختار اضعف برهة ـ حسب التعبير البشري ـ ليعلن قوته الفعالة في حيــاة الناس . وقد شددت هذه الحادثة عزائم بيل وافرلي وجاسي .

ولكي يخفف بيل توتر الاعصاب المستولي على هيئة المستشفى اقترح الخروج في نزهات دورية . فكان يربط ماعونــة وراء زورقه وينقل فيها الطالبات المرضات واعضاء هيئة المستشفى الى جزيرة « تشكن باسكيت » أي جزيرة سلة الصيصان فيمرحون هناك ويسبحون. وكان يقيم مباريات تزلج فوق الماء للشبيبة بينهم فيشد الزلاجــة الى قاربه ويسير به باقصى سرعته محاولاً ايقاعهم في الماء .

وحاول ان يبعــد الجميع عن التفكير بهموم الوبأ الاحمر الزاحف نحوهم ولكنه لم ينجح الا جزئياً . وكانت المشاكل تتتالى . ففي كل يوم

تقريبــاً كان قسم من الطالبات يتركن المدرسة ويذهبن الى بيوتهن او يغادرن البلاد مع عائلاتهن . ولم يكن شيء يخفض تأثير الخوف الذي ينخر النفوس .

في أواخر الصيف جيء بولد على وشك الموت الى المستشفى . كان هذا الولد مصاباً بالملاريا . فحقنته احدى الممرضات الطالبات بدفعة من الكينا ولكن العلاج جاء بعد فوات الاوان فمات الولد . ورغم انه كان سيموت على كل حال ادعى أهله انه مات بسبب خطأ في معالجته وهددوا باقامة الدعوى على المستشفى .

والقانون الصيني لا يحمي الاطباء والمستشفيات الا حماية طفيفــة . فهم دائماً معرضون للملاحقة جزائياً وحقوقياً ودفع الغرامات التي تكون في اكثر الاحيان خياليــة كيفية . فمدير المستشفى يجب ان يكون حكيما كالحيات ووديعاً كالحمام . وكان بيل يكره هذه الاساليب المعوجة فلم يداور بل عالج الموضوع رأساً .

طلب أهل الولد ثلاثة آلاف دولار من نقد هونغ كونغ . فأجابهم بيل انهم لا يحصلون على شيء اذا لجـأوا الى القضاء ، ولكنه هو يعلم حاجتهم ويقدر خسارتهم لولدهم ويشعر معهم بالمصيبــة ولذلك سيساعدهم بما هو ممكن .

أدرك بيل ان دفع المساعدة من المستشفى رأساً تكون اثباتاً لاتهام المستشفى بالخطأ فسعى مع مدير أشغال المستشفى لدفع المساعدة من باب آخر . وبعد الانتهاء من هذه المشكلة المعقدة عاد الدكتور بيل الى عمله الجراحي مرتاح البال .

كان الشيوعيون في هذا الوقت يتقدمون عبر النهر الغربي . وفي آخر تشرين الاول كان سكان ووتشو في هلع وضيق . وصارت المحلات التجارية ، التي لا تقفل عادة إلا في الساعة التاسعة مساء ، تقفل قبيل غياب الشمس . وقل ظهور الناس في الاسواق ، وأصبح اللصوص أجرأ من ذي قبل . وكان لا يزال في المدينة جماعات من الجنود الوطنيين أكثرهم يقيمون في الخيام على جوانب النهر ، والباقون في التحصينات القديمة على التلال . ولكن الشيوعيين المحليين كانوا ينشرون الاخبار عن احتلال المدينة وشيكاً .

وكانت هذه الاخبار تنتشر بسرعة ، وتنتقل بسرعة الى كل ناحية . وكان الناس مستعدين لتصديقها ، لان الخوف هيأ التربة الصالحة لامتداد جذورها ونموها .

وسمع بيل مرة ان المستشفى سينهب في الليل فأشار عليه زملاؤه بأن يخبىء الاشياء الثمينة . فأجاب بأن ذلك لا ينفع لان المخبآت تكتشف في أكثر الاحيان،او ان القيمين عليها يعذبون الى ان يخبروا عن مكانها. ومع ذلك سهر وحده كل الليل في المستشفى لحراسته . لم يحدث شيء ولكن الذعر والاوهام كانت تزداد انتشاراً .

كان اللاجئون والجنود المتقهقرون من المدن التي استولى عليها الشيوعيون يمرون في ووتشو الى القسم الغربي من الصين تباعاً . وكان الضباط والمسؤولون الرسميون يعترفون بخطط التراجع واخلاء المدن ويحثون الناس على الانتقال الى القسم الغربي . ولكن هيئة المستشفى

صارحتهم بأنها ستبقى . ولما عرف الناس ان الدكتور بيل سيبقى اشتدت نوعاً ما عزائمهم المتراخية .

وفي آخر تشرين الاول اضطر بيل وافرلي لصرف الطالبات الممرضات ما عدا اثنتين رغم انهما استلما علماً بتسجيلهن رسمياً لدى الدوائر الحكومية المختصة وكانا من زمن طويل ينتظران هذا العلم . وفي اليوم الذي صرفا فيه الممرضات سمعا ان كوايلن الواقعة الى الشمال الغربي من ووتشو قد سقطت وهذا معناه ان ووتشو قد اصبحت آخر مركز للارسالية المعمدانية غير محتلة في كل الصين .

قبل ان يسافر سام رانكن واد كلوي وعائلتاهما ومس برادلي كان اكثر الناس يظنون ان الاحتلال الشيوعي سيتم خلال اسابيع ، ولكن انقضى أكثر من خمسة أشهر ونصف شهر بعد سفرهم والشيوعيون لم يصلوا الى ووتشو بعد . والآن في اثناء اجتماع هيئة المستشفى سأل أحد الاطباء الدكتور والاس عن رأيه في المدة الباقية لوصول الشيوعيين الى ووتشو فأجاب انهم سيكونون هنا في خلال شهر . وقد صدق حدسه فكان الشيوعيون على مسافة ساعات فقط من ووتشو يوم عيد الشكر في السنة ١٩٤٩ .

أعدّت افرلي وجاسي عشاء تقليدياً ، ثم جلس المرسلون الثلاثة يتحدثون . وكانت الشائعات متنوعة يفيد بعضها ان الجنود الوطنيين سينسحبون من المدينة تلك الليلة ، وبعضها يضيف انهم سيحرقونها قبل انسحابهم وذلك خير من تركها عامرة لاعدائهم . وكان الاهلون

يخافون من النار واللصوص أكثر من أي شيء آخر . أمـــا المرسلون الثلاثة فكان يؤلمهم القلق من المجهول الذي سيأتي به الغد .

قالت افرلي بعد التأمل الدقيق : « ان هذا الانتظار مما يؤسف له ، لانه نوع من الذهول عما نحن فيـــه ، فكأننا من المتفرجين ولسنا من ممثلي الرواية . »

فقالت جاسي : « ان ما يؤسفني أشد الاسف هو الخوف البادي على وجوه الجماهير . »

فأجابهما بيل : « هذا ما أشعر به أنا أيضاً . ففي هذا الصباح جاءني السيد تشان وأخبرني انه قد قرر ان يأخذ عائلته الى مكان آخر بعد ان قرر سابقاً ان يبقى هنا معنا . وقد رأيت وجهه مصفراً من الخوف . »

في ذلك الوقت كانت فرق الجيش الوطني تسير صفوفاً في الشوارع وكانت اصوات وقع حوافر بغالهم تسمع من المستشفى .

وبغتة صرخ بيل وقال : « اسمعوا . أليست طلقات المدافع الرشاشة ما اسمعه ؟ اعتقد انه عن سطح المستشفى يمكننا ان نراقب ما يجري . »

واقفلوا الابواب وركضوا مسرعين الى درج المستشفى ، وصعدوا الى الطبقة العليا . ومن هناك نظر بيل وأشار نحو التلة التي الى شمالهم . فقالت افرلي بعد ان حدقت بنظرها نحو الجهة التي اشار اليها : « اني لا ارى شيئاً . » ولكن في تلك اللحظة ظهر لمعان الرصاص صادراً من حرجة قصب الخيزران على التلة . ورأت ايضاً جنوداً شيوعيين ينطلقون مسرعين ويدخلون المدينة .

بعد هذا بساعتين كانت صفوف طويلة من الجنود المرتدين الثياب الخضراء تدخل المدينة . ولم تكن أحذية اولئك الجنود مما يقطع سلسلة الصمت المخيم او مما يثير الغبار لانها من نوع الاحذية التي يلبسها لاعبو التنس . وعلى مقدم كل قبعة من قبعاتهم كانت تلمع نجمة حمراء .

وبعـــد فترة قصيرة من الزمن أمست ووتشو ومستشفى ستوت ميموريال والمرسلون المعمدانيون الثلاثة وراء الستار الخيزراني .

١٥

السِتار الخيزراني

لم تكن الحياة تحت الحكم الشيوعي معقدة او صعبة في بادىء الامر، لان اسلوبهم في الحكم في ووتشو كان كاسلوبهم في كل مكان آخر احتلوه . فكانوا يحاولون كسب ثقة الناس بهم اولاً . فرغم انهم الفوا منظمات شعبية تحت سيطرة الحزب الشعبي الا ان اكثر النـــاس كانوا يشعرون بالاطمئنان والسلام .

وفي اليوم التالي لدخول الشيوعيين اتى ضابط ومعه عدد من الجنود الى المستشفى وطلبوا ان يقيموا فيه . فاجابهم بيل بلطف قائلاً : « ان المرضى تملأ المستشفى وان العاملين فيه لا يؤذن لهم بالسكن خارجاً . » ولكنه بعد ان سمع من الضابط تهديدات مبطنة وافق على اعطائهم مكاناً في الطبقة الاولى .

فخافت الممرضات واضطرت افرلي ان تنقلهن الى مكان آخر وتنـــام معهن . لم تكن هي نفسها تشعر بان وجودها معهن يوفر أي ضمانة ، ولكن الممرضات شعرن بالاطمئنان لوجودها بينهن . ووضع الدكتور والاس سريره على أعلى الدرج بين الطبقة الاولى التي فيهـــا

الجنود والطبقة الثانية . فاصبح على من ينتقل من الطبقة الاولى الى الثانية ان يمر فوقه . بهذا التصرف الحازم دل بيل على شجاعة بعيدة عن روح المقاومة وهي في الوقت نفسه تستدعي احترام الجنود . وكان الجنود انفسهم مأمورين بان يتصرفوا بكل احتشام ولياقة ليربحوا ثقة النـــاس في بادىء الأمر خصوصاً لانهم كانوا يدخلون الى مدن تكثر فيهـــا المشاكل والفوضى ولا تخلو من الفساد في الادارة .

وبينما كان بيل مرة مقبلاً على مكتب الممرضات سمع افرلي تقول بغضب وانفعال شديد : « هذا مستحيل . » وكانت عيناها ووقفتها ويداها المسندتان الى خصرها تنم جميعها عن التصميم على مقاومة ضابط تابع للادارة الجديدة في ووتشو .

فسألها بيل : « ما الخبر يا افرلي ؟ » فاجابته : « هذا الرجل يطلب ان أبعث عشر ممرضات بثيابهن الرسمية الى حفلة الاستعراض العسكري في خلال ساعة فقط . وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك لاننـــا بحاجة الى الممرضات وليس لدينـــا ما يكفي منهن . نحن هنا مستشفى ، ولسنا وحدة عسكرية . »

تبسم الضابط ، ولكن ابتسامته كانت جافة وباردة ، وقال : « على هذا المستشفى ان يتعاون مع فريق الشعب اذا كان يأمل ان يعترف به الشعب ويحافظ عليه . ان تعاونكم معنا يبرهن عن نواياكم الطيبة . »

همت افرلي بالاجابة على كلامه ولكن بيل اسكتها وقال : « ان مستشفانا سيكون ممثلاً في الاستعراض . »

فانحنى الضابط وذهب . عندئذ التفتت افرلي نحو الدكتور بيـــل

مدهوشة وقالت : « أين في العالم كله ... ؟ » فقاطعها بيل وقال : « ارسلي اربع ممرضات ، ونحن باستطاعتنا ان نعمل عملهن مدة بضع ساعات . يجب ان نظهر لهم حسن نيتنا . »

فاحتجت وقالت : « انه يطلب عشر ممرضات لا اربع ممرضات. »

« ولكن أنا قلت له ان مستشفانا سيكون ممثلاً في الاستعراض ولم اعين عدداً . »

فاشارت افرلي الى الطبيب كي يسكت الى ان يبتعد عنهما أحد الخدم الذي كان يكنس الأرض قربهما . ثم قالت : « انا لا اثق بهذا الخادم الجديد البتة . انه دائماً يحاول ان يسمع كل خبر ، والممرضات تقشعر ابدانهن لدى رؤيته . الا تظن انه قد يكون جاسوساً ينقل اخبارنا ؟ »

حك بيل ذقنه وبعد تفكير اجاب : « ربما كان كذلك يا افرلي لانهم يتسربون الى كل مكان ويدخلون انفسهم في كل أمر . والسيد تشان يقول ان الحيطان لها آذان الآن . ويجب ان لا نتكلم في مواضيع لها صلة بالسياسة الا ونحن على يقين باننا وحدنا ، واننا بعيدون عن اعين الرقباء وآذانهم . »

وفي اليوم الثاني قرأوا في الجريدة ان « استعراضاً اختيارياً » جرى في ووتشو برهاناً على ان الشعب يؤيد الحكم الجديد . وكانت تتخلل الاجتماعات الجماهيرية مظاهرات تلقائية . وقد صودرت الكنيسة المعمدانية لاجتماع من هذا النوع يعقد بعد ظهر يوم الاربعاء وقبل موعد الصلاة فيها بقليل .

فاوضح بيل والراعي لاحد المسؤولين الرسميين ان موعد الصلاة في

الكنيسة كان معيناً ، حسب البرنامج الخاص ، بعد هذا الوقت بقليل . فأكد الموظف المسؤول لبيل ان اجتماعهم الشعبي ينتهي قبل موعد الصلاة .

وفي الواقع انتهى الاجتماع الغوغائي الصاخب في اول موعد الصلاة فدخل المسيحيون المنتظرون وبدأوا في الصلاة ولكنهم وجدوا في وسط الكنيسة اعلانات كبيرة تركها الشيوعيون قصداً وكلها عبارات عدائية للاجانب ، مثل : « الصين للصينيين » « الاجانب خربوا الصين » « شانغ كاي شك الجزار عميل اجنبي . »

وعندما خفض المصلون رؤوسهم للصلاة لم يذكر أحد منهم تلك الاعلانات ، ولكن بيل ورفاقه المرسلين شعروا بتغير الجو الذي يعيشون فيه ولو لم يشعروا بتبدل في مجرى اعمالهم الروتينية وهي مداواة المرضى الكثيرين ومساعدة من يحتاج الى مساعدتهم باسم ربهم .

عيد ميلاد تلك السنة ١٩٤٩ جرى بهدوء . اجتمع جامي وافرلي وبيل في قسم الممرضات ليأكلوا عشاء الميلاد وحدهم . وكان الجو يختلف جداً عن جو عيد الميلاد السابق حين كانت البهجة والمسرة تفيضان من القلوب الفرحة .

كان طعام العشاء أقل كمية وتنوعاً من المعتاد ، ولكن بالاقتصاد والحكمة حصلوا على عشاء مؤلف من الدجاج المحمر مع البطاطا ، وحصلوا على البوظه . لم يكن النقص مسبباً عن قلة المواد الغذائية في الاسواق لأن الاسابيع الاولى لم يشعر فيها باي نقص ، ولكن الخروج الى الشوارع لاجل المشترى لم يكن مناسباً في ذاك الحين .

في اثناء تناول العشاء بدأ بيل يكثر الكلام ويختلق الاحاديث بعكس عادته ، رغبة منه في اشاعة البهجة وجو الفرح في تلك الليلة . وبعد الانتهاء ركعوا كلهم وصلوا .

وجاءت السنة الجديدة حاملة في مطلعها المهرجانات الشيوعية التي طلب من الجميع الاشتراك فيها . فكانت الممرضات والممرضون يؤخذون لحضور الاستعراضات مرة بعد مرة رغم احتجاجات افرلي المتكررة . وكان تلاميذ مدرسة التمريض يؤخذون لسماع دروس المذهب الجديد وتعلّمها . وكانت النتيجة ان بعض الممرضات والممرضين تركوا المستشفى وانضموا الى منظمات الشبيبة الشيوعية ، وان قسماً آخر منهم تأثروا بالدعاية ، وظهر ذلك بجلاء في سلوكهم . وكان من شأن ذلك ان يخلق جواً متوتراً بين هؤلاء ورفقائهم الذين لم يستطيعوا التخلي عن الله ليسيروا في مخطط الحزب الجديد .

ثم بدأت المحاكمات الشعبية بمقاضاة من حسبوا ظلاّماً كباراً ، وهكذا كان الشعب يتدرب على نوع جديد من المحاكمة ـ المحاكمة بواسطة الغوغاء . وكانت المحاكمة تجري في ساحات عامة مكشوفة فتقاد الجماهير بواسطة اناس اندسوا بينهم . وتعودت هذه الجماهير الصراخ والهتاف لدى اشارة تعطى لهم .

وفي جنوبي الصين حاكموا اولاً من كانت جرائمهم انهم اصحاب املاك . فكانت الجماهير تدعى في الصباح لحضور المحاكمة وتثار حماستهم بواسطة الاناشيد والشعارات الشيوعية . وبعدئذ يؤتى بالمدعى عليهم فيستقبلون بالطبول والصنوج ويدفعون الى باحة المحاكمة كأنهم

حيوانات تعرض في ملعب ، وايديهم مقيدة وراء ظهورهم اظهاراً لهم بمظهر المجرمين وعلى رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل كالتي يلبسها المهرجون .

كانت تبدأ المحاكمة بخطب طويلة عن الديمقراطية وارادة الشعب وحكم الشعب ، وبعدئذ يتقدم المشتكون . وعلى الغالب يكون هؤلاء من النساء المتعودات على الصياح ونثر الادعاءات على اصحاب الاملاك بعبارات يتعلمنها سلفاً . وبعد كل ادعاء كان الرئيس يسأل الجمهور صائحاً : « هل هذا عدل ؟ » فيصرخون « كلا . كلا . » ثم يصرخ الرئيس : « هل يستحق القصاص ؟ » فيجيبون : « نعم . نعم . »

في اثناء هذا الهياج الجنوني المحموم كان يبشر بانجيل المسيح في مستشفى ستوت ميموريال . ان خدمة بيل والاس وزملائه غايتها الرحمة لا القتل ، ونشر السلام لا المشاغبة وحبك المؤامرات .

ان الجو داخل المستشفى كان يختلف كل الاختلاف عن الجو خارجه ، ولكن ظروف العمل فيه كانت تتصعب يوماً بعد يوم .

وكان بيل في عمل متواصل لتكاثر عدد المصابين بالقرحة المعدية . وكانت الهموم تزيد الاعصاب توتراً ، وكان الخوف ينشر الضنك والحذر .

ووردت اخبار تفيد ان كثيرين من المرسلين يتركون الصين ، وان يوجين هيل اصيب بانفجار القرحة اصابة خطرة ، وطلب منه ان يغادر الصين ففعل بعد ان صرف عدة اسابيع ساعياً لانهاء معاملات جواز

السفر . سافر هو وزوجته وابنه الصغير الى هونغ كونغ ومنهـا الى الولايات المتحدة . فصلى بيل صلاة الشكر عندما عرف ان تلك العائلة الصديقة خرجت من الصين سالمة .

وبعـد هذا اقترح مسيحيو ووتشو ان تسافر جاسي ايضاً ، لان عملها التبشيري قد صار خطراً عليها وعليهم ايضاً ، فضلاً عن ان عقد الاجتماعات التبشيرية قد اصبح صعباً جداً ومن الامور التي تثير شبهات الشيوعيين . فسافرت بعـد انهاء معاملات جواز السفر ، وظل بيل وافرلي يتابعان عملهما الطبي .

كان هذا الوقت من اصعب الاوقات على بيل وافرلي . فانه رغم حاجتهما الى الاجتماع والتعاون على حل مشا كلهما الكثيرة كانا يتجنبان الالتقاء معـاً الا حيث يكونان مع الآخرين . فان الشيوعيين كانوا يتهمون الاجانب بسوء الاخلاق والدعارة ، وحب جمع المال . وما كان اسرعهم الى الانتقام بناء على مثل هذه الافتراءات . لذلك كان بيل وافرلي يمتنعان عن كل شبه شر ولا يلتقيان إلا في مواعيد العشاء مع سائر الموظفين وفي اوقات العمل في المستشفى .

وفي أحد الايام خرج بيل بعد الانتهاء من عملية جراحية ونزع قفاز المطاط عن يديه وطلب من زميلته ان ترافقه في نزهة على شاطىء النهر . وعرفت هي انه اختار ذلك الوقت ، الذي هو الساعـة الثالثة بعد الظهر ، لان الاسواق والطرقات وجوانب النهر تكون غاصة بالناس فلا يمكن ، والحالة هكذا ، ان يتهما باي فرية .

وسارا بهدوء ، ولاحظت افرلي لأول مرة ان الاربعين سنة قد

ظهر اثرها على بيل . فشعره الذي كان يحتفظ به قصيراً ، منذ مرضه الشديد ، قد وخطه الشيب . وتغضنت جبهته واحاطت بكل عين من عينيه هالة دكناء . ولاحظت ايضـاً ان تدخل الحكم الجديد في كل ناحية من نواحي الحياة لم يؤثر كثيراً على حركـة الاعمال التجارية في السوق . فالاولاد لا يزالون يدفعون عرباتهم المحملة خضرا او فحماً او أكياس حنطة ، والمصابيح المصنوعة من الورق الاحمر لا تزال معلقة امـام واجهات الدكاكين للترحيب بالزبائن ، والحمالون بقبعاتهم التي تشبه المظلات يحملون السلال المشدودة الى عصي طويلة على اكتافهم ، ورائحة السمك المجفف تملأ الهواء خصوصاً في ذلك اليوم الشديد الحر . وكان الصينيون يلبسون ملابسهم الحريرية السوداء الصيفية . اما بيل وافرلي فكانا يرتديان ثيابهما البيضاء التي يلبسانها في المستشفى فيظهران مختلفين عن الآخرين .

مرّ المرسلان امـام « مخزن كتب النور الحقيقي المعمداني » الذي اقفله الشيوعيون ، فرأيا العلم الشيوعي يرفرف امام الكنيسة فعرفا ان اجتماعاً للوشاية باحد الناس سيعقـد هناك دون شك . وكان رجال مسنّون ، وسخو الارجل ، صفر الوجوه ، بيض اللحى ، جالسين القرفصاء وراء سلالهم الملأى بالثمار المجففة .كان هؤلاء الرجال ينظرون الى المرسلين نظرة عدم الانحياز .

ولما وصلا الى ضاحية المدينة ومشيا الى جانب النهر كانا يمران من حين الى آخر تحت شجر البانيان والخيزران ويشاهدان الزوارق المحملة حطباً ، وقوارب صغيرة أخرى تتهادى في النهر وليس لها وجهـة

خاصة . ولاحظ المرسلان كلاهما ان الناس هناك كانوا يقتصرون في مخاطبتهما على عبارات مختصرة بخلاف العادة . غير ان البعض الذين تداووا في المستشفى حيوهما .

واصل المرسلان سيرهما بمحاذاة النهر نحو جزيرة تشانغ تشو ومرا باكواخ حولها اولاد يلعبون ، فتبسم لهم بيل وبادلوه هم الابتسامة بمثلها . ولكن فتى أكبر منهم سناً انتهرهم من وراء سياج قائلاً : « احترزوا من الشياطين الاجانب . » فتفرق الاولاد .

هذه الحادثة دفعت بيل ـ الذي احتفظ بافكاره في قلبه حتى الآن ـ الى الكلام فقال كأنه شعر بان الامر بلغ حد النهاية : « سيأتي يوم يا افرلي ينتهي فيه عملنا في هذه البلاد ويُفرض علينا ان نفتش عن مكان آخر نعمل فيه . » فهزت افرلي رأسها كأنها تشاركه في هذا الشعور وتابع هو حديثه قائلاً : « لقد فكرت كثيراً في هذا الامر في المدة الاخيرة ، واعتقد ان أماكن اخرى كثيرة تحتاج الى عملنا الطبي التبشيري وهي اليوم كالابواب الموصدة تنتظر مفتاحاً . »

ثم التقط حجراً وبحركة معصمية رماه في النهر . وتذكر انه فعل هذا قبلاً في مكان بعيد وفي وقت سحيق ايضاً فضحك من نفسه ومن تبدل الظروف وتقلب الايام . وتابع حديثه فقال : « لقد فكرت بجزر البحر الجنوبي وجاوا وسومطره وبورنيو ، فهذه كلها اماكن تصلح لتنفيذ برنامج العمل الطبي التبشيري . واعتقد ان اقامة مستشفى هناك يفتح امامنا باب الدخول الى اماكن لا يمكن ان ندخلها باي طريقة اخرى . لقد قيل ان بيتر باركر افتتح الصين برأس مبضعه .

والمعمدانيون الجنوبيون سيدخلون يوماً ما المناطق التي ذكرتها ، وسيجدون مكاناً ينقلون اليه كل مرسليهم الذين يشتغلون الآن في الصين . وانا شخصياً لا اريد ان استقيل من عملي الآن . »

فابتسمت له افرلي ولاحظت انه لا يزال شاباً رغم ظواهر الكبر التي بانت عليه في المدة الاخيرة . وبدا لها انه لا يزال جندياً مسيحياً صالحاً للخدمة وان وقت استقالته واعتزاله العمل لم يحن بعد ، فقالت :

« نعم ، وأنا افتكر اننا نستطيع ان نبدأ عملاً مثمراً هناك . وقد يكون بامكاننا ان ندعو سام ومريم رانكن وبتي وأد كلوي ليساعدونا هناك . »

ولدى ذكر اسماء زملائهما الذين تركوا الصين ساد الصمت برهة . ثم عادت الى الكلام منتقلة بافكارها الى حاضرهما الواقعي فذكرت ان العاملين في المستشفى يحتاجون الى تسلية تبدد عن نفوسهم غيوم التوتر العصبي وتريحهم من أتعاب واجباتهم اليومية الكثيرة . فصادق بيل على قولها واتفقا على سفرة نهرية في وقت قريب في قارب الدكتور والاس وماعونة يستأجرها ويربطها بالقارب . فيذهب المرسلان ومن يستغني عنهم من هيئة المستشفى في القارب والماعونة ومعهم اكلهم وكل ما يحتاجون اليه للرياضة والسباحة . وعادا ، وهما مصممان على هذه الخطة الضرورية ، الى المستشفى والى تحمل مسؤولياتهما الخاصة في خدمة المرضى وادارة العمل .

ونجحت خطة النزهات . وكان كل واحد يحاول ان ينسى وينسي الآخرين ما يجري حولهم من حوادث ويبعد القلق عن الممرضات

الحائرات بين الدعاية الشيوعية والمبادىء المسيحية التي يبشر بها المستشفى وينشرها المرسلون والتي تعودن على احترامها والتأثر بها .

وارتاح بيل نفسه لهذه السفرات المسلية . وكان يقود القارب ويجر الآخرين وهم على زلاجاتهم . وعندما يسبحون كان يتمــدد ويسبح بافكاره بعيداً وهو يحك عنق كلبه الامين .

١٦

"لي الحياة هي المسيح"

كانت الازمة التي ذرّ قرنهــا في تموز ١٩٥٠ نتيجة الخلاف في كوريا . فلما بدأ غزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية بث الشيوعيون دعاتهم للتشكي من الاستعمار الاميركي واتهــام الاميركيين بالتدخل والنذالة . ورغم مبادرة الكوريين الشماليين بالهجوم قالوا ان الكوريين الجنوبيين وحلفاءهم الاميركيين هم المعتدون الجناة سفكة الدمــاء المخربون . وأثرت هذه الدعاية على الدكتور والاس وافرلي هايس وكل المشتركين معهما .

ولما دخلت هيئة الامم المتحدة في النزاع في أواخر تموز ازدادت الحالة خطراً . ففرض الشيوعيون أنظمة جديدة وضاق صدرهم وقل تحسبهم واستخدموا كل ما حصل للوصول الى غايتهم وكشفوا القناع عن وجههم الحقيقي .

وكانت أول خطوة قاموا بها اعتقالات بالجملة : اعتقــال المجرمين ومن يظن أنهم مجرمون أو أنهم قد يصيرون مجرمين ، فامتلأت السجون وابتدأت الرؤوس تتدحرج .

ودخل ضباط صينيون شيوعيون الى مكتب بيل واعلموه انه ستفرض

ضربة كبرى على المستشفى . وعرف بيل ان الاذعان يؤدي الى الوقوع في شرك لعبة شيوعية فرفض بحزم واصرار وقـال للضباط انه سيرفع الامر الى رؤسائهم ويبرهن لهم ان هذا العمل غير قانوني . وليس من المعقول ان حكومة الشعب تعرقل عمل مؤسسة غايتها الوحيدة خدمة الشعب وفعل الرحمة .

كان بيـل يعرف غايتهم ، ولكنه باصراره وحزم كلامه تركهم ضعيفي الحجة فانصرفوا .

وشعر المواطنون المحليون أنهم سيخسرون حبيبهم وا اي سانغ اذا لم يهتموا للامر فاستحصلوا عريضة وقعها زعماء ووتشو وحملوهـا الى مركز حكومة الشعب في كانتون . وشعر الشيوعيون المسؤولون هناك ان الوقت لم يحن بعد لكشف المخبآت فأعفوا المستشفى من الضرائب .

ولكن الشيوعيين المحليين وزعماءهم في كانتون عرفوا بذلك مدى تأثير الطبيب الاميركي النحيف ، وكانوا يفكرون بغزو كوريا بمساعدة الكوريين الشماليين ويضعون الخطط لمقاومة أميركا وجمعية الامم المتحدة. وفي أول الخريف شنوا حملة شعواء ضد أميركا ووصلت الى ذروتها في ووتشو .

فاتهام الاميركيين بالتعدي والاذى كان ينم عن الحقد والضغينة في كل مكان . وكانوا يصفونهم بأوصاف مهينة مثل : النهابين، الكلاب، ذئاب الاستعمار ، الرأسماليين الطاعين . والمشكلة في هذه الدعاية ان الصينيين المحليين في ووتشو كانوا يعرفون من الاميركيين الدكتـور والاس فقط . وتصرف هذا الطبيب وخدماته الانسانية جعلت كل قول

ضد أميركا والاميركيين غير معقول وغير قابـل للتصديق . ألم يكن المستشفى الذي خدم أهل ووتشو مدة طويلة مستشفى اميركياً ؟ ألم يسكن الاميركيون مع فقراء الصين وأغنيائهم ؟ ألم يخاطروا بأنفسهم حـين ظلوا في خدمة الصينيين في اثناء الغزو الياباني ؟ ألم يكن بيـل والاس اميركياً؟ أليس بيل والاس أعظم الاطباء الجراحين في الصين وأشهرهم؟ أليس هو بطل الخدمة الانسانية في اثناء الحرب اليابانية ، حبيب اولاد الصين وابناء الصين الذي انكر نفسه وعاش بين الصينين بدون عيب مدة تزيد على خمس عشرة سنة ؟

وشعرت جماعة الشر بما لهذا الاميركي من نفوذ ، وعرفت تأثيره الصامت على الدعايـة المقصودة فشرعت تحبك المؤامرات للحط من نفوذه الذي جعل تلك الدعاية عقيمة . وأخيراً استقر رأيهم على توجيه الضربة للرجل الذي هو المستشفى في نظر اكثر الناس ــ بيل والاس . وبذلك يقضون على المستشفى وعلى الاميركيين الذين يمثلهم .

لم يعرف مدى الوقت بين وضع الخطة والبدء بتنفيذهـا . ولكن عرف ان آخر مظهر من مظاهر التحفظ اختفى في اوائل كانون الاول عندما دخلت الصين في الحرب الكورية وبدأت أعمال الظلم والتصفية التي لا محل لوصفها هنا . وما حدث لبيل والاس لم يكن الحادث الوحيد .

في مساء ١٨ كانون الاول اكمل بيل دورته الاعتيادية في المستشفى. ومر على جندي شيوعي استؤصلت من جوفه في الليلة السابقة الزائدة الدودية المنفجرة وكانت حالته تسير نحو التحسن . ومر على امرأة كان قد اخرج لها حصاة من مرارتها منذ يومين فوجد انها تتحسن ايضاً .

ثم توقف قرب طاولة الممرضة المسؤولة واعطاها التعليمات اللازمة. هكذا كان يهتم براحة جميع المرضى مهما كان عددهم .

ثم انتصب بيل بقامته المديدة، وفرك عينيه، وتأكد ان كل واجباته قد تمت فخرج في هواء الليل البارد ووقف امام مدخل العيادة والقى نظرة على اضواء ووتشو . وكان المطر قد انهل في فترات عديـــدة في ذلك اليوم وانتشر الضباب المكرب كانه نذير مصيبة قريبة الوقوع . ولم يستطع بيل ان يتخلص من التفكير بهذه المصيبة المنتظرة .

كان المستشفى مسجلاً ولكن ما معنى هذا التسجيل لدى الشيوعيين الذين كانوا يواصلون مصادرة ممتلكات الاجانب والمؤسسات من اي نوع كانت . والآن بعد ان اصبحت الصين في حالة حرب مع هيئـة الامم المتحدة ــ بما فيها اميركا ــ كم تطول المدة التي يعمل فيها المستشفى الاميركي بدون مضايقة ؟ ربما قد حان الوقت لمغادرة الصين . ثم التفت نحو المستشفى بحسرة فرأى أنواره تنبعث وتشع فوق المدينة كأنها نور الأمل والرجاء . اذن لا يزال أمامه فرصة للشفاء وتخفيف الآلام ، فهل يترك هذه الفرصة الاكيدة بناء على ما مر في خاطره من الاوهام ؟

ومشى ليرى مس هايس ومس لوك رئيسة الممرضات الصينيات ولكنه تذكر انه متعب جداً فتحول نحو غرفة نومه لينام مـــا دام هو قادراً على النوم ، لانه كان يظن انـــه سيدعى في تلك الليلة لاجراء عملية توليد .

رأى الخادم معلمه الحبيب قـــادماً ورأى مظاهر التعب على وجهه فاهتم بامر الدكتور الذي قلما تعود ان يهتم بنفسه .

حيا الدكتور خادمه «رستس» وقال له : « هذا اليوم جيد للبط . »
فرد الخادم التحية وقال : « بمثل لمح البصر سآتيك بكأس من الحليب وبعض قطع الخبز . »

ــ « اجلبها الى غرفتي يا رستس . »

ــ « نعم . انا اعلم ان هذا اليوم كان يوماً صعباً ، وانك تحتاج الى النوم المريح . »

فنظر اليه بيل بحنو وقال له : « عندما تصلي يا رستس في هذه الليلة اطلب من الراعي الصالح ان يمنحني نوماً مريحاً يجدد فيّ النشاط . »

بعد ان تناول كأساً من الحليب ونصف دزينـــة من قطع الخبز الصغيرة وقليلا من الزبدة استلقى على فراشه في الغرفة الاسبرطية التي كان يدعوها غرفته ، وتوسد ذراعه بدل المخدة ، وحاول ان يبحث في قرارة نفسه عن اسباب الانزعاج الذي كـــان يقض مضجعه . انه لم يكن خائفاً ــ والله يعلم انه واجه قبل الآن اخطاراً كثيرة يخشى عواقبها ولم يخف ــ ولكنه مع كل ذلك كان غير مطمئن .

حوالي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي جلب الجنود الصينيون الشيوعيون دزينة من الشيوعيين المدربين على تنفيذ الاوامر وجمعوهم في غرفة قريبة من المركز في ووتشو . وهناك افهمهم أحد اعضاء المحكمة الشعبية ملخص ما يطلب منهم اجراؤه في تلك الليلة . انه يجب عليهم تفتيش المستشفى الاميركي والقاء القبض على الدكتور وليم والاس الذي هو « الجاسوس الأكبر للرئيس ترومن في ووتشو . »

كان هؤلاء يعرفون الدكتور والاس الذي لا يمكن ان يظن احد

انه جاسوس . ولكن بما ان الحكومـــة تقول انه جاسوس فيجب ان يكون هكذا .

وتنفيذاً للتعليمات التي تضمنت ايضـــاً توقيف بعض المرسلين الكاثوليك المقيمين على التـــلال وراء ووتشو ذهب هؤلاء الشيوعيون المدربون مع ثلاثين جندياً شيوعياً وساروا في شوارع ووتشو المخيم عليها الضباب حتى وصلوا الى مدخل عيـــادة مستشفى ستوت ميموريال . هناك استتر الجنود في ظلال الحيطان وتقـــدم واحد منهم ودق باب العيادة وقال : « افتحوا لنا لندخل » . فسأل احد الخدم من الداخل : « من الطارق ؟ » فاجابه زعيم الفرقة : « معنا مريض افتحوا لنا . »

ولما فتح الباب اسرع الجنود ودفعوا الخادم المدهوش الى ناحيـــة وتوزعوا حسب التعليمات المعطاة لهم . قسم منهم التفوا حول المستشفى، وآخرون تحولوا نحو غرف النوم وايقظوا النائمين فيها، وغيرهم توزعوا في كل طبقة من طبقات المستشفى وطوقوا الموظفين فيه .

في بيت بادو القديم حيث كان الدكتور والاس نائماً سمع الخادم رستس الضجة ففتح الباب . وفي الحال اندفع ثلاثـــة من الجنود الى الداخل واوقفوا رستس لصق الحائط وذهبوا الى غرفة الدكتور بيل وايقظوه وجالوا بسرعة في الغرفة جولة تفتيشية حسب خطـــة مدبرة سلفاً . وهؤلاء الجنود بلباسهم الرسمي وقبعاتهم التي تحمل نجمة حمراء على مقدمها ، كانوا جماعة يتحرك افرادها كالآلات ــ كأن التعاليم الشيوعية جردتهم من شخصياتهم ــ وهكذا اصبح الانسان « الصيني الجديد . »

بعد برهـــة اظهروا انهم انتهوا من التفتيش وامروا بيل والخادم بالذهاب معهم الى المستشفى . فدار الخادم ليقفل الباب فمنعه الضابط المسؤول بعنف .

وعندما وصل الدكتور بيل الى غرفة في الطبقة الخامسة من المستشفى حيث كان الموظفون ، استقبله هؤلاء بصراخ الاهتمام والخوف وكانوا ينظرون اليه كنظر الاطفال الى ابيهم . فهدأ روعهم وطمأنهم ووقف امامهم وادار وجهه نحو المشتكين عليه .

فقال الضابط المسؤول وهو شاب صيني يظهر انه متعلم : « نحن نعلم ان هذا المكان وكر للجواسيس. ورؤساء الجمهورية الشعبية يعرفون ان قسماً منكم هم اخصام الثورة وهـــذا لا يطاق . ونحن نعلم انك انت ، يا دكتور والاس ، أكبر جواسيس الرئيس ترومن في جنوبي الصين . لقد اكتشفنا امرك وسنحول دون استمرار اعمالك السرية . »

فارتفعت اصوات الاحتجاج من موظفي المستشفى قائلة : « هذا غير صحيح ... وا اي سانغ ليس جاسوساً ... انت مخطىء . »

فانتهرهم الضـــابط بوجه كالح وخشونة وقال لهم : « اسكتوا ، اننا سنبرهن لكم . فامـــا انه قد خدعكم ، واما انكم شركاؤه في اعمال الخيانة . »

فقال الدكتور بيل والجميع يصغون اليه : « نحن كما يدل مظهرنا اطبـــاء وممرضات وموظفو مستشفى نهتم بشفاء المرضى والمتألمين باسم يسوع المسيح . ولسنا هنا لأي امر آخر . »

فاجابه الضابط : « انك تتكلم بنعومـــة ، وهذا ما كنا ننتظره .

ولكن نحن بانفسنا سنبحث عن البرهان في كل الاحوال . »

ثم اجال نظره في الموجودين واختار شخصين هما مدير الاعمال والواعظ في المستشفى وطلب منهما ان يشاهدا التفتيش . ثم أخذوا بيل ورستس معهم ونزلوا الى بيت الدكتور والاس. وفي الحال بدأ الجنود في التفتيش في غرفة الدكتور ، وبدهشة مصطنعة اكتشفوا صرة تحت فراش بيل . فاخذها الضابط وكشف عما في الورقة السمراء وصاح : « هنا البرهان ! انه يقتني مسدساً . »

فاحتج رستس صائحاً : « هذا لم يكن هنا قبل الآن . »

فدفعه الضابط بشدة وهدده بفوهة المسدس قائلاً : « اتريد أن احطم رأسك . »

وكذلك تكلم بيل وقال : « هذا ليس لي . فانا لا اقتني سلاحاً ولا أعلم كيف وجد هنا . »

فنظر اليه الضابط ضاحكاً وأمر بان يقفل الباب ويحرس البيت وان يؤخذ بيل الى مكتب المستشفى . وهناك في المكتب اخبروه انه « موقوف » للاشتباه بانه جاسوس وانهم سيأخذونه الى مركزهم لاستنطاقه . وبلّغ الضابط هيئة المستشفى ان في المستشفى او حوله مركز جهاز لاسلكي وانهم سيفتشون عن ذلك الجهاز حتى يظهر لهم .

وفي الوقت نفسه فرضت الاقامة الجبرية على افرلي هايس ولم يسمح لها بالتكلم مع بيل . ولكنها أطلت من شباك غرفتها وراقبت الجنود وهم يأخذون بيل ليستجوبوه في مركزهم . وعندما غابوا عن نظرها أحست بانها لن تراه مرة اخرى .

نظراً لاتهام بيل بالجاسوسية وبما هو أفظع منها وضع في زنزانة في حبس الانفراد وأهمل أمره مدة . وكان يسمح له بان يأكل مما يرسل له من المستشفى . وفي هذه الاثناء سنحت له فرصة ليخبر السجان عن يسوع المسيح وليبشر من طاقة زنزانته اثنين او ثلاثة من الفلاحين الذين كانوا يأتون ليسمعوا قصة يسوع . ولما سمع موظفو المستشفى بذلك فرحوا جداً، وقدموا طلباً لاخلاء سبيله . لم يكن باستطاعتهم ان يعلموا قنصل اميركا ولا ان يبلغوا مجلس الارساليات الخارجية ما قد جرى . انما كان في امكانهم ان يصلوا وهذا ما فعلوه . مر اسبوع على بيل في زنزانته وهو يستلم الاكل الذي يأتي به رستس من المستشفى . وفي آخر الاسبوع اتى رستس بالاكل فارجعه الشيوعيون وامروه ان لا يأتي بعد ذلك ابداً . وفي تلك الليلة عقد اجتماع في اكبر صالات ووتشو ودعي كل وجهاء البلد لحضور الاجتماع . وهناك وقف الضابط الذي اوقف بيل ليخبر المجتمعين ان الدكتور وليم والاس من مستشفى ستوت ميموريال قد اعترف بانه جاسوس مؤتجر للرئيس ترومن . وتكلم عن المسدس ولمّح الى أعمال الظلم التي قام بها الدكتور . ثم طلب من الذين لهم شكاوى على الدكتور بيل ان يتقدموا بها . فلم يتقدم أحد . ولما أخذ الشيوعيون المدربون ينشرون التهم ويعددون الفضائح ويرمون الدكتور بيل بكل فرية ، ادهشهم ان الحاضرين ، رغم تدريبهم ، لم يسايروهم ولم يصدقوا افتراءاتهم . كان ذلك كله مؤامرة ضد الدكتور وقد عرف الجميع ذلك .

كل ما حصل عليه الشيوعيون من بيل كان ورقة عليها اسمه وعمره

ومدة اقامته في الصين وما أشبه هذه المعلومات الواقعية . وطلب منه ان يوقع اسمه عليها للمصادقة على ما فيها فأمضاها بعد ان قرأها ووجد كل ما فيها صحيحاً . فطبع الشيوعيون على المكان الابيض في الورقــة ان الحكومة الاميركية ارسلته الى الصين للقيــام باعمال سرية . هـذا هو الاعتراف الذي هللوا له وبنوا احكامهم عليه .

وفي اليوم الثــاني أوقظ بيل باكراً وأخذ الى ساحة واسعة حيث عرف لاول مرة انه لم يكن المرسل الوحيد الموقوف . فقد رأى هناك راهبة ومطراناً كاثوليكيين ، وابتسم لهما رغم الظروف الحرجة وحيا كل واحد منهم الآخر قبل ان يفرقهم الشيوعيون بخشونة .

وخطا الشيوعيون خطوات شيطانية اخرى ودبروا مكايد جهنمية للحط من كرامة الدكتور بيل وشعبيته . علقوا فوقه لوحة كتبت عليها شكايات بذيئة وعبارات سخرية وربطوا يديه وراء ظهره ، وساقوه مع آخرين في الشوارع الى نهر فو ثم الى السجن الرئيسي الواقع على منتصف سفح التلة ــ التلة التي كان يذهب اليها مراراً لزيارة اصدقائه اعضاء الاتحاد الارسالي . وفيما كان على الطريق دفعه أحد الحرس فسقط على الارض واتقى بيده فجُرحت . أما هم فلم يعتنوا بها .

كل يوم واحياناً كل ساعة كانوا يوقظونه من نومه ويأخذونه ــ على الغالب في الليل ــ الى غرفة الاستنطاق في السجن .

لم يكن العالم قد سمع عن أحد اساليب الشيوعيين الذي دعي «غسل الدماغ» الذي اتضح اكثر بعد اطلاق سراح اسرى الحرب الكورية . ولكن بيل والاس عانى الكثير من فظائع غسل الدماغ بعد القبض عليه باسبوع واحد .

ذلك الطبيب الحساس ، السليم الطوية ، الذي كرس كل حياته لله وعاش لخدمة السيد يسوع المسيح ، ومساعدة الناس بكفاءاته الطبية ، رأى ان الشيوعيين بشعوذتهم قد الصقوا به عدداً من الجرائم «لم يحلم بها شياطين دانتي .»

كانت اتهاماتهم تعلن بلؤم وبوقاحة ، وهــذا ما ضايقه وحيره . وكانوا يذيعون هــذه الاتهامات ويجسمونها ويبالغون في تحقيره ولا يسمحون له بالدفاع عن نفسه فلا اعذار ولا جواب . والذي ضايقه اكثر من كل أمر آخر اتهامهم اياه بعدم الاهليــة في الجراحة وبقتل الصينيين وتشويههم ، وبانه كان يعمل العمليات الممنوعة شرعاً . واشار مستنطقوه الى اطباء من جميع انحاء الصين قد جمعوا الادلة على كل ذلك وانهم يطلبون ادانته . وعندما يظهر عليه الاعياء الجسدي والفكري كانوا يعيدونه الى زنزانته العــارية الا من فراش رقيق من القش يرفعه عن رطوبة ارض الزنزانة وبرودتها وقذارتها .

في يوم آخر جمعوا كل السجناء الاجانب في ساحة مكشوفة واوقفوهم واحداً بعــد واحد امام طاولة عليها انواع من الاسلحة وذخيرتها وعليها افيون واجهزة راديو واشياء اخرى زعموا انهم صادروها من منازل الموقوفين . هكذا كانوا يصورونهم واحداً بعــد آخر لاثبــات التهم المختلفة المنسوبة اليهم . ولما جاء دور بيل ابى ان يتقدم فدفعه حارسه الذي كان وراءه وصوروه مع جهاز لاسلكي ليثبتوا عليه انه جاسوس .

وقد تأكد المرسلون الكاثوليك ، الذين اوقفوا ثم اطلق سراحهم ،

انه كان متعباً ومضنى من آلام التعذيب التي كان يعانيها في اثناء استنطاقه .

في الوقت الباقي من ذلك اليوم عرض الموقوفون في الساحة لتسلية الجنود الشيوعيين كأنهم ادوات للعب وقاسوا من انواع الاهانة والتحقير والوحشية ما يفوق التصور . وعند انتهاء اللعبة تمكن أحد المرسلين من ان يسأل بيل عن حالته ، فابتسم قليلاً واجاب « لا بأس بمعونة الرب . »

كان بيل يخوض اعنف معركة في حياته . ولم تكن معركته معركة ينتصر فيها الحق والمنطق بل معركة ليس فيها للحق والمنطق مكان . وكذلك لم تكن معركة طاقة الاحتمال الجسدي مع ان طاقة الاحتمال الجسدي كانت فرعاً من فروعها . تلك المعركة كانت لبقاء صواب عقله .

من زنزانته كان بيل في الليل يصرخ متألماً اشد الألم بعد كل معركة. وكان يكتب على قصاصات من الورق بقلم رصاصي حصل عليه سراً عبارات قصيرة مختصرة محاولا بذلك تقوية ذاكرته وتركيز تفكيره على ما وطن نفسه عليه . بعض هذه العبارات كان آيات من الكتاب المقدس وبعضها لدفع تهمة ومنها احتجاجات تظهر براءته . هذه العبارات كان يلصقها على جدران زنزانته العارية ويردد قراءتها لنفسه استعداداً للاستجواب التالي .

ولكن الاستجوابات كانت تتتالى عليه كالامواج الطاغية فتضعضعه وتذهله فيهذي ويصيح احياناً واحياناً يسكت ، ولكنه في كل ذلك

كان يقاوم طغيان معذبيه ويتمسك بايمانه . وكان رفاقه الموقوفون – ولم يكن قد حان وقت استجوابهم – يرون هذه المعاملة الوحشية التي يعامل بها اعظم رجل عرفوه . وكانوا يحاولون احياناً ان يتصلوا به بواسطة المناداة من زنزاناتهم . ولكن لم يكن شيء يجدي فالمعركة معركة بيل وربه الذي احبه وقواه وثبته ، وهي المعركة التي لم يكن باستطاعة أحد غيرهما ان يواجهها .

وكان عزم الشيوعيين ان يجبروا ضحيتهم على الاعتراف جهاراً بانه لم يكن كما اعتقد به الناس. وظنوا انهم يصلون الى بغيتهم بسهولة. ولكن روح بيل الصلبة القوية بايمانها لم تستسلم لارادتهم بل علا صياح الرفض وشق اجواء الليل .

فالحراس خوفاً من الفشل او شعوراً بالذنب أتوا بعصي غليظة طويلة وأخذوا يدفعونه بها من خلال حديد طاقة الزنزانة ليفقدوه وعيه . .

وفي احدى الليالي انتهت المعركة . ومع انه لم يسمع أحد قوله « قد أكمل » إلا انه استودع روحه بين يدي الآب وختم خدمته ورسالته . وبهدوء خرجت روحه من جسده الممزق وعقله المنهك ، وذهب الى الذي كان قد خدمه بامانة حتى التفاني .

لقد مات بيل والاس في هذا العالم ليعيش الى الابد مع الله .

وفي صباح اليوم الثاني تراكض الحراس بين الزنزانات وهم يصرخون « انتحر الدكتور شنقاً » وطلبوا من الكاهنين الكاثوليكيين ان يرافقاهم الى الزنزانة فرأوا الدكتور معلقاً بقطع من قماش ربط

بعضها ببعض . وحاول الحراس أن يحصلوا من الكاهنين على تقرير يثبت ان الدكتور والاس انتحر . فلم يوافقهم الكاهنـــان على ذلك . واخيراً وقعا اسميهما على تقرير يصف كيف شاهداه ، وهما يظنان ان الشيوعيين ارادوا أن يظهروا القتل بمظهر الانتحار .

وأرسل الشيوعيون الى جماعة المستشفى ، الذين كانوا يصلون من أجل سلامـــة الدكتور بيل ، من يقول لهم ان يذهبوا ويستلموا جثته . فذهبت افرلي مع خادمهـــا واحدى الممرضات . ولكن الشيوعيين لم يسمحوا لغير الخادم الدخول الى الزنزانـــة لانهم أرادوا ان يستروا اعمالهم البربرية بمثلها غير عالمين ان افرلي افهمت الخادم كي يلاحظ اذا كانت علامـــات الموت شنقاً ظاهرة على الجثة . فلاحظ الخادم ان جحوظ العينين واكمداد لون الوجه وتورم اللسان لم يكن لهـا وجود . وكل ما كان رضوض وكدمات واسعة على القسم الاعلى من الجثة .

وبعد ان البسوا جثة الدكتور ثيابه وضعوه في تابوت رخيص الثمن وسمروا الغطاء فوقه. وساروا به مع من سمح لهم من افراد هيئة المستشفى وخرجوا من ووتشو في قارب صغير ، وهواء شباط البـــارد يقرس وجوههم ، حتى وصلوا الى المدفن الذي في سفح التلة المطلة على النهر . وهناك نبشوا قبراً وضعوا التابوت فيه دون ان يسمحوا بمراسيم الجنازة او الصلاة وهـــالوا التراب عليه ثم عادوا بكل الحاضرين الى ووتشو تاركين الجدث الذي فيه يأوي احد عظماء القديسين في الصين .

وبينما كان القارب يسير الهوينا قرب حافة النهر التفتت الممرضة الحزينـــة الى القبر المنفرد وآلمها ترك رفيقها في العمل في ذلك المقر الاخير الموحش .

ولكن ذلك المقر الموحش لم يترك على حـــاله . فاصدقاء بيـــل الصينيون أثرت فيهم خسارة حبيبهم الطبيب الذي صرف زهرة حياته في خدمتهم ، ولم تستطع الدعاية ان تمحو ثقتهم بان والاس لم يكن غير ما عرفوه. وبالرغم من الخطر الذي يحيق بهم جمعوا اعتماداً مالياً واقاموا فوق قبره اثراً تذكارياً .

مدوا الاسمنت فوق القبر ومـــدوا الاسمنت ايضاً فوق الارض المنحدرة تحته الى جهة النهر وبنوا درجات سلم يوصل الى حيث اقاموا مسلة مرتفعة نحو السماء وحفروا عليها عبارة من الكتاب المقدس تدل على تقديرهم لحياة الدكتور وليم ل. والاس وهي :

« لي الحيـــاة هي المسيح »

١٧

" وَالموتُ هُوَ رِبْح "

حلت افرلي هايس رباط مقعدهـا ، وهي في الطائرة ، وتحسست حقيبة اغراضها لتتأكد ان العلبة الصغيرة لا تزال فيها . وبعدئذ تطلعت من نافذة الطائرة نحو بناء محطة المطار النهائية في نوكسفيل ، تنسي ، البلدة الجديدة التي لم تعرفها من قبل ولكنها شعرت بحنين قوي وشوق عظيم اليها ، كأنها قد زارتها من قبل . والغريب ان حياة بيل والاس ابتـدأت في نوكسفيل وانتهت على ضفاف النهر الغربي في الصين ، تلك الضفاف المكسوة باشجار الصفصاف والخيزران .

وبينما كانت الطائرة تدرج على ارض المطار باتجاه المدخل سندت افرلي رأسها الى ظهر مقعدها وحاولت ان تتذكر أخبار الحوادث التي يرغب في سماعها سدني ستاكل وعائلته . ستخبرهم عن المستشفى وهيئة المستشفى وعن نيوبرن ورستس وبيل ...

ارادت ان تتذكر بيـل ضاحكاً ، وهو يجول في المستشفى بين المرضى ، وان تتذكره وهو ممسك دفـة قاربه الصغير ، وان تتصوره يداعب كلبه المحبوب .

خلال الأشهر الستة الأخيرة التي فيها كانت محجوزة الحرية في بيتها

وتحت المراقبة الشديدة في ووتشو لم تكن تتصور بيل الا شخصاً مديد القامـة نحيف البنية يسوقه الشيوعيون في سواد الليل ويبتعدون به الى مكان مجهول ثم تنتقل الى صورة اخرى له وهو جثة هامدة في زنزانة . اما الآن فان اخباراً مفرحة من اخباره تمر في بالها ايضاً . هذه الاخبار باحزانها وافراحها ستقصها على عائلة ستاكل .

ان سدني ستاكل وزوجته راعوث وابنهما استقبلوا افرلي وقبلوها بمحبة وشوق كأنها عضو من اعضاء عائلتهم ، مع انهم رأوهـا لأول مرة . انهم صلوا كثيراً لاجل سلامتها ورجوعها معافاة الى الولايات المتحدة ، وظلت الافكار المزعجة تساورهم حتى رأوها الآن بينهم . وهم الآن يحبون ان يسمعوا اخباراً كثيرة منها .

وتذكرت افرلي وهي تمشي في دار بيت ستاكل الخـارجي تحت ظلال الاشجار ان بيل كان قد اتخذ بيت راعوث ستاكل اخته عنواناً له . مرة بعد اجراء عمليات جراحية كثيرة ذهبت هي وبيل في نزهـة الى التلة الخضراء حيث الدوالي تغطي بقايا حصون كوانغسي الحربية القديمة ثم سارا نزولاً في ممرات خضراء متعرجة حتى وصلا الى المقر الاخير لابن الدكتور بادو الوحيد ، وابنـة ركس راي الصغيرة ، وزوجة احـد المرسلين القدماء ، وكثيرين غيرهم من الفرنسيين ومن رجال البحرية الالمان الذين ماتوا في حـادث جرفه تيار النسيان منذ زمن طويل .

وعندما وصلا الى الممر المؤدي الى النهر ليعودا الى المستشفى اخذ بيـل يتكلم عن بيت اخته راعوث ستاكل فوصف مدخل الساحـة

وسورها وما فيها من شجر القيقب . وها هي الآن ترى كل شيء كما كان قد وصفه لها فظهر لها سبب حنينها وشوقهـا غير المحدود لذلك البيت ومن فيه . لقد كان ذلك الوصف الدقيق الحي هو الذي جعلها تشعر كأنها عاشت في تلك البقعة من قبل .

وقد قطع سدني ستاكل سلسلة تذكاراتها بقوله : « كان من عادة بيل ، في اثناء اجازته التي يصرفها هنا ، ان ينام على الشرفة المكشوفة وكان يضحك ويقول انها مثل بيته . الا انه اشتاق الى الخشبة التي كان يضعها تحت رأسه . وفي احدى الليالي وضعت قطعاً من القرميد تحت وسادته للمزح معه ، فاخبرني في اليوم الثـاني وهو يضحك انه نام تلك المرة ألذ نومة ذاقها منذ اسابيع . »

فتبسمت افرلي وقالت : « هـذه عادته . انه ابعد الناس الذين اعرفهم ، عن طلب الراحة لنفسه . »

هذه كانت اول مرة تحدثوا فيها عن بيل فقالت راعوث ستاكل : « اخبار كثيرة نتوق الى معرفتهـا ونحب كثيراً ان نسمعها منك . » فشعّت عينا افرلي ببريق غريب وجالت فيهما دمعتان . وبعد هنيهـة قالت : « عندي اخبار كثيرة سأقصها . »

وبعـد الغداء جلسوا للتحدث . وكان سدني وراعوث يرغبان في سماع خبر الافراج عن افرلي اولاً . فاعترفت افرلي بان الاشهر الستة – التي مرت عليها بعد موت بيل حتى الافراج عنها – كانت صعبة جداً .

قالت : « لقد خفت ان افقد عقلي ، ولم يكن يسمح لي بالخروج

من بيتي ولا بالتكلم الى احـد من الناس حتى موظفي المستشفى . فمن شباك غرفتي كنت اراهم يذهبون ويأتون . وبين حين وآخر كـانوا ينظرون اليّ نظرة خاطفة سريعة يرافقها الخوف والحذر ، وفي بعض الاحيان كنت الوح لهم بيدي وقلما كانوا يجرأون على مقابلة اشارتي بمثلها ، لانهم ما كانوا يعرفون من هو الجاسوس بينهم . وهذا الخوف المستمر من أهم اسباب الانهيار العصبي ، كيف لا ونحن وراء الستار الخيزراني . امـا بيل فكان في حياته ينظر الى هذا الامر وسواه نظرة الفيلسوف الواسع الصدر ، بعكسي .

« كنت اضرب على البيانو واقرأ كتب معالجة الامراض العقليـة التي عندي واعيد قراءتها لكي افكر بكل شيء الا بموت بيل ومستقبلي المجهول . صليت كثيراً وقرأت الكتاب المقدس وسألت الله أكثر من مرة لماذا يسمح بما يجري . »

فهزّ سدني رأسه وقال: « ونحن ايضاً صلينا وسألنا السؤال نفسه. »

وتابعت افرلي حديثهـا : « كنت كل اسبوع اطلب ان يسمح لي بالسفر ولكن كل ما كنت احصل عليه هو ان أكرر الطلب من جديد . وبعد مضي وقت طويل سمح لي بمغادرة الصين ولكن في خلال اربع وعشرين ساعـة . ولم يسمح لي بان آخـذ من امتعتي الا ألزم الضروريات . »

ثم قالت بلهجة من يعتذر : « حقيقة احببت ان اجلب معي بعض اغراض بيل ولكن أكثرهـا كان محجوزاً ولم يسمح لي بالوصول الى القسم الباقي . »

فقالت راعوث : « نحن نعرف هذا ، وقد سرنا انك انت وصلت الى هنا . »

مدت افرلي يدها داخل حقيبتها واخرجت منها علبة صغيرة فتحتها واخرجت منها خاتماً ذهبياً واعطته لراعوث قائلة : « لقد دبرت طريقة اخذت بها هذا الخاتم من يده وهو في الحبس واعتقد ان الشيوعيين تغاضوا عن هذه المسألة . »

اخذته راعوث واستغربت ما على فصه من نقوش . فقالت لها افرلي : « من عادة الصينيين ان يحفر الواحد منهم اسمه على خاتمه فيختم به ما يريد المصادقة عليه . وكانوا قديماً يختمون رسائلهم بالشمع ويختمون الشمع بالخاتم فلا تفض الرسالة دون معرفة صاحبها . »

فأخذ سدني الخاتم ولاحظ ان قسماً صغيراً مأخوذ منه ، فسأل اذا كان سبب ما اوجب قطع حلقة الخاتم . فضحكت افرلي وقالت : « لا . ان بيل قال لي انه احتاج هذه القطعة الصغيرة ليحشو بها أحد اسنانه عندما كان لاجئاً في غربي الصين . »

ساد السكوت برهة . ثم تكلمت راعوث بلهجة حازمة قالت : « نحن نعتقد ، يا افرلي ، ان الله استعمل موت بيل لأجل مجده تعالى ، كما استعمل حياته . فقد سمعنا من كثيرين تأثروا باسلوب حياة بيل وثباته في خدمة الرب دون خوف ، انهم تشجعوا وتشددوا واتخذوه قدوة . وهذا ما جعلنا نؤمن بان ما جرى له كان قسماً من تدبير الله . »

نهض سدني وتوجه نحو مكتبه وعاد باوراق في يديه وقال : « يجب ان نطلعك على بعض ما قاله الناس عنه . فاسمعي ما كتبه نيوبرن . »

فاصغت افرلي وراعوث بينما كان هو يقرأ : « ان موت بيل كان أكثر من صدمة عنيفة لنا . وكان فقده خسارة جسيمة . ونحن نشعر في اعماق قلوبنا انه كان رجلا شريفاً ممجداً . ولا نستطيع الا ان نعتقد انه شعر بانه مدعو للسير في وادي ظل الموت ، وان ذلك هو ارادة الله له . لقد استشهد كثيرون في خدمة مقاصد الله ، وسوف يستشهد كثيرون غيرهم ؛ ولكن قليلون هم الذين يستطيعون ان يمجدوا الرب بموتهم كما مجده بيل . »

ثم أخذ سدني رسالة اخرى من مرسل سويدي يخدم الآن في اندونيسيا وقرأها :

« لقد أحب الصينيين حتى انه قضى حياته في خدمتهم . واحبوه حتى انهم وثقوا به ووضعوا حياتهم بين يديه . وقد اصبحت حياته القدوة التي نحاول الاقتداء بها . »

وطلبت راعوث ان يقرأ لها رسالة الدكتور رانكن . ففتش بين الرسائل حتى وجدها وقرأ :

« عندما يختار الله من يشهد لمحبته العظمى شهادة فائقة يختار ذلك الشخص من بين اولاده المتفوقين . فانه اختار ابنه يسوع ليؤدي تلك الشهادة على الصليب . والآن يظهر انه اختار بيل ليؤدي شهادة المحبة والتضحية . وان بذل النفس في سبيل الذين أحبهم وخدمهم يطابق حياة بيل وينسجم معها . وقد سارت المحبة والخدمة معاً لان بيل من نوع الناس الذين يخدمون بقدر ما يحبون . وخدمته المخلصة في اثناء حياته تشهد بانه مات موت الشهداء البررة المخلصين . ولم يكن موت

بيل نتيجة القبض عليه في حالة لم يستطع ان يهرب منها بل كان نتيجة اختياره طريق المحبة والخدمة مهما كانت النتائج . وقد اختار الطريق نفسها عندما كان الجيش الياباني يتقدم نحو ووتشو وظل على طريق الخدمة يكافح الامراض ويذلل الصعاب كل مدة عمله الارسالي . »

ثم قدم سدني قصاصة من جريدة فيها تصريح للدكتور كوثن وقال لافرلي : « اقرئي تقرير سكرتير منطقتك . » فاخذت افرلي التقرير وقرأت :

« ان اشياء كثيرة في كيفية موت بيل والاس تنقل افكارنا الى تذكر كيفية موت السيد المسيح . فالحكام حسدوه على ما له من المكانة في القلوب فاختلقوا الشكايات الكاذبة لادانته ، وحاولوا ان يظهروه بمظهر جاسوس اميركي كما جرب كهنة اليهود وكتبتهم ان يظهروا يسوع بمظهر من يحرك الشعب للثورة على حكم الرومان .

« وحاولوا ان يحقروه فجمعوا الجموع ودسوا بينهم من يساعدهم على اثارة شعور الجماهير ضده ، وفرضوا عليه شروطاً قاسية في سجنه . وجاء في بعض التقارير انهم اجبروه على افراغ وتنظيف اوعية الاوساخ وما اشبه ذلك من الاعمال المهينة .

« وكما حاول اعداء الحق ان يخفوا نور حقيقة قيامة المسيح من الموت فقالوا ان تلاميذه سرقوا جثته هكذا الشيوعيون في ووتشو قالوا ان بيل شنق نفسه ومات منتحراً . وهذا قول لا يقبله عقل ولا يصدقه أحد . وما هو الا محاولة لطمس شهادة الدكتور بيل وللتخلص من دينونة الرأي العام ...

« الطريقة التي قضى بها الشيوعيون على بيل والاس أظهرت أنهم جماعة همهم القضاء على تعاليم المسيح وهدم المبادىء التي جاء المسيح لاجلها . ولكن النشاط الذي يبذلونه ضد الشعوب المسيحية يصطدم اليوم بعزم المسيحيين على التضحية في سبيل الرب كما ضحى آباؤهم في جميع العصور . »

ثم أخذ بيده قصاصة من « مجلة الكلية الدولية للجراحة » وقال : « لنسمع ما كتبه أحد الاطباء عن بيل وهو يعبر عن شعوري أنا أيضاً . » وقرأ ما جاء في القصاصة :

« الرجال الذين مثل بيل هم روح الكلية . ففي تواضعهم كما في قوتهم يثبتون اسس المبادىء التي تهمنا جميعنا ... والشيوعيون الصينيون في جهادهم العنيف لتغيير نظام العالم وجدوا ان وجود بيل والاس في الصين يعرقل اعمالهم ويقطع عليهم طريق الوصول الى غايتهم . لقد كان مثالاً حياً للمبادىء التي يكرهونها . والأهم من ذلك انه كان ذا نفوذ وتأثير عظيمين رغم هدوئه ووداعته . وكل من ينكر نفسه لا يمكن الا ان يكون ذا تأثير على الآخرين . »

ثم رفع سدني نظارتيه عن عينيه والتفت نحو زوجته ثم نحو الممرضة التي خدمت مع صهره بيل جنباً الى جنب وقال :

« مما قرأناه وسمعناه نستنتج ان حياة وليم ستستمر في العمل المثمر لخدمة ملكوت الله . وانا أعتقد متأكداً انه سيقوم بخدمات أعظم في حقل الرب بطرق واساليب لا نحلم بها ولا نسمع عنها شيئاً . واني

أرفض ان اسمي حياته مأساة ، لانها كانت ولا تزال حياة جميلة صرفت في تحقيق مقاصد سامية عرفها الناس وسيظل البشر يتأثرون بها . »

فقالت افرلي وقد اغرورقت عيناها بالدموع : « اني سأظل اذكر الآية المقدسة التي حفرها اصدقاؤه على ضريحه : لي الحياة هي المسيح . وتتمة الآية : والموت هو ربح . »

خاتمة

هذه قصة حياة وموت الدكتور وليم ل. والاس من نوكسفيل ، تنسي ، ومن ووتشو ، الصين . النـــار المضيئة التي ارتفع لهيبها جداً ينعكس نورها الآن على العالم كما ينعكس نور الشمس بعد مغيبها . ان نور الغسق الذي تعكسه علينا حياة بيل والاس لا يزال مشعاً مع انه قد مضى على موته عشر سنوات .

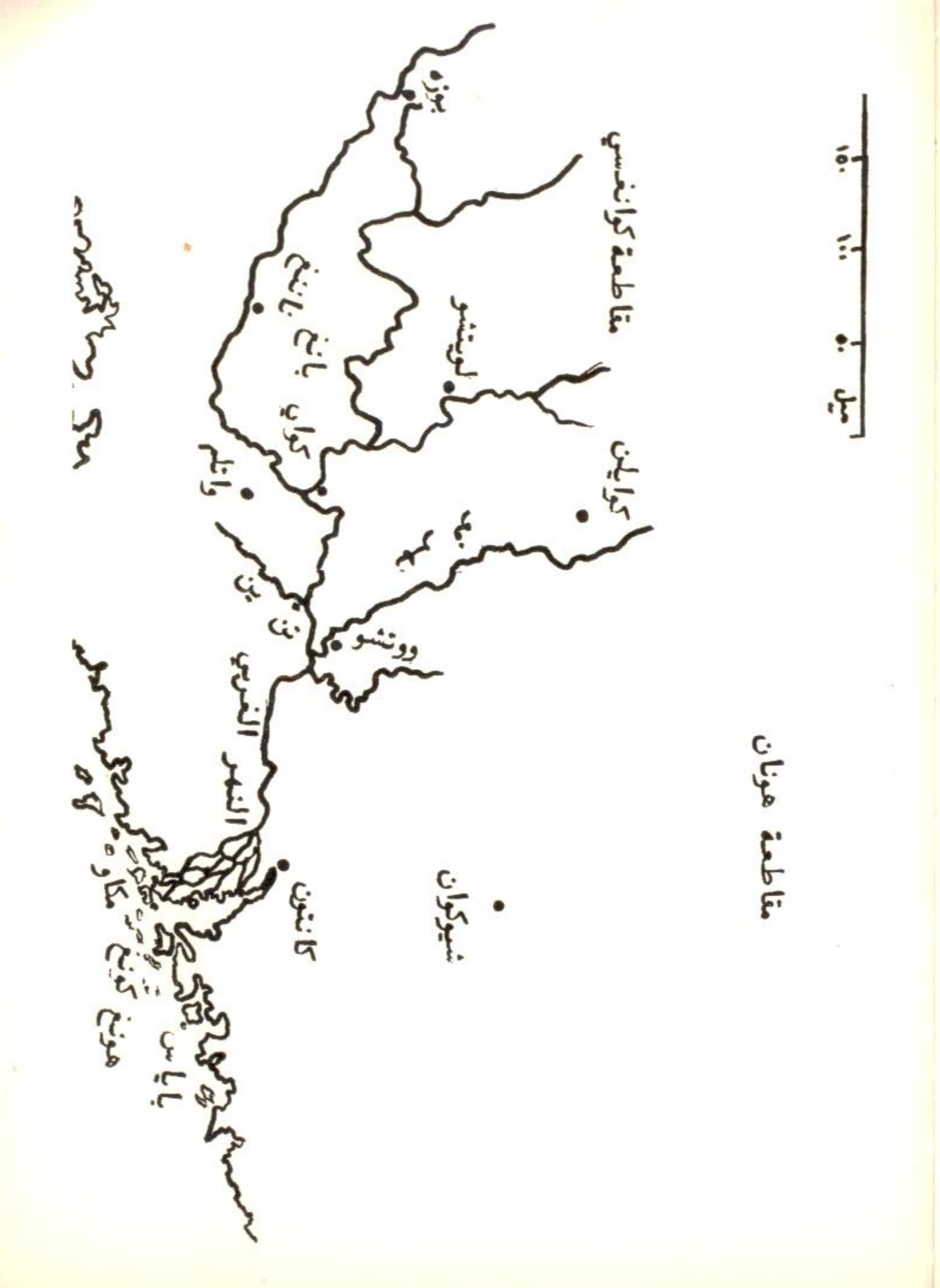
انه يشع في نوكسفيل حيث شيدت على اسمه كنيسة تضم اكثر من الف عضو ، ولا تزال سائرة في سبيل النمو والازدهار .

وذكراه تحيا وتمجد بواسطة البناية التي شيدتها كنيسة « برود واي المعمدانية » للتعليم الديني .

وفي « لتل روك ، اركانسو » يصلي التلامذة المعمدانيون في مدرسة الطب في الجامعة في كنيسة تسمى باسمه « بيل والاس . »

وفي بلدة انديو الصغيرة في كاليفورنيا كنيسة تدعى باسم الدكتور المرسل . وهي تواصل تأدية الشهادة التي كان يؤديها بمثل تضحيته ووداعته .

وقسم من المكتبة الطبية في المدرسة التي تعلّم فيها بيل مكرس على اسمه لتذكير تلامذة الطب ، الذين هم اطباء المستقبل ، بطبيب هو جزء من الميراث الذي سيحصلون عليه .



وفي وسط المصائب والحاجة ، يرتفع باسمه في بوسان ــ كوريا بناء مستشفى والاس ميموريال المعمداني وهذا المستشفى هو أعظم ما جعل باسمه لتخليد ذكراه ، والاطبـــاء العاملون فيه تنفحهم روح والاس بالنشاط فيقتدون به ويخدمون بمثل الروح التي كان بيل يخدم بها .

اسس هذا المستشفى ركس راي ، زميل بيل في ووتشو . ورئيسة الممرضات الاولى فيه لم تكن سوى لوسي ريت التي خدمت مع بيل والاس في « المستشفى في البرية » في اثناء الحرب اليابانية ــ الصينية .

وافرلي هايس تخدم الآن في اندونيسيا رئيسة لممرضات المستشفى المعمداني في جزيرة جاوا التي كان بيل والاس يقول انه يرغب في ان يؤسس فيها مركزاً طبياً اذا اضطروا للخروج من الصين .

اذا سررت بقراءة هذا الكتاب هلا تخبرنا بذلك ؟ اكتب لنا على العنوان ادناه وسنجيبك بكراس او اكثر مجاناً :

ص.ب ٢٠٢٦ – بيروت

فهرس الكتاب